

تجارة العبيد في إفريقيا



عايدة العزب موسى

مكتبة الشرق الدولية

الشرق الأوسط

تجارة العبيد في إفريقيا

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - أبريل ٢٠٠٧ م



٩ شارع السمادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ - ٤٥٠١٢٢٩ - ٢٥٦٥٩٢٩

Email: < shoroukintl@hotmail.com >

< shoroukintl@yahoo.com >

تجارة العبيد في إفريقيا

عايدة العزب موسى



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشؤون الفنية)

موسى ، عايدة العزب

تجارة العبيد فى إفريقيا

عايدة العزب موسى

ط ١ - القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٧م

٢٦٤ ص ١٧ × ٢٤ سم

تدمك : 5- 977- 09-2021

١- تجارة الرقيق

٢- إفريقيا - تاريخ

أ- العنوان

٣٨٠ ، ١٤٤

رقم الإيداع ٧٦٢٥ / ٢٠٠٧م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-2021-5

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الفصل الأول: ظاهرة العبودية	١٥
- تمهيد	١٧
- لماذا عبيد إفريقيا؟	٣١
- من أين جاء هؤلاء؟	٥١
- نظم التحالف العبودى	٥٥
الفصل الثانى: غرب إفريقيا والساحل الغربى	٦١
- البرتغال فى الساحل الغربى	٦٣
- التجارة عبر الأطلنطى	٧٢
- القبول بالمشاركة	٧٦
- الدور البلجيكي فى الكونغو	٨٨
- فقدان البشر	٩٨
الفصل الثالث: وسط إفريقيا السودان الكبير	١٠٣
التعريف بالسودان الكبير ، السودان الغربى والأوسط والشرقى	١٠٥
أولاً : - السودان الغربى والأوسط	١٠٦
- قرن الصحوة والحروب فى السودان الغربى والأوسط	١١٨
ثانياً : - السودان الشرقى «سودان وادى النيل»	١٢٧
- الممالك القديمة	١٢٧
- السودان الموحد	١٢٩
- رقيق الثورة المهديّة	١٣٤

١٣٨ رقيق الحكم الثانى
١٤٠ الأوضاع تختلف
١٤٥ الفصل الرابع، شرق إفريقيا
١٤٧ أولاً: (أ) الأوضاع فى شرق إفريقيا
١٥٢ (ب) التجارة العربية: التباين الجوهري، تدمير القرى
١٦٦ (ج) قرن الرعب:
١٧١ (د) قسوة المعاناة والدمار
١٧٥ ثانياً: (أ) العرب والكونغو
١٧٦ (ب) مملكة تيوتيب العربية
١٧٩ (ج) سياسة القضاء على العرب
١٨٣ الفصل الخامس، إلغاء الرق وأثاره
١٨٥ أولاً: - التنافس فى نقل العبيد
١٨٩ ثانياً: - حظر الرق
 ثالثاً: - الممارسات الاستعمارية للرق فى: شمال نيجيريا -
 السودان الغربى - موريتانيا - الصومال - زنجبار وساحل
١٩٦ كينيا
٢١٠ رابعاً: - عدد العبيد المقتنضين
 خامساً: - خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق: نهاية وبداية -
 الهجرات - الشاهد الاقنصادى تدهور
٢١٣ الصناعات المحلية - الجانب الاجتماعى
٢٢٥ الفصل السادس، الأخير، على من تقع مسئولية بيع الرقيق؟
٢٢٧ أولاً: - هل باع الإفريقيون ذوبهم؟
٢٣٢ ثانياً: - المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين
٢٣٧ ثالثاً: - مقارنة بين الرق الأوروبى والرق العربى
٢٤٧ رابعاً: - التعويضات عن العبودية

مقدمة

إن النظرة الخارجية لإفريقيا توحى بأنها قارة غير قادرة على التطور، وأنها ازدادت فقراً وبؤساً بعد الاستقلال، وأن الإفريقيين فشلوا في العمل جنباً إلى جنب، وأن الانقلابات والحروب الأهلية وحركات الانفصال التي تؤدي إلى التفتت، وقتل الأبرياء بلا تمييز والفساد والوهن كل ذلك يجري في ظل التحرر، وأن الإفريقيين دائماً ما يستغيثون في طلب المساعدة من الخارج سواء كانت هذه المساعدة لمقاومة المجاعات أو الجفاف أو لانهايار الإنتاج الزراعي أو للحصول على أسلحة للتدمير يستخدمونها لقتل بعضهم بعضاً، أو لدعم ميزان المدفوعات أو لاستثمارات رأسمالية وتكنولوجية لتفادي الإفلاس والتدنى الاقتصادي.

إن الحقيقة التي ينكرها ويتناساها الجميع أن هذا الوهن الإفريقي لتحديات التغيير والبقاء والتطور التي توصم به إفريقيا له جذوره الضاربة عبر التاريخ، قرون متتالية خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاعتراب.

التجربة الأولى تعود إلى القرن الخامس عشر عندما حدث الاتصال بالغرب. في البداية جاءوها مغامرين ومكتشفين ومبشرين، ثم تدفقوا تجاراً للرق، سرقوا واقتنصوا واقتادوا ملايين البشر من إفريقيا عبر الأطلنطي وقذفوا بهم إلى العالم الجديد في أمريكا ليعمروه. قدر الزعيم الغاني الراحل كوامي نكروما عدد الشيايب الذين فقدتهم إفريقيا خلال أربعة قرون بمائة مليون، وكانوا كلهم قتيلاً وفتيات فقط؛ لأن كبار السن لم يكن مرغوباً فيهم لعدم مقدرتهم على العمل الشاق المهلك في مزارع ومناجم الأمريكيات^(١). وهذه المرحلة هي مرحلة العبودية الأولى من الرق البشري والأسر المادي أفرغت فيها القارة من أبنائها.

(١) يقصد بالأمريكيات أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

تلتها التجربة الثانية وهي لا تختلف في مرارتها وآثارها المدمرة عن سابقتها، وهي مرحلة أو تجربة الأمر الثقافي «ريكانيف» حسب التعبير الذي أطلقه المؤرخ البريطاني الشهير «بازيل ديفيد سون» في كتابه «عبء الرجل الأسود» ويقصد به الأفارقة المثقفين الذين تعلموا في الخارج وعادوا إلى بلادهم أشد غربة عنها وعن شعوبها وأصبحوا عبيداً للثقافة والفكر الغربيين^(١). ويعرفهم «بازيل ديفيد سون» بأنهم إفريقيون تماماً حسب أصلهم، ولكنهم انفصلوا عن إفريقيا بتجربة حادة من تجارب الاغتراب، وأسروا بالأفكار الغربية التي لا تصلح لواقعهم، وهؤلاء انبثق عنهم نمطان من الوطنيين: النمط الأول يتكون من الرؤساء والملوك الذين بقوا يؤمنون بالتقاليد الإفريقية وهم من أطيح بهم، والنمط الثاني يرون أنفسهم أنهم الوارثون الحقيقيون للحكام الاستعماريين وهم من فرضوا سيطرتهم على الحكم أمثال الرؤساء الأوائل د. باندا في مالاوي وسنجور في السنغال وهو فييه بوانييه في كوت ديفوار (ساحل العاج) وحتى جومو كينياتا الذي كان كل ما يصبو إليه أن تمارس كينيا الحكم الذاتي في الكومنولث شأنها شأن كندا ونيوزيلندا.

هؤلاء المتعلمون في الغرب أنصار الحداثة كانوا يميلون أكثر لقبول الحلول الغربية للمشكلات الإفريقية، وتقبلوا المفاهيم الأوروبية للدولة القومية والسيادة، واعتقدوا أن هذه المفاهيم هي المناسبة للإفريقيين المعاصرين ليتعاملوا مع مشاكل العصر، وكانوا نافذى الصبر للتقاليد الإفريقية ولأى شئ يتعلق بالتقاليد القبلية، واعتقدوا أن مستقبل إفريقيا يجب أن يستند إلى النظريات الأوروبية وأن يستهدى بخبرات التاريخ الأوروبي، ونظروا إلى التقاليد باعتبارها عقبة في تحرير إفريقيا، وكل ما كان ينشده هؤلاء بمبادئهم بالقومية أن يحلوا محل الحكام الاستعماريين ولكنهم ما أن وصلوا إلى السلطة وجدوا أنفسهم وسياساتهم تواجه تحدياً من ممثلي تلك التقاليد وجموع الشعب العادي، ما أن يحدث ذلك حتى تجد هؤلاء أنصار الحداثة لا يترددون في الهجوم

(١) مثل جاكوب كابينين وهو طفل من غانا تم خضوعه للعبودية منذ طفولته حتى مماته (١٧١٧ - ١٧٤٧ م) بيع في وقت مبكر وهو في الثامنة من عمره إلى بحار هولندي قدمه كهدية لراع في لاهاي الذي أرسله إلى المدرسة اللاتينية، ثم التحق بجامعة ليذن كدارس اللاهوت، وهناك تم تكييفه للثقافة الغربية، وقدم رسالته الجامعية حول مسألة تحرير الرقيق، جاءت دفاعاً عن العبودية وتجارة العبيد التي لا تتناقض مع المسيحية حسب قوله. (كتاب إفريقيا من القرن الثامن عشر تأليف كريس براه ترجمة - حلي شعراوي وإسماعيل زقروق - دار الأمين للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧ م).

والإدانة والاعتقالات وصاروا يجمعون غيرهم ويضطهدونهم مثل خلفائهم سادة الاستعمار، ويلجأون أيضاً إلى قاعدة فرق تسد.

إن الوهن الإفريقي الذي تشاهده اليوم هو نتاج هاتين التجربتين القاميتين من تجارب العبودية التي أعاققت التطور والإصلاح والتنمية في إفريقيا.

وعلى الرغم من أن الغرب هو من ابتدع تجارة الرقيق عبر الأطلنطي وانتزع الأفارقة وشحنهم خارج قارتهم بلا عودة، وهي حقيقة مسجلة في أدبياته وأرشيفاته، إلا أنه الآن يحاول أن يتصل من أخطأ جريمة عرفت بالبشرية ويلقى بمسئوليتها على الأفارقة، فهو يقول لولا مساعدة الإفريقيين شعباً وحكاماً ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين. والرد البسيط أنه لولا وجود المشترين لما وجد البائع.

لا شك أن عدداً من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق الغربيين، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم ولا سيخضعون لظلم شديد. إن الحقيقة التي يجب ألا تغيب أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون في أي مكان في العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأي من هاتين الوسيلتين فبالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة نجد أن المجتمعات الأمريكية قامت أساساً على استغلال العامل الإفريقي وأرض الهندي الأحمر وهو أمر لا يمكن نكراته. اغتصب الأوروبيون الأرض وأزاحوا الأهالي وأحياناً كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة، وكان الأهالي المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون في معسكرات معزولة. إن الأوروبيين عندما كانوا لا يجدون من يتعاون معهم في استغلال العبيد كانوا يلجؤون إلى إبادة الأهالي والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث في الأمريكتين مع الهنود الحمر وفي أستراليا ونيوزيلندا، وما فعله الألمان في ناميبيا والبلجيكا في الكونغو.

لم يكن الزنوج الأفارقة مجرد عبيد ولا كان الهنود الحمر مجرد أفراد مطرودين من الأرض، وعلياً أن نقدر دور هذه الشعوب الصامتة التي أسدل عليها ستار النسيان لأنها أثرت في مسيرة التقدم التاريخي لأمريكا، فلا الزنوج ولا الهنود مجرد شعوب بدائية يمكن أن نطحنهم تحت رحى التفوق الحضاري الأوروبي، حتى بنيامين فرانكلين أحد رؤساء أمريكا الأقدمين عجز عن ذلك منذ أكثر من مائتي سنة بقوله: «نحن

نسميهم متوحشين ؛ لأن عاداتهم وأساليبهم فى الحياة تختلف عن عاداتنا وأساليبنا التى نعتقد أنها بلغت حد الكمال وهم يعتقدون الشيء نفسه لما لديهم .

إن تجارة العبيد الأفارقة التى بدأت فى القرن الخامس عشر واستمرت طوال الأربعمئة سنة التالية لهنى واحدة من أندر الظواهر فى تاريخ العالم فهى تمثل أكبر هجرة إجبارية فى التاريخ ، وقضلاً عن ذلك كان لتجارة العبيد ، واسترقاقهم الأهمية الحاسمة فى بناء إمبراطوريات الدول الأوروبية الاستعمارية وإنتاج الثروات التى فجرت الثورة الصناعية فيما بعد .



من الدراسات الحديثة للتاريخ الإفريقى قبل الاتصال الأوروبى يتضح أن الفجوة الحضارية بين المجتمعات الأوروبية والإفريقية لم تكن كبيرة جداً عند التقاء الشعبين ، وفى الوقت الذى وصل فيه الأوروبيون إلى ساحل إفريقيا الغربية كان عدد من الإمبراطوريات العظيمة قد تكونت بالمنطقة مثل مملكة غانة القديمة التى ضمت الأرض الشاسعة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا ، وما بين النيجر والمحيط الأطلنطى فيما بين القرنين السادس والعاشر ، ونشأ خلال ذلك استقرار حضارى واسع ومعمار متقدم وفنون جميلة متقنة وتنظيم سياسى معقد ، وكان السودان الغربى هو الذى أمد العالم الغربى بمعظم الذهب فيما بين القرنين الثامن والسادس عشر ، وأضعفت غزوات البربر فى الشمال إمبراطورية غانة القديمة فأفسحت المجال حينذاك لإمبراطورية مالى التى كانت تنوسطها مدينة تمبكتو المشهورة بثراتها الواسع وجامعتها الإسلامية التى حوت هيئة تدريس ممتازة مثل غيرها من الجامعات الأوروبية . كما كانت هناك ممالك أخرى أصغر منها مثل مملكة الكونغو ومملكة بنين فى طريق النعم الحضارى قبل وصول الأوروبي لإفريقيا بمئات السنين ، وقد مهر سكانها فى أعمال المعادن والنسيج والصناعات الخرفية وفن البناء والمشغولات الفنية الدقيقة ، وضارع كثير من مدنها المدن الأوروبية فى حجمها ، وكان لبعض مجتمعات غرب إفريقيا شعائر دينية وتجارة إقليمية جيدة التنظيم وقوانين تشريعية وأطر سياسية معقدة .

وكان النظام الداخلى للمجتمعات الإفريقية يقوم على العدالة ويعتمد على المساواة وليس العبودية . كانت العبودية تحدث فقط بفعل الحروب . وما تؤدى إليه من أسرى ،

وكان نظام الأسر نظاماً مؤقتاً فما يلبث أسرى الحروب أن يستوعبوا في الجماعات الداخلية التي انتقلوا إليها ويصبحوا أعضاء فيها خدماً أو جنوداً أو مزارعين .

ففي المجتمعات الإفريقية التقليدية كان للفرد حقوقه المعترف بها والمقدسة لدى القبيلة ، وكان زعيم القبيلة لا يجزء على بيع أحد من أبناء قبيلته أو عشيرته ، وإنما العبيد كانوا يأتون عن طريق واحد وهو الحروب ، وأسرى الحروب هؤلاء كانوا يعتبرون أجناب في المجتمع ، ومن ثم لا يحوزون الحقوق التي يتمتع بها أعضاء المجتمع ويباعون لقبائل أو أفراد آخرين داخل القارة . كان ذلك قبل أن تعرف إفريقيا مرحلة العبودية عبر الأطلنطي .

وإن فشل الزعماء والمؤسسات الحاكمة في حماية رعاياهم من الأسر ومع ضغوط التنفك والدمار كانت حتمية الفشل جاثمة ، ولم يكن مطروحاً أمامهم قط فرص النجاح في أن يتعدوا عن التجارة الأوروبية ، وفي الحالات التي كافح الحكام الأفارقة ضد هذا التيار القاسي وحاولوا بقدر أو بأخر إلغاء تصدير العبيد باءت هذه المحاولات بالفشل .

لقد مرت تجارة العبيد بنظم ثلاثة ، العبودية بالقرصنة ، العبودية بالتحالفات ، والعبودية بالمشاركة . وفيها شارك الأفارقة الأوروبيون في عمليات القرصنة ، وصارت تجارة الرقيق عملاً يقوم به الحكام والسادة الأفارقة من أجل حصول الإفريقيين على البنادق والأسلحة النارية ليدافعوا بها عن أنفسهم في حروبهم الداخلية .

في البداية ، كانت هناك أسر محددة ومعلومة لدى الطرفين ، ومع الوقت ساءت العلاقات بين الإفريقيين والأوروبيين وصارت تعاني من الانهيار ، وذوت العادات القديمة الخاصة بالمساواة والاحترام المتبادل واتخذ الإفريقيون في عيون الأوروبيين إلى مصاف العبيد وجالبي العبيد ، وصار الإفريقيون ينظرون إليهم باعتبارهم لا شيء إلا أنهم يراعون أرباحهم وأنهم لا يفعلون شيئاً إلا أن يحصلوا على المزايا ضد السود . وخلال الأعوام تعمقت القسوة والازدراء وأرسيت الأساطير عن إفريقيا المشوَّشة وأهلها البرابرة أكلة لحوم البشر ليمهد الأوروبيون غزوهم واحتلالهم للأراضي الإفريقية ولسحقهم لشعوبها ، وليؤكد الأوروبيون تميزهم الأخلاقي والمعنوي والمادي .

وبالنسبة للتجارة العربية للرق فقد كانت المبالغاة التي جرت في تقارير وكتب وأحاديث المستعمرين تصحح دور العرب والمسلمين في هذه التجارة ، وكان القصد من

ذلك التضخم هو تبرير الغرب تدخلهم في القارة باسم مكافحة تجارة الرقيق ومنعها وسعيهم للحصول على اتفاقيات بالتهديد أو بالإقناع للتدخل في شئون هذه الدول ومراقبة الدول والأسواق وخطوط الملاحة البحرية مثلما يفعلون الآن في القرن الحادي والعشرين في دارفور والصومال وأفغانستان .

نعم مارس العرب هذه التجارة ولكن شاركهم في هذه الممارسة اليهود في الشرق الإفريقي واليهود في الشمال الإفريقي والبربر في شمال القارة وغربها والأوروبيين في السواحل الإفريقية ، فضلاً عن الإفريقيين أنفسهم على ما سبقت الإشارة .

ولكن نظام الرق الذي كان يمارسه العرب والشرقيون عامة والمسلمون على وجه الخصوص كان يختلف تماماً عن نظام الرق الذي مارسه الأوروبيون سواء في أوروبا أو في الأمريكتين ، وذلك بشهادة المؤرخين الأمناء العربيين منهم .

وإذا كان كل من العرب والأوروبيين قد عملوا في تجارة الرقيق فإن التساؤل هنا يكون في كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفي مسئولية نزوح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية .

إن الفرق بين الرق في العالم العربي والرق في العالم الغربي ، أن الأوروبيين والأمريكيين اتخذوا من الرق نظاماً اقتصادياً في حين كان يشكل عند العرب نظاماً اجتماعياً ، وكان سوق الرقيق في العالم العربي محدوداً وسهل التشبع إذا ما قورن بسوق الرقيق الغربي ، كما أن التبادل التجاري بين العرب والإفريقيين لم يكن يجلب العبيد والخمسين فقط ، وإنما كان يجلب أيضاً الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من الممالك والمدن والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا ، وكذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية كتمبوكتو ومالي وحنفي وكام وبنو وغيرها . وبينما كانت تجارة الرق العربية تقوم على جهود فردية فإن التجارة الأوروبية اعتمدت على الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التي ضيق الخناق على القارة .

ومن السمات المميزة الأخرى للرق أنه كان عند العرب يستغل أساساً لخدمة المنازل والجيوش وأحد مظاهر البذخ ، بيد أنه في الأمريكتين كان له أساس اقتصادي وطيد ،

وكان العبيد يجلبون للعمل فى المزارع التجارية ويستخدمون كقوى محركة وفى رفع الأثقال وجرها شأنهم فى ذلك شأن المواشى . لذلك فإن العبيد فى الشرق امتصوا فى سكان المحليين ، كما كان اعتناقهم للإسلام يحررهم ، فقد فتح الإسلام مجالات تحرير الرقاب .

وهذا الكتاب يعد تكملة لكتايب السابق «العبودية فى إفريقيا» الذى كان عن معاملة العبيد الإفريقيين بعد امتلاكهم . وهذا الكتاب الثانى يكشف عن عمليات القنص والصيد للإفريقيين والاتجار بهم ، وأنواع العمل التى كانوا يسخرون لها وحاولت فيه أن أناقش حرية الرق الإفريقى وبواعثها وأطرافها وما أحدثته فى القارة من تدمير وخلل .

إن هذه الجريمة لا يزال يحيط بها الغموض والصمت وبالذات فى أدبيات المكتبة العربية ، ولا أدرى السبب فى نقص الكتابات فى مجال تجارة الرق الإفريقى هل لنقص فى المادة المتاحة أم لحساسية الموضوع أم لعدم أهميته الآن ، أم أنه تجاهل لإفريقيا وماضيتها ، مع أن ملف تجارة الرقيق كما يقول الباحث التشادى د . محمد آدم كلبو لا يزال حياً ولم يطلو صفحاته وربما سيكون من أولويات الدوائر العربية فى السنوات القادمة لاستخدامه أجندة سياسية للضغط على بعض الدوائر العربية والإسلامية والتدخل فى شئونها وتحميلها مسؤولية تجارة الرقيق فى إفريقيا بالرغم من تباين التجارتين الأوروبية والعربية

إن إزالة آثار الاسترقاق من النفوس وتحرير العقل الإفريقى من عقده وتدابيعاته لا يعنى محو تاريخ الرق من الذاكرة ، فمن الحكمة أن يتبنى الأفارقة تاريخ الرق بكل فخر واعتزاز ويحيوا ذكرى ضحاياهم ويخلدوا بطولاته فى المقاومة ، وبرزوا ضعف القيم الإنسانية والضمير الإنسانى فى عهد الاسترقاق .

لذلك فكل ما أرجوه أن يكون هذا الجهد المتواضع بداية لأعمال أخرى أكثر عمقا وتفصيلا ، توقف وتثير فى الضمائر المسئولية تجاه هذه الفارة المظلمة .



Handwritten text in a cursive script, likely Urdu or Persian, spanning the top of the page.

Handwritten text in a cursive script, likely Urdu or Persian, located in the upper middle section of the page.

الفصل الأول

ظاهرة العبودية

- تمهيد
- لماذا عبيد إهريقيا؟
- من أين جاء هؤلاء؟
- نظم التحالف العبودي

تقييد

وصف المؤرخ البريطاني الشهير «باريل ديفيدسون» في كتابه الموسوعي «إفريقيا تحت
أحباء جديدة» تجارة الرقيق الأوروبية بقوله: «فياقت تجارة الرقيق بعد اكتشاف
السواحل الإفريقية أي مدى عرفته هذه التجارة في القديم، حين كان يمارسها العرب
وتمارسها بعض الدول الزنجية. لم تكن تجارة العرب والزنج إلا نكبة خفيفة على
أطراف القارة وفي داخلها، ولكنها اتخذت معنى جديداً حين شرعت السفن الأوروبية
تنقل الشباب من الداخل ومن الساحل وتدمي أخبئة في القارة. وأضحت النخامة
على يد الأوروبيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود (الطاعون) الذي اجتاح أوروبا
فتنسى على ما يقرب من ثلث أهلها. بل أسوأ؛ لأن النتائج الاجتماعية كانت أقسى من
الموت، فالوباء الذي تعرض له الأوروبيون انتضت معه آثاره ولكن القهر الذي تعرض
له الإفريقيون والذل الذي عاشوه لم يكن تنفسي آثارهما، ولم يفتح الموت الأسود
أوروبا إلا عدداً من السنين بينما استمرت تجارة الرقيق تحصد السكان حصداً وتهدد
معنويات من بقي منهم على القارة أكثر من أربعمائة سنة.

إن أثر هذه التجارة الكامن في الناس والأقاليم يصعب بل يستحيل تحديده، خربت
المجتمع وأوقفت نموه الحضاري ولطخت وأفسدت نسيج المجتمع الإفريقي. لقد
عرفت إفريقيا الرق قبل أن يصل البيض من أوروبا، ولكن الرقيق كان عضواً حيوياً في
إطار المجتمع وله مكان معين تحدده التقاليد السارية والعادات، واستشرت تجارة الرق
على يد أوروبا فتحوّلت إلى عملية وحشية من الصيد الذي لا يرحم، لقد نجحت
أوروبا الاستعمارية في أن توهم الإفريقيين بأنهم يحملون وزر الرق كما تحمله أوروبا،
ونجحت في خلق إحساس أنهم لدى الإفريقيين^(١).

(١) باريل ديفيدسون: إفريقيا تحت أحواء جسيمة، ترجمة جمال محمد أحمد - دار الثقافة بيروت - لبنان
ص ١٩٣ - ١٩٤.

هذه الشهادة من مؤرخ كبير موثوق به تقابلها الآن أصوات وكتابات غربية تحاول أن تنفى عن الغرب مسئولية جريمة الرق وتلقى بها على العرب متهمه لهم بأن التجارة العربية فى الرقيق المعول الذى هدم إفريقيا السوداء .

وتسايرهم أيضاً فى هذا الادعاء بعض الأصوات الزنجية التى انحرفت بالزنجية عن مسارها . مبشما كانت نشأة الدعوة الزنجية فى ثلاثينيات القرن العشرين ضد الاستعمار الأوروبى وتجارة الرقيق الأطلنطية أصبحت موجهة إلى الماضى الأبعد لا إلى الحاضر الاستعماري ، وتثير مسألة تجارة الرقيق العربية عبر الصحراء الكبرى والمحيط الهندى ، ولم تعد نظرة الإفريقيين للعرب أنهم عناصر أجنبية وفدت على إفريقيا شأنهم شأن الأوروبيين المسيحيين ، بل إن صورة العرب والإسلام أصبحت أكثر ارتباطاً فى ذهن الإفريقى بصورة العبودية والاستغلال وتجارة الرقيق . ووجهت بعض الأدبيات الزنجية الانتقادات اللاذعة لمسئولية العرب عن المصير التاريخى السيئ الذى وصلت إليه القارة الإفريقية^(١) .

وقد اشتدت تلك الحملات ضد العرب فى السنوات الأخيرة فى الصحافة ووسائل الإعلام ، وللأسف لم تظهر دراسات موضوعية عربية أو إفريقية تواجه تلك الاتهامات ، بل أصبحنا نجد من بعض المثقفين العرب من يردد مقولة إن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم ، متغاضين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق فى إفريقيا أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى إلى إضعاف تماسكها وسهل مهمة الحركة الاستعمارية فى السيطرة عليها^(٢) .



إن تجارة الرقيق معروفة منذ العصور الأولى للبشرية ، وعرفت الأمم القديمة فى حضاراتها أنواعاً من الرق ، وأدبيات بعض فلاسفة الغرب تؤيد الرق فأرسطو فيلسوف الأمة الإغريقية يوجب الرق بقوله « لا يزال فى العالم مخلوقات للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة تحكمهم فى ذلك حكم الآلات الحية التى نساق للعمل ولا تدرى ما تساق إليه » . وأفلاطون فى جمهوريته يقول إنها لا تقوم إن لم يكن فيها رقيق يقومون

(١) العرب فى إفريقيا - سمنار كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م - د . جمال زكريا فاسم ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩ .

بالأعمال الشاقة، إن الإله الذي خلقهم وضع في طينة بعضهم ذهباً يمكنهم أن يكونوا حكاماً ووضع في طينة آخرين نحاساً وحديداً. والرومان الذين اشتهروا بالتقنين كان المبدأ السائد عندهم أن الرقيق يعتبر شيئاً لا شخصاً شأنهم شأن الحيوانات والجماعات التي يمتلكها السيد، ويقال إن قيصر روما عندما فتح بلاد الغال استولى على مليون أسير وضرب عليهم الرق^(١).

وهكذا نجد أن الرق ظاهرة لازمت البشرية منذ فجر حضارتها، وما زالت لها حتى يومنا هذا آثار وتداعيات همجية وشائنة ورواسب وبقايا مروعة مما يؤرق كل ضمير حي، إن إيقاع بشر أحرار في أصناف العبودية وسلبهم حريتهم وتحويلهم إلى أشياء ملوكة للتغير وإهدار كرامتهم وطمس هويتهم وممارسة حق التصرف فيهم بيعاً وشراء شأنهم شأن البهائم لا تنحجب على العبد فقط بل على السيد أيضاً كما قال هيجل «إن عبودية الرقيق تجعل السيد يفقد إنسانيته أيضاً، فالسيد بقدر ما يذل رقيقه ويستبيح كرامته وينكر عليه آدميته إنما يجرد نفسه من أية مشاعر إنسانية»^(٢).

إن الرق ليس من صنع الإنسان الهمجي البربري المتوحش، وإنما كان من صنع الإنسان المتحضر، ففي عصر الإنسان الأول الذي كان يعيش على قطف الثمار وعمليات الصيد لم تكن هناك حاجة إلى رقيق يعملون من أجل سادة يرفعون عنهم الشاق من أعمالهم، والإنسان بعد ظهور الحاجة إلى العمل أخذ يبحث عن يعفيه من عناء العمل ومكابدته ومن ذلك نشأ الرق.

لذلك يستحيل القول إن الرق ظاهرة إفريقية، ذلك أن التجارة بالرقيق عرفت في شتى أرجاء العالم القديم قبل أن تعرفها إفريقيا. فقد كان نظام الرق هو النظام الاجتماعي السائد في العالم القديم عند قدماء المصريين والهنود والفرس والعبرانيين والصين واليونان والرومان. وكان الرقيق هم وقود حروب وغزوات هذه الممالك والإمبراطوريات. وقد عرفت القبائل الإفريقية شأنها شأن شعوب العالم القديم، ومن نتاجه شيدت السلطنات والممالك الزنجرية عصر فجر إفريقيا. كما مارس عرب الجاهلية

(١) قضايا إفريقية - د. محمد عبد الغنى سعودي ص ٩٢ - ١٠٢.

(٢) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - أحمد فؤاد بليغ (الجزء الأول من نشأة الرق حتى مطلع الإسلام - الطبعة الأولى - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٣م) ص ١٨.

تجارة الرق في إفريقيا، وكانت لهم صلات بالمناطق الشرقية والوسطى والصومال والحبشة وزنجبار. وفي داخل القارة عبر الصحراء الكبرى من خلال المسالك الصحراوية إلى سواحلها الشمالية. ولكن كان حجم هذه التجارة محدوداً، ولم تأخذ تجارة الرق شكلها المدمر إلا بالتجارة الأوروبية عبر الأطلنطي بدءاً بالبرتغال ثم إسبانيا وهولندا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا، وابتدعوا نوعاً فريداً من تجارة الرق غير التجارة التي عرفت في إفريقيا عبر القرون^(١). فما حدث لم يكن مجرد استعباد إنسان وتسخيره لخدمة طبقة أو سلطة أو نظام، إنما كان شيئاً لم تشهد البشرية من قبل. إن ما أضر بالقارة الإفريقية ليس نظام الاسترقاق داخل مجتمعاتها وإنما سرقة شبابها والاتجار بهم وشحنهم كالحوانات خارج القارة وتفريغها من أبنائها فاهتر بذلك هيكلها الاجتماعي والاقتصادي وانهارت إفريقيا كلها كقارة. إن عملية الاسترقاق في العالم القديم والعصور الوسطى لم ترتبط بعنصر أو عرق معين، ولا بحدود جغرافية، وإنما شملت كل السلالات وانتشرت في كل أنحاء العالم القديم، غير أنه مع بداية العصور الحديثة أصبحت إفريقيا هي المجال الجغرافي الوحيد الذي مورست فيه ظاهرة الاسترقاق عبر البيع والشراء مما أصبح العملية بصبغة عرقية أفرزت نتائج سلبية كبيرة.

ولم تكن هذه التجارة وليدة سنوات بل امتدت لأربعة قرون وأكثر حتى خلت مناطق كاملة من إفريقيا من السكان، ودخلت القبائل والأقوام الإفريقية في دوامة نزوح هستيرية مفرغة كقطيع الماشية تهدده الكواسر من كل صوب، نزحت القبائل من هول غزوات غرب القارة. فقطعت طريقها شرقاً الغزوات من الساحل المقابل، ونزحت من الوسط متجهة شمالاً فوفعت في كعائن غزوات وقوافل تجار الرقيق عبر الصحراء، دمار شامل أقرب إلى الزلازل والأوبئة أهلك القوى المنتجة الإفريقية وأهدر طاقاتها وملكانتها الإنسانية المبذعة لقرون قادمة، فاختلت دورة حياة الإنسان والزرع والضرع، اندثرت مواقع الحضارات والثقافات ودكت محاريب المعتقدات الدينية، وانخرط عقد الروابط التي اتحدت عبر قرون وحقب، أنهار مسار التطورات البطيئة العفوية الهادئة الوادعة لإنسان إفريقيا فتمزقت خريطة القبلية والإثنية والعرقية.

(١) المرجع السابق - مؤسسة الرق من فجر البشرية - ص ٢٩.

من المتعذر تحديد بداية نشوء مؤسسة الرق، فالرق ظهر منذ كان الاجتماع البشرى ومنذ كلف الإنسان عن ذبح أسراه في الحروب بعد أن تبينت له قيمة العمل وعرف أن الأسير الحى خير من الأسير المذبوح، وبذلك يكون الرق ظهر حيثما كانت هناك أعمال يمكن أن يرفع كاهلها عن الإنسان ليوكل به على إنسان آخر^(١).

وقبل الحديث عن تطور مؤسسة الرق من الأصوب التفريق بين الرقيق والرق، بين مفهوم العبد أو الرقيق slave ومصطلح «الرقن - serf»، فالرقيق مملوك للمالك وممتلكات العبد الشخصية - إن امتلك أصلاً - تكون ملكاً للمالك، وكذلك زوجته وأطفاله تكون من أملاك صاحبه، وهو لا يتحوز على ما يتيج ولا ينال مقابلاً لخدماته سوى طعامه أو ما يقيم عليه، ويتصرف فيه المالك بيعاً وشراءً ومزاجرة. أما الرقن فهو إنسان حر يملك للمالك لا يباع ولا يشتري، له حق ولايته على ممتلكاته الشخصية وزوجته وأطفاله وممتلكته، قد تبايع وتشتري الأرض التى يعمل فيها أو تورث ولكن المالك الجديد يملك الأرض ولا يملك الرقن. ويرتبط الرقن بعقد مكتوب أو غير مكتوب يبقى بمقتضاه فى أرض أو خدمة السيد لا يرحلها إلا بموافقته، وقد يلزمه السيد بالعمل فى الأرض وتسليم نسبة من المحصول وما فاض فهو له. وقد يخصص له السيد قطعة أرض صغيرة يتصرف فى عائداتها مقابل العمل لأيام معلومة فى أرض السيد، وقد يلزمه سيد بأتاوة سنوية أو عينية أو نقدية أو الأثنين معاً^(٢).

ويرتبط العبد أو الرقيق بعلاقة ولاء مع سيده وتنشأ هذه العلاقة بعد أن يعتقه سيده، فأحياناً كان السيد لسبب أو لآخر يعتق أحد أرقائه، فهل كان يؤدي ذلك إلى تحريره؟ وهل يصير العبد حراً بعد أن تخلى سيده عنه؟ فى هذه الحالة تنشأ ما يعرف بعلاقة الولاء وهو أن يظل العبد فى أغلب الأحوال مرتبطاً بسيده ويستمر خضوعه لسيده وخضوعه له، وإذا قصر العبد فى الواجبات التى تفرضها عليه هذه العلاقة يجوز لسيده تسابق أن يستعيده من جديد رقيقاً له. وفى موسوعة «وصف مصر» التى سجلها علماء

(١) الرق فى الإسلام - أحمد شفيق باشا ص ١٢ - ٢١ مقلداً عن كتاب «مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة» ص ٣٤.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - السمات - الاضمحلال - توثيق وتعليق تأليف محمد إبراهيم نقد - دار الثقافة الجديدة (الطبعة الأولى) ١٩٩٥ م. ص ١٥١.

الحملة الفرنسية أن المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيدته القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله «عندما يأتون لزيارته يظلون واقفين فى عظمه خاتع ولا يجلسون أمامه مطلقاً إلا إذا دعاهم إلى ذلك، وكانوا يحرسون على ألا يجلسوا على الأريكة نفسها التى يجلس عليها سيدهم»^(١).

أوجزت الموسوعة البريطانية ج ٢ ص ٧٧٣ خلفية تاريخية لمؤسسة الرق فى نشوئها وارتقائها ثم انحلالها بنموذج أثينا وروما، وأشارت إلى أن مصادر الرق كانت من تناسل وتوالد الأرقاء، ومن بيع المواطنين الأحرار لأطفالهم من عوز وإملاق، ومن استرقاق المراكبي للمدنيين المعسر، ومن قراصنة البحار. ثم أصبح أسرى الحرب أكبر مصدر للأرقاء تليه تجارة الرقيق وأسواق النخاسة^(٢). وكان الرقيق يسخرون فى مختلف الأعمال سواء أكانت خدمة منزلية أو أشغالاً شاقة، وكان حق المولى على عبده لا يختلف فى شيء عن حقه على سائر أملاكه، ومن ثم كان يجوز له رهنه. وكان ملاك العبيد يشتطون فى عقاب عبيدهم بالجلد بالسياط والطحن فى الرحى. وكان العبد الأبق يكوى على جبينه بالحديد المحمى بل إن العتقاء من العبيد كانوا يلزمون بالولاء لأسيادهم السابقين مدى الحياة ويؤدون لهم الواجبات المفروضة^(٣).

وفى روما ربت مؤسسة الرق وازدهرت، وكانت مصادر الرقيق فى بدايتها أقاليم إيطاليا التى أخضعتها روما، لذا اختل أسرى الحرب المصدر الأول، ثم عن طريق القرصنة والاختطاف تألفت عصابات فى البر والبحر للإغارة على الجماعات الآمنة، وكان القراصنة يقومون باختطاف البشر من مناطق بعيدة فى إفريقيا وآسيا ويسوقونهم إلى الموانئ الرومانية ثم ينقلونهم إلى روما وغيرها من المدن الرومانية. وقد اتخذت القرصنة طابعاً عسكرياً، فالقرصنة كانوا يعملون تحت علم دولهم ويدافع منها. وكان ضحايا القرصنة يعتبرون من الغنائم ويجرى التبادل بينهم وغالباً ما كان اليهود هم الوسطاء فى التداول والافتداء^(٤). وكان للدولة أرقاؤها للعمل فى المناجم والأشغال العامة وشنق الطرق وأداء مهام الحراس والسجنائين وخدمة المعابد وصيانة القنوات

(١) وصف مصر ص ٢١٠-٢١١ نقلاً عن كتاب «مؤسسة الرق». المرجع السابق ص ٤٦.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السوداني، المرجع السابق ص ١٨٨.

(٣) قصة الخسارة للجلد الأول الجزء الثانى - ول ديورانت ترجمة محمد بدران ص ١٦٣-١٦٥ نقلاً عن كتاب «مؤسسة الرق»، المرجع السابق ص ٢٥٦.

(٤) مؤسسة الرق - المرجع السابق ص ٣١٣.

وتطهير المجارى . وعندما كان يتكاثر عدد الرقيق فى المحاجر والمناجم والمزارع الكبيرة وتضعب رقابتهم كان يوثق الأرقاء فى قيود وسلاسل ليعملوا فى جماعات وأيام محددة ، وتوثق الجماعات ببعضها عند النوم .

وانحدروا بالأشداء الأقوياء إلى حلبات المصارعة واتخذ المراهبون والسامسة من حفلات المصارعة والمراهنات مصدراً لشروات طائلة ، تقدر الموسوعة البريطانية حجم رقيق فى روما بما يعادل ثلاثة رؤوس رقيق مقابل مواطن حر . ونص القانون الرومانى على الحق المطلق للمالك فى رقيقه حتى حق القتل . وليس للرقيق حق الزواج كما لا يحق له اتهام ماله بالاعتصاب ولا تؤخذ شهادته فى المحاكم ولا يتم استجوابه بالإجراءات القانونية بل بالتعذيب^(١) .

وكان للرقيق أسواق كثيرة تعقد فى روما وفى المدن الرومانية ، وكان النحاس يعرض بضاعته أمام المشترين على حجر مرتفع بحيث يتيسر لهم معاينتها ، وكانوا أحياناً يضعون الرقيق داخل أقفاص كبيرة ، ويعلق فى رقبة كل منهم قطعة من الجلد يكتب عليها خصائص حاملها ويأمر النحاس رقيقه بالركض والرفص وبعض الحركات البهلوانية إظهاراً للياقة . وكانت العادة أن يطلب المشتري رؤية الأرقاء عرايا تماماً ، وكان يستطيع أن يتحسس أجسادهم ويمسكها بيده ولو لم يكن له رغبة فى الشراء^(٢) .

وظلت هذه الطريقة المهينة لبيع وانتقاء العبيد على طول المدى فى إفريقيا . يصف «بازيل ديفيدسون» فى كتابه «The African Slave Trade» العملية بقوله إن العبيد كانوا ينجمون من جميع أنحاء البرية ويوضعون فى مكان فسيح أشبه بالسجن قريباً من الساحل أعد لهذا الغرض ، وعندما كان الأوروبيون يتسلمون العبيد كانوا يعرضون عليهم فى العراء وكان بحارة السفن يفحصون كل جزء من أجسام كل منهم وهم واقفون عرايا رجالاً ونساء ، وكان المرفوضون منهم يسمون «المكرون» - Mackron وهم عادة من يزيد سنهم على ٣٥ سنة أو يكون به عيب فى شفتيه أو عينيه أو أسنانه أو يكون به أى عيب آخر^(٣) .

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٢) الرق فى التاريخ وفى الإسلام - مصطفى الخدولي نقلاً عن مؤسسة الرق - المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٣) The African slave Trade - Basil Davidson P. 107, (٣)

ومن الطبيعي أن مثل هذه المعاملة المهينة للإنسانية كانت جزءاً من عملية انتقاء السلعة والمساومة عليها ولكنها كانت أيضاً جزءاً من العملية النفسية في محاولة لسلب الأفارقة واحترامهم الذاتي وتخريدهم من كرامتهم.

وعندما ينتقل العبيد إلى السفن ويبحروا في محيط شاسع لم يسبق لأحد منهم أن رآه من قبل كان يملؤهم العناد لتترك أوطانهم فكانوا أحياناً يقضرون من القوارب أو السفن ويظلمون تحت الماء حتى يغرقوا. كان ذلك الفزع الذي أدى إلى الانتحار وهم ما زالوا على أبواب إفريقيا، وعلى متن السفن كانوا يضربون بالسياط وتشق الجلود، وكان من يظهر عليه التمرد يحكم عليه بالموت بطرق وحشية، ويخير الياقون على أكل قلبه وكبدته بعد قتله، أما المرأة فكانت تشد إلى قائم وتجلد بالباط ويخدش جسدها بجراح طويلة بالسكين. وبعد شراء العبيد كان كل عبد منهم يوم سيخ محصى لتمييز الشركة التي اشترته هل هي إسبانية أم برتغالية أم إنجليزية أم فرنسية أم هولندية^(١).

وفي عهد التوسع الإمبراطوري كادت روما تختنق تشبهاً بالرقيق، وشهدت هذه الفترة تسلل أرقاء إلى مواقع النفوذ في الأسر وفي الدولة وفي الجيش، وتكاثر عدد الرقيق المعتق حتى أصدر الإمبراطور أغسطس أمراً بتثبيد المعتق خوفاً من اضطراب التركيبة السكانية والتشرد والبطالة والجريمة، وتوقف المعتق عن ١٠٠ رأس كحد أقصى لا يجوز للمالك أن يتخطاه في السنة وإن فاقت ملكيته آلاف الرؤوس.

ونلخص الموسوعة البريطانية العوامل التي أدت إلى تحلل نظام العبودية ونشأة نظام الثمانية خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد: بنهاية عصر الفتوحات والتوسع، جفاف ونضوب موارد الرق، ركود تجارة الرق وحرص كبار الملاك والنبلاء على الاحتفاظ بأرقائهم في الزراعة^(٢).

على أن أبشع وأقصى ما كان يرتكب في حق العبيد المذكور هو خضوع البعض منهم لعملية الخصى. والخصى ممارسة شائعة وشاذة أقدم عليها الإنسان منذ أن توطلت أركان مؤسسة الرق وسادت في ركابه. فالخصى أو الخصاء جريمة نكراء ظلت البشرية

(١) الحمر والبيض والسمود من ٢٠٩ - ٢١٠ تأليف جازي به. ناس - ترجمة مصطفى أبو الخير عبد الرزاق - كتاب - الألف كتاب ١٩٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المراجع السابق من ١٩٣ -

تركتبها منذ فجر ضميرها . كانت محدودة في البداية ثم أخذت تتوسع وتنتشر في حضارة تلو الأخرى . وحتى عندما كانت مؤسسة الرق تقترب من نهايتها الرسمية ظلّ الخصاء يمارس بعد ذلك لفترة طويلة على امتداد القرن التاسع عشر .

ومرجع ارتباط هذه الجريمة بالرق هو أنها تركب في حق أطفال أبرياء أوقعهم سوء حفظهم في ربة الرق ، فالخصاء يجري أساساً للصغار لأطفال كانوا إما ضمن أسلاب معركة حربية ، أو قامت عصابات إجرامية مسلحة باختطافهم من أحضان أسرهم وبيعهم في أسواق الرقيق ، أو لأطفال باعهم آباؤهم بيع الرقيق بسبب فقرهم أي لأطفال أرقاء . ومن هنا كان ذلك الارتباط الوثيق بين الخصاء والرق .

وقد عرف الخصاء عند الشعوب الشرقية القديمة ، حيث كان البابليون والآشوريون يجرونه لأبناء الأسرى . كما كان يجري كعقوبة للسارق عند الآشوريين وكعقوبة للمخونة عند البابليين والفرس . وكان قدماء المصريين يجرون الخصاء للرقيق المجلوب من النوبة والسودان ، كما كانوا يجرونه كعقوبة للزاني^(١) .

وكان بعض المسيحيين يخصون الأولاد ليوقفهم لخدمة بيوت العبادة ، أما الإسلام فقد حرم الخصى ، ويقال إن محمد كرا الذي وصل إلى قمة مناصب حاشية سلطان دارفور وهو منصب «الأب الشيخ» خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده تسلطان تيراب^(٢) .

ورغم تحريم الإسلام للخصى فقد انتشر الخصيان في بيوت العرب الأثرياء ، وكانوا يعتبرونهم مظهرًا للثراء ويجعلونهم خدماً للحريم وحراستهن . والحقيقة أن خصى الأرقاء أكبر جريمة وصمت بها تجارة الرق العربية وأديت متها .



تورطت في تجارة الرق الإفريقي عدا الأوروبيين والعرب والإفريقيين أنفسهم ، تورطت أطراف أخرى كاليهود والهنود والكنيسة . ولأن الأطراف الثلاثة الأولى هم محور الكتاب وصليبه فمن المهم وجود إشارة سريعة إلى الأطراف الأخرى ، وهم وإن كان دورهم يبدو هامشياً فقد كان له أثر فعال في هذه التجارة غير الإنسانية .

(١) مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المرجع السابق ص ٣٦ .

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٧٩ .

أولاً: اليهود

كان لليهود دور كبير في تجارة الرق، فكان الرقيق أهم بضاعة لنشاطهم التجارى وعاملاً فعالاً فى رواجه، حيث كانت توجد شبكة من اليهود فى إسبانيا والمغرب الأقصى وبلاد السودان مروراً بالشام حتى المشرق الأقصى مستغدين من معرفتهم بعدة لغات. وكان اليهود على مر العصور فى مقدمة النخاسين الذين برعوا فى عملية خصى الرقيق، كما كانوا يقومون بدور الوسيط والسمرة بين التجار الأجانب الوافدين وأهل البلاد من المغاربة، إلى جانب اعتمادهم على الطوائف اليهودية المتمركزة فى مدن وأماكن كثيرة فى أرجاء العالم. وكان السودان الغربى (غرب إفريقيا) هو المصدر الذى تأتى منه هذه التجارة إلى المغرب الأقصى، وذلك بفضل تنظيم القوافل التجارية عبر الصحراء للمتاجرة فى الرقيق والذهب^(١).

وعند اليهود كانت الحروب وثيقة الارتباط بالرق، لذلك عندما تزايدت الحاجة إلى الرقيق وتزايد الطلب عليهم واتسع الاتجار بهم ظهرت طائفة النخاسين اليهود الذين كانوا يسبرون وراء الجيوش ومرافقين لهم حتى إذا انتهى القتال أقبلوا على المنتصر واشتروا منه ما وقع فى يديه من رق ويضعون القيود فى أرجلهم وأعناقهم ويقودونهم إلى أسواق النخاسة يبيعونهم بأثمان باهظة، وفى صدارة هؤلاء النخاسين يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أوروبا ويتنقلون بحرية فى أرجائها، حيث كان أغلب تجار الرقيق فى أوروبا من اليهود^(٢).

ثانياً: الهنود

ارتبط نمو النشاط التجارى العربى فى شرق إفريقيا ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الاقتصادى المتزايد لليهود، وكانت سياسة الخيرية التجارية التى اتبعها سلاطين زنجبار استتبعته وصول الهنود بأعداد متزايدة إلى المنطقة، ذلك أن السلطان سعيد سلطان زنجبار رأى

(١) قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة محمد بركات نقلاً عن مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المرجع السابق ص ٢٥٦.

(٢) الرق فى التاريخ الإسلامى / مصطفى الجداوى ص ٩٠ - ٩١ نقلاً عن مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المرجع السابق ص ٢٥٢.

أن أتباعه العرب ليست لديهم رموس الأموال الكافية لدفع التشايط التجاري العربي ،
وكان للهنود علاقات تجارية واسعة يشرق إفريقيا منذ قرون طويلة واشتهروا بدورهم
في أعمال الوساطة التجارية وإقراض المال والتعامل مع الرباء واستقرت أعداد منهم
في مدن ساحل شرق إفريقيا . وقد ظل نشاطهم منحصرًا في الساحل لجعلهم بالداخل
وخوفهم من عداة القبائل أو تعرضهم لأعمال السلب والنهب .

وحيث زاد عدد القوافل التجارية المتجهة نحو الداخل في شرق إفريقيا للحصول
على منتجات الداخل حل التجار الهنود محل العرب في تمويل هذه القوافل من العرب
والسواحليين مقابل تعهد هؤلاء بإعادة دفع أضعاف قيمتها في شكل رقيق أو عاج عند
بردهم من رحلاتهم في الداخل .

وقد غالى الهنود في تحصيل فوائد عالية على الأموال والبضائع التي كانوا
يتمسكونها ؛ لأنه في حالات كثيرة كان الهنود يفقدون أموالهم نتيجة عدم عودة القوافل
تجارية العربية من الداخل بسبب تعرضها للنشل أو السرقة ، وأدى ذلك ببعض
التجار العرب بأن يقيموا في المدن الداخلية خشية الخروج إلى الساحل بسبب مطالبات
- منهم من الهنود^(١) .

جنى الهنود أرباحًا طائلة من العمل بالوساطة التجارية وتمويل القوافل . وأثبتت
- ناثق البريطانية تورطهم في ممارسة تجارة الرقيق وتهريبهم خارج زنجبار - ومن
سهر هؤلاء التجار الهنود «تاريا توبان» Taria Topan الذي أقرض التاجر العربي
محمد بن حميد المراجبي الملقب بـ «تيتوتيب» Tippi Tip (سيأتي ذكره فيما بعد) الذي
- دم دولة عربية في شرق الكونغو - أقرضه مائة ألف دولار لتمويل قافلة لتجارة
- رقيق والعاج في داخل القارة^(٢) .

وكون الهنود طليقة طفيلية في شرق إفريقيا وأقاموا مستوطنات تجارية ومخازن
حصنة يودعون فيها بضائعهم ، وأماكن يخضعون فيها الرقيق الذي يجمعونه وحاميات

١- سمار قسم تاريخ جامعة القاهرة - الهنود وتجارة الرقيق في شرق إفريقيا - د. محمد مصيلحي - المرجع
سابق ص ١٧٦ .

٢- سمار قسم التاريخ جامعة القاهرة - المرجع السابق ص ١٧٧ .

صغيرة مسلحة لحماية متاجرهم ، ونظراً لأن حيازتهم للرقيق وتجارتهم فيه كانت غير مشروعة فقد أصدر السلطان سعيد قراراً في يوليو سنة ١٨٥٠م بإحراق مستودعات الرقيق الخاصة بهم^(١).

واستولى الهنود على عدد كبير من مزارع العرب في الساحل وفاء لديونهم ، وقد أشار القنصل البريطاني في زنجبار «بلايفير - Play Fair» إلى أن الهنود يحصلون على غالبية مزايا التجارة الخارجية بين شرق إفريقيا والعالم الخارجي نتيجة نشاطهم الاقتصادي المتنوع ، وأن العرب الذين يضطرون بعبء التجارة الأساسي في داخل شرق إفريقيا لا يتمتعون بأكثر من ٥٪ من عوائدها ؛ لأنهم يدفعون معظم هذه العوائد كفوائد للقروض التي يحصلون عليها من الهنود ، وقد أثار جشع الهنود السلطان برغش سلطان زنجبار وحاول طردهم من زنجبار لولا تدخل القنصل البريطاني لصالحهم^(٢).

ثالثاً: الكنيسة

بارك أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تجارة الرق. في عام ١٤٤٢م لمجد أن البابا يوجين الرابع أعلن رعايته حملات خطف الرقيق التي يقوم بها الملك هنري الملاح في إفريقيا وأصدر بذلك بياناً باباوياً. وفي الخمسينيات ١٤٥٠ - ١٤٥٩م فإن البابا نيقولا الخامس وكالبكستس الثالث قد أصدراموفقاتهما الحارة لهذه الحملات ، وكانت الكنيسة راضية بنصيبها من الأسلاب فكان كل ما تطلبه هو تعميم المأسورين إلى أمريكا حتى يثير انتقاد أرواحهم ، وقد تضرر الكنيسة في بعض الأحيان على أن تحمل السفينة ناقلة العبيد فسأ يصاحبها في رحلتها بين القارتين ، وكان الأسقف يجلس على مقعده الرخامي على الشاطئ فيعمد العبيد ويقبض نصيبه من رسوم التصدير ، وقد وصلت هذه الضريبة في القرن السابع عشر إلى ٣٠٠ كراون يدفعها تاجر الرقيق عن كل عبد ، وكانت حملات الرقيق مربحة إلى حد أن أحد الأساقفة أرسل سفينة لحسابه في إحدى هذه الحملات^(٣).

(١) معمار قسم التاريخ جامعة القاهرة - المرجع السابق ص ١٧٨.

(٢) معمار قسم التاريخ جامعة القاهرة - المرجع السابق ص ١٧٨.

(٣) العبودية في إفريقيا - غايلا العزب موسى / دار الشروق المولية ص ٣٩.

تبدد الكنيسة أى اعتراض على الرق بل كانت تؤيد استرقاق من لا يديشون مسيحية، وقد اتخذ الأوروبيون هذا المبدأ أساساً لاسترقاقهم الشعوب واستعبادها، لكنيسة مصلحة مادية فقد أغراها تجار الرقيق بالمال وجعلوا لها رسماً عن كل من (١). ولم ترد أية شبهة اعتراض على ما يتمتع به أصحاب الرقيق من حقوق على أنفسهم، ولم تقدم الكنيسة على إجراء من شأنه تغيير تلك العلاقة الظالمة بين السيد وقيته (٢). ولم تكن فى مضامينها دعوة للرقيق إلى التحرر أو إدانة صريحة لمظالم الرق وسيئاته ولم تقدم على إجراء من شأنه رفع الظلم عن هؤلاء الضعفاء بل إن القديس قريس مؤسس المسيحية أمر الرقيق بطاعة ساداتهم وحضهم على تسخير أجسادهم خدمتهم والإخلاص لهم مخاطباً بقوله: «أيها العبيد أطيعوا ساداتكم بخوف ورغبة لمسيح المسيح المترفين الضعفاء أيضاً». وعلى أساس مبدأ الخضوع أقامت الكنيسة سرعية للرق واتباع آباء الكنائس المسيحية المختلفة الرومانية واليونانية والبروتستانتية من هذا المبدأ فأباحوا الرق (٣).

حتى فى القرن ١٩ عندما كانت الحملة على الرق فى عنفوانها والصرخات تتعالى بحرية العبيد كان لا يزال يوجد بين كبار الكنائس الكثيرون ممن أباحوا وأحلوا النخاسة من الأب «بوفيه» استقف مدينة ليمان الذى كانت فتاواه تتخذ أساساً للتعليم فى أديرة كان يعتبر النخاسة تجارة حلالاً. وكذلك الأب فوردينيه الذى أثبت أن «استرقاق هو من جملة النظام المبحى».

كانت تجارة الرق راتجة بوجه خاص فى إيطاليا لقربها من المناطق الإسلامية، إذ كان تجار الصقالية يواصلون اختطاف المسلمين من الأراضى الممتدة على شواطئ البحر الأسود وآسيا الغربية وإفريقيا الشمالية، وكان النخاسون المسيحيون يخطفونهم منها وهم مرتاحو الضمير لا اعتقادهم أن اختطافهم هو انتقام عادل من المسلمين بسبب غرثهم على البلاد المسيحية (٤).

١ مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المراجع السابق ص ٣٧٥.

٢ لوف ماضييه وحاضره / عبد السلام الترماني ص ٣٢ نقلاً عن مؤسسة الرق - المراجع السابق ص ٣٤٦.

٣ مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المراجع السابق ص ٣٤٧.

٤ مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المراجع السابق ص ٣٥٣.

ولم تكن الكنيسة تكتفى بما لديها من أعداد كبيرة من الرقيق بل كانت تستزيدهم باستمرار، وكان القانون الكنسي يقدر ثروة أراضي الكنيسة في بعض الأحيان بعدد من فيها من العبيد، فقد كان العبد لدى الكنيسة يعد من السلع.

وبعد سقوط الدولة الإسلامية في إسبانيا مارس المسيحيون ضد المسلمين صنوفاً من التعذيب والتكيل، كان يتم تنصير المسلمين جيّراً، وقد صدرت الأوامر في عام ١٥٤٢م لرجال التنقيش على التعجيل بإجبار المسلمين على التنصير ومن يرفض فعلية أن يغادر إسبانيا أو أن يصبح رقاً طيلة حياته^(١).

يقول هيو توماس في كتابه «شبح الملك ليوبولد - King Leopold's Ghost» إن شهوة أرباح العبودية قد شملت بعضاً من القساوسة الذين تركوا التبشير واتخذوا من الناس السود محظيات وعبيداً، وباعوا تلاميذهم وحولوهم إلى العبودية. وأن القساوسة كانوا بعد عهد الإصلاح يحاولون أن يتأكدوا من أن بضائعهم البشرية لم تصل إلى أيدي البروتستانت لأن من عمد في الكنيسة الكاثوليكية لا يجوز أن يباع لأعداء الإيمان الكاثوليكي، وأن الرجال الذين أرسلوا من لشبونة ليكونوا مبشرين في مبانز كونغو (الكونغو حالياً) ما لبثوا أن جنوا أموالاً كثيرة من وضعهم قطعان الأفارقة في السلاسل وسحبهم إلى الساحل لقباطنة السفن حاملة العبيد^(٢).



(١) مؤسسه الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة - المراجع السابق ص ٣٦١.

(٢) King Leopolds Ghost, Adam Hockschid, Pan Books, Pan Macmillan Ltd. 2 London 2002. P. (٢) 9-10.

لماذا عبيد إفريقيا؟

لماذا كان هذا اللهاث والتنافس الحاد بين الأوروبيين لاقتناص العبيد الأفارقة بالذات رغم أن العبيد في ذلك الوقت كانوا يجلبون من آسيا وأوروبا وغيرها؟

كان اكتشاف أمريكا وتعميرها الحافز الأساسي والعامل الأول إذ ظهر أن الإفريقي أكثر قوة ومقاومة وقدرة على العمل الشاق وتحمل الظروف المناخية المشابهة بين إفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية. كانت أكبر المشاكل التي واجهها الفاتحون الأوروبيون المنتصرون في نصف العالم الجديد وهي المشكلة التي بقيت قروناً عديدة هي كيف يوفرّون عمالة ضخمة تتكون من آلاف مؤلفة والتي يمثل وجودها ضرورة لاستغلال تلك الثروات المبكرة الواسعة من المناجم والمزارع الكبرى وقطعان الماشية وغير ذلك مما فتح أبوابه الغزاة الجدد. ومع إلحاح هذه المشكلة وهذا الظلم للكسب الذي جلب عليه الفاتحون فإنهم استخدموا بقوة كل وسائل وأساليب العبودية واستعبدوا الهنود الحمر كما استعبدوا الزوج، ولم يفرقوا في ذلك بين رجل وامرأة ولا بين عجوز وطفل أو صبي. لقد كان الاستغلال في كل أمريكا واحداً من أنفع الماسي التي عرفها تاريخ العالم. وعلى مدى أربعة قرون والنصف منذ وصول كولومبس إلى أمريكا قضى على عمال يعدون بعشرات الملايين في هذا الاستغلال، لم تكن الحياة تعنى شيئاً بالنسبة للمستثمرين، وكل المستثمرين كانوا آثمين في هذا الأمر سواء كانوا من الإسبان أو البرتغاليين أو الفرنسيين أو الإنجليز أو الهولنديين.

استعباد الهنود الحمر

بدأ استعباد الهنود الحمر في أول أيام الغزو الأوروبي، كانت إسبانيا في القرن السادس عشر لا يزيد سكانها على بضعة ملايين. ولم يكن يزيد سكان البرتغال عن المليون والنصف مليون، فكان من الواضح أن المستثمرين منهم في أمريكا لن يستطيعوا الحصول من بلادهم الأصلية على عمال يكفون استثماراتهم في العالم الجديد. ومن ثم ظهر احتياجهم للأهالي الهنود في أمريكا وعملوا على أن يترقوهم ويستخدموهم بوصفهم عبيداً. ويذكر المؤرخون أن الإسبان، في ذلك الوقت، لم يكونوا يعتبرون الهنود ممن ينتمى للجنس البشري، وأنهم لم يكونوا في نظرهم يستحقون معاملة أكثر من معاملة تختلف عن الخيل والكلاب.

وكثرت الكتابات في النصف الثاني من القرن السادس عشر تصف الهنود بأنهم مخادعون أجلاف متوحشون وأنصاف آدميين تشبثوا بالنفس منهم، وأنهم من آكلي لحوم البشر كما جاء في كتاب منشور سنة ١٥٧٨م «إنهم لا يجدون أى لحم فاسد إلا أكلوه على حاله دون أى نوع من الطهي وأنهم يبيعون يتعمسون في ملذاتهم الجنسية وتحركهم العواطف أكثر مما يحركهم العقل»^(١).

إن محاولة استرقاق الهنود الأحمر بدأها الإسبان في جزر الهند الغربية بعد وصول الإسبان بقليل، ولكن هذه المحاولة ما لبثت أن فشلت فلم يستطع الهنود أن يعملوا في المزارع الواسعة، والكثير منهم لم نستطع صحنه أن تحمل ما لم يعتده من عمل شاق تحت الشمس الحارقة، والبعض قتلته السياط التي جلدتهم بها الآتون عبر البحار. وشكلت الأمراض المعدية التي جلبها الأوروبيون معهم إلى العالم الجديد كالجدري والدفتيريا والحمى القرمزية والحمى الصفراء كوارث على أهالي البلاد الأصليين فلم تكن لدى الهنود الأحمر مناعة عندما وصل الأوروبيون حاملو هذه الميكروبات، مما جعل تأثيرها سريعاً ومميتاً وأبديت قبائل بكاملها خلال سنوات قليلة^(٢). وخلال جيل واحد كادت جزر الهند الغربية تفرغ من سكانها الهنود. إن الكتاب الذي كتبه «لاس كاساس - Las Casas» وكشف فيه الاستغلال الإسباني البربري والقتل الجماعي للهنود كان واحداً من أكثر الكتب التي قرئت في هذه الفترة وحر «تدمير الهنود الأحمر - The Destruction of the India».

قبل مجيء الأوروبيين كانت الحروب بين الهنود محدودة ولم تساعد الدوافع إليها ولا الأسلحة البدائية على خسائر كبيرة فيها. وبعد ذلك أصبحت حروب إبادة شاملة لأسباب اقتصادية، ثم ازدادت تدريجياً من أجل أهداف أوروبية.

كان استيلاء الأوروبيين على الأراضي من خلال مجموعة من الخدع المخطط لها، كان الأوروبيون يطلقون الماشية إلى الحقول الهندية المعدة للزراعة ويتركونها بها فترة من الوقت كوسيلة فعالة لإقناع الهندي إن أرضه تفقد قيمتها، كما كانوا يستخدمون الكحول لإضعاف براعة الهندي في التفاوض أو يشترون الأرض بأبخس ثمن من

(١) الأحمر والبيض والسود - المرجع السابق ص ٥٣.

(٢) الأحمر والبيض والسود - المرجع السابق ص ٩٣.

زعيم هندي يدعى ملكيتها كذياً ثم يقيمون الدعوى على أى زعيم ينازعهم عليها، أو تخريم الهندي عن أى اعتداء أو إهانة بسيطة للقانون الإنجليزي كالتنزه يوم الأحد أو دخول مدينة دخلاً غير قانوني ثم يتقدمون من الدين الذي سيعجز عن سدادها بإعفائه من الغرامة نظير قطعة من أرضه^(١). وكانوا يحاصرون قرى الهنود ويشعلون النار في أكواخها وينتظرون الهاربين الناجين من هذا الجحيم ويحصدونهم بتيارهم، يقتلون الرجال ويستحيون النساء والأطفال ويتخذونهم عبيداً أو يبيعونهم لقبائل أخرى أو يشحنونهم مكبلين في السفن إلى جزر الهند الغربية. كتب أحد الهولنديين يقول: «الأطفال الصغار، انتزع بعضهم من أمهاتهم وقطعوا إرباً أمام أعين والديهم وألقيت أشلائهم في النار أو النهر، وربط أطفال آخرون على ألواح من الخشب ثم ذهبوا كالحيوانات مما ينظر له قلب الحجر، كما ألقى البعض في النهر، وعندما حاول أبائهم وأمهاتهم إنقاذهم لم يسمح لهم الجنود بالعودة إلى الشاطئ بل تركوا الجميع كباراً وصغاراً يغرقون، وهرب القليل منهم وقد فقد البعض يده والبعض الآخر رجلاه والبعض كان يملك بأمعانه بأيديهم... هكذا كان الكل إما مقطوع الأوصال أو مضروباً بالهبة أو مشوهاً بدرجة لا يمكن تصور أسوأ منها^(٢)».

وهكذا تشابهت تجارة العبيد الإفريقية مع التجارة في الرقيق الهندي، فالأوروبيون لم يتوغلوا في الداخل وإنما كونوا أحلافاً مع الجماعات الوطنية الساحلية وزودوهم بالسلاح وكافؤوهم بسخاء بالبضائع الأوروبية وشجعوهم على محاربة الجماعات الهندية الأضعف منهم والتي كانت تعاديهم من قبل. وفي السبعينيات من القرن السابع عشر اخترقت قوافل العبيد الأراضي الخلفية إلى الساحل مثلما كانوا يسبغون تماماً في فلوريديا عبر المناطق الداخلية في إفريقيا إلى القلاع التجارية على ساحل غرب إفريقيا وما أن وصلوا إلى الساحل حتى شحنوا على السفن ليكملوا ترحيلهم إلى مستعمرات أخرى، وكما كان الإفريقيون يعبرون الأطلنطي أثناء ترحيلهم وإعادة ترحيلهم الإجباري كان غالبية العبيد الهنود ينقلون إلى جزر الهند الغربية، وشحن مئات منهم في سفن تجاء الشمال إلى مستعمرتي نيويورك ونيوإنجلاند^(٣).

(١) الأحمر والبيض والسود - المرجع السابق ص ٩٨.

(٢) الأحمر والبيض والسود - المرجع السابق - ص ١١٥.

(٣) الأحمر والبيض والسود، المرجع السابق - ص ١٣٠.

حمل لاس كاماس موضوع تدمير الهنود إلى محاكم إسبانيا، وأدت هذه الإثارة مع الوقت إلى صدور قوانين تمنع استعباد الهنود بشكل شخصي وتعطيهم بعض الحقوق مع إبقاء استغلالهم في المزارع الكبيرة، وما لبثت هذه القوانين أن أهملت في التطبيق في كل أمريكا بسبب المعارضة التي جاءت من جانب ملاك الأراضي. وحدث الشيء نفسه تقريباً في بيرو أيضاً وعاد الاستعباد من جديد، ونشأ نظام هناك يمكن المالك الذي يحوز الأرض من السيطرة على الهنود الذي يعملون فيها، وانتشر هذا النظام مع بداية القرن السادس عشر في «سانتو دومينجو - Santa Domingo» ومختلف المستعمرات الإسبانية والمكسيك وبيرو والأرجنتين... إلخ.

وطبقاً لهذا النظام كان الهنود يعطون قطعاً صغيرة من الأراضي الفقيرة مقابل أن يقدموا عملهم لخدمة أراضي الملاك الأوروبيين، وبالتدريج كان يقل الوقت الذي يبذله الهنود في أراضيهم ويزداد بالتدريج الوقت الذي يعملونه في مزارع السادة، وفي شيلي كان الهنود يعملون في أراضيهم الخاصة نحو ١٦٠ يوماً في السنة، ثم هبط عدد هذه الأيام بعد عدة عقود لتصبح ٦٥ يوماً فقط يعملون فيها لأنفسهم. وقد ألغى هذا النظام سنة ١٧٢٠م واستبدل به نظام آخر صار هو السائد في المزارع الكبيرة في أغلب المستعمرات الإسبانية، وفي هذا النظام الجديد صار مالك الأرض يملكها كلها وصار العامل معدماً لا يملك شيئاً.

وكان ثمة نظام شبيه بهذه النظم وجد في بيرو وبوليفيا للعمل في المناجم وطبق في المزارع أيضاً وفي صناعة المنسوجات وغيرها من المجالات. وهذا النظام وضع عام ١٥٧٢م وبقي نحو مائتي سنة وكان العمال يعملون في مناجم الفضة وغيرها في أقسى ظروف العمل بغير أجر تقريباً. ويذكر بعض المؤرخين أن قسوة ظروف العمل أدت إلى موت أربعة من كل خمسة هنود في السنة الأولى لعملهم.

وفي البرازيل وجد نظام مشيل سنة ١٦١١م، كان ملاك الأراضي يتعاملون مع الهنود تعاملهم مع العبيد، مما اضطر الحكومة في سنة ١٧٢٠م أن تمنع استخدامهم كرقائق إلا إذا كانوا يتجاهلون هذه القرارات ويتعاملون مع الهنود تعاملهم مع العبيد، الأمر الذي أدى إلى هرب الهنود واختيائهم في داخل الأدغال والغابات البعيدة. وقد كان الأوروبيون يقومون بحملات في هذه المناطق ويشترك في الحملة الرجال والنساء

والتقاوسة وغير ذلك ليضطادوا العبيد من الأدغال. وفي حملة واحدة قى باراجوى حطادوا ١٥١ ألفاً من الهنود الحمر، وبين سنتي ١٦١٤ و ١٦٣٩ م استرقوا نحو ٣٠٠ ألف هندي. وكانت هذه الحملات هي ما وسع من نطاق حدود البرازيل مئات الأميال على خلاف ما كانت رسمته المعاهدات القائمة وقتها بين الدول الاستعمارية.

وفي المستعمرات الأمريكية الشمالية التي كان يسيطر عليها الفرنسيون والهولنديون والإنجليز كانت تبذل المحاولات لتحويل الهنود إلى عبيد أرقاء ولكن بغير نجاح كبير. كان من السهل على الهنود المأسورين أن يهربوا من الحدود فيعيشوا بين أهلهم. وكانت القبائل البدوية وشبه البدوية الموجودة على طول ساحل شمال الأطلنطي وفي برازيل والأرجنتين وشيلي، كان من الصعب أن يتحولوا إلى رقيق. وقد كانت أكثر عرق كشافة من السكان الهنود وجماعاتهم توجد في المكسيك وبيرو فكانوا يؤسرون عيون عبيداً، ولكن لسوء حظ المشترين كان الهنود يهربون إلى قبائلهم، ولم تكن مثل الكبيرة التي تميزت بالقوة وبالاعتاد بنفسها والتي كانت تسيطر على حدود أمريكا الشمالية طوال مرحلة الاستعمار، لم تكن هذه القبائل تحتمل أن يستعبد أبناؤها.

ثورات الهنود الحمر

فرض الإسبان والبرتغاليون على عبيدهم الخضوع لسياسات من القمع والإرهاب الشديد، وكانت أول بادرة تظهر للثورة يواجهونها يتمع لا يعرف الرحمة، ومع ذلك فإن تاريخ العديد من المستعمرات عرف العديد من الانتفاضات التي قام بها الهنود وسفكت فيها الدماء، وكانت ثمة ثورات في الساحل الغربي من المناطق الإسبانية في المكسيك وخصوصاً في المناطق الجنوبية، حيث كانت الكثافة السكانية للهنود كبيرة. وإن الهنود لم يقاتلوا ببطولة فقط ضد الغزاة ولكنهم بذلوا جهوداً ضخمة لطردهم من أراضيهم، ويمكن الإشارة هنا إلى عدد من ثورات الهنود، قامت واحدة منها في بيرو سنة ١٥٧١ م، وبعد مائتي سنة في ١٧٨٠ م في المنطقة نفسها شبت ثورة أخرى جديدة أعلن قائدها نفسه إمبراطوراً والتف حوله نحو ٦٠ ألف هندي. وعرفت المكسيك انتفاضات عديدة من الهنود وغيرهم من المواطنين منها ثورات في أعوام ١٥٢٤ -

١٥٤١ - ١٥٤٦ - ١٥٩٥ - ١٦١٦ - ١٦٦٠ - ١٦٨٠ - ١٦٩٦ - ١٧٠٧ - ١٧٦١ م،
وأكبرها ما كان بين سنوات ١٦٢٤ و ١٩٦٢ م. وقامت انتفاضات في شيلي سنة
١٦٠٠ م وفي البرازيل سنة ١٥٧٢ م. وهي ما عرف بحرب السنوات السبع، كما
حدثت ثورات وحروب بين سنوات ١٦٢٠ - ١٧٥٠ م.

وهذه الثورات التي قام بها الهنود وخاصة في القرن ١٧ كانت هي طلائع الصراع
الثوري الخامس لتحرير المستعمرات من الإسبان والبرتغال، وقد اتخذت شكلها المحدد
في العقد الأول من القرن التاسع عشر، واندمج فيها الهنود والزنج أيضاً، وحدثت
ثورات في فنزويلا سنة ١٧١١ م، كما حدثت ثورات في بوليفيا وكولومبيا وغيرهما^(١).

استرقاق الزنوج

بعد أن وجد الملاك الاستعماريون من كل جنسية أنه ليس في مقدورهم استخدام
العمال البيض ولا العمال الهنود الحمر في العمل القهري في مزارعهم وفي المناجم
تحولوا برغبة جامحة لاسترقاق الزنوج من إفريقيا، وقد صار امتلاك العبيد من الزنوج
أمراً عاماً من الناحية العملية في النصف الغربي للقارة طوال المرحلة الاستعمارية، إن
كل الدول الاستعمارية - الإسبان والبرتغال والهنولنديون والفرنسيون والإنجليز - كانوا
مشاركين في هذه العملية الدنيئة، ولقيت عبودية الزنوج مباركة الكنائس الكاثوليكية
والبروتستانتية، كما مارسها كثير من القادة الليبراليين ومن لم يمارسها غرض الطرف
عنها. إن الاستعباد القاسي لشعوب الزنجية يشكل أكثر ما يشين في كل التاريخ
الأمريكي، وتحولت النظرة إلى أمريكا من أنها قوة تحرير للحياة وتجديدها إلى الأفضل
إلى أن أصبحت صورة للتناقض الذاتي، فعلى الأرض التي بشرت بالحرية مورس
الرق بشكل يشع وصارت أمريكا كغيرها صورة مزعجة عن تراجع مجرى الارتقاء
التاريخي للجنس البشري.

بدأت الرأسمالية الحديثة من القرن السادس عشر، وكان للعبودية دور كبير في
نموها، وقد ازدادت الرأسمالية ازدهاراً مع تجارة الرقيق ومع العمل العبودي نفسه،

(١) Our Line Political History of the Americas William Z. Foster, International Publishers, New York, 1951, P. 71-75.

الميكرة في البرازيل على سبيل المثال فإن العبد الزنجي البالغ كان يقدر ثمنه بنحو ٧٥ دولاراً في الوقت الذي كان يشتري الهندي بحوالي ٥ دولارات أو أكثر قليلاً.

إن التفسير الأساسي للسبب الذي جعل الاسترقاق والنقل بهذه الأعداد الضخمة من العبيد من إفريقيا إلى أمريكا هو قيام التنازعات بين القبائل الزنجية في القارة الإفريقية. وقد استطاع تجار العبيد من الترويج ومن البيض أن يلعبوا دوراً في هذه الخلافات وما أدت إليه من كوارث بالنسبة للشعوب الزنجية، وهي سياسة فرق تسد، السياسة نفسها التي اتبعها الغزاة الأوروبيون بين الهنود السكان الأصليين في أمريكا.

اغتصاب قارة

إن الجزء الأكبر من العبيد جاء من الساحل الغربي لإفريقيا الاستوائية وهو أقرب الشواطئ الإفريقية لتصدير العبيد لأمريكا، ومن ثم تنافست الدول الاستعمارية من أجل الحصول على العبيد ووزعوا القلاع على طول هذا الشاطئ واستتبقت قوات محاربة فيها لاصطياد العبيد. وكان الكثير من السفن يقوم بمحاربتها بالحملة لقتل العبيد وترحيلهم. وقد ذكر «دي بوا» أبو الوحدة الإفريقية و«باعتها» إن أقاليم عديدة أفرغت من سكانها وقبائل كاملة اختفت، كانت عملية اغتصاب للقارة نادراً ما كان لها مثيل في التاريخ القديم ولا في التاريخ الحديث^(١).

إن صائدي العبيد كانوا يقيدون العبيد بالسلاسل بعضهم ببعض ويسبرون بهم مئات الأميال ويدمغونهم بالاختام المحماة مثل الماشية لتمييزهم باسم المالك لهم، وينقلونهم عبر البحار في سفن العبيد الربعة، يخدمونهم فيها في ظروف من الجوع والقسوة التي لا توصف (وكانت أعداد كبيرة منهم تموت)، ثم يبيعونهم للسادة المستعمرين مثل الماشية. وكان ثمة العديد من التمردات التي تحدث على ظهر السفن، إن الانهطاط الأدمى في سعيه وراء الربح لم يغرق إلى هذه الأعماق المتدنية بمثل ما حدث في تجارة العبيد.

يصف أحد الكتاب ما رآه في إحدى سفن القرصنة التي تتاجر في الرقيق والتي كانت تصل إلى أحد الموانئ الأمريكية سنة ١٨٢١م يقول «إن المساحة التي كانت للرجل الواحد

(١) المرجع السابق، P. 78. Our Line Political History of the Americans.

قليلة إلى حد أن أرجلهم كانت تتداخل بعضها في بعض، ولم تكن هناك أية إمكانية لأحدهم لكي يرقد أو يغير هذا الوضع ليلاً كان أو نهاراً». ويذكر الكاتب أن هذه كانت واحدة من أحسن سفن العبيد والأمم كانت تعطي مساحة تقدر بـ ١٨ بوصة للشخص، وبسبب هذه الظروف المزرعية وغير المعقولة كانت الرائحة الكريهة لسفن العبيد حادة إلى درجة أنها كانت تشم على بعد أميال عندما تأتي بها الريح.

ويصف كاتب آخر يسمى «ماك ماستر» Mc Master الصورة المزرعة لفينة العبيد قائلاً «عندما تغرب الشمس يتزل الجميع إلى أسفل وكانت المساحة المتاحة لكل واحد يرقد فيها كانت ستة أقدام طولاً وست عشرة بوصة عرضاً، وكانوا ينامون على الأرض، وكان لسوط يستخدم لإجبارهم على الالتصاق بعضهم ببعض في أضيق مساحة، وكان من المستحيل لأي منهم أن يتقلب ذات اليمين أو ذات الشمال إلا أن يعاني كل العصف من نفوسى والاضطراب، ولكن مأساة الليل لا تساوى شيئاً بالنسبة لمأسى اليوم العاصف لأنهم كانوا يحيطون المراكب بالأقمشة السمكية فتسمع الهواء وتصبح الأرض مبللة غارقة - تعرق، وكانت صيحات الألم ترتفع من أفواه الزنوج وتسمع في أعلى السفينة. وكان من الأسير العادية أن يقذف بأجساد الموتى في البحر. ولم يكن من النادر أن تبلغ الرفيات على ظهر السفينة ما يصل إلى ثلث عدد العبيد فيها^(١). وأحياناً ما كان قراصنة السفينة بسبب حبسهم من نقص المياه أو بسبب إحاسيسهم بالخطر من الأسر، كانوا يقذفون بالحمولة البشرية الحية من على ظهرها لتأكلها أسماك القرش. وعلى الرغم من كل هذه الخسائر فإن لوائح تجارة الرقيق كانت تصل إلى ألف في المائة في الرحلة الواحدة.

وقد ذكر «بلاك» W. O. Blake في كتابه «تاريخ العبودية» - History of Slavery الصادر في سنة ١٨٥٧م أنه في شأن موت العبيد في الطريق فإن مستر فالكون بريدج Falcon Bridge ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى ١١٠٠ من العبيد وفقد ١٩١، وأن «تروتر» Trotter ذكر أنه في رحلة واحدة كان هناك ٦٠٠ عبد وفقد ٧٠، و«ميلر» Miller ذكر أنه في رحلة واحدة كان هناك ٤٩٠ وفقد ١٨٠، و«إليسون» Elison ذكر أنه في ثلاث رحلات اشترى ٨٩٥ وفقد ٣٦٥، و«مورلى» Morley ذكر أنه في أربع رحلات اشترى حوالي ١٣٢٥ وفقد ٣١٣، و«كلاكستون» Claxton ذكر أنه في رحلتين كان هناك ٢٥٠ وفقد ١٣٢، وكل هؤلاء نسوا من تجار العبيد الإنجليز.

(١) - راجع السابق. Out Line Political History of the Americans. P. 79.

وإن الهولنديين الذين كانوا خبراء في القتل الجماعي والتعذيب الجماعي كانوا يعملون من خلال شركة جزر الهند الغربية والهولندية، وقد تأسست في عام ١٦٢١م من مجموعة من مختصي الأراضي والفراسنة وتجار العبيد. ولكن الفرنسيين والبرتغاليين لم يكونوا مختلفين كثيراً عن الهولنديين بوصفهم قتلة وتجار رقيق، وبالنسبة للإنجليز الذين بنوا لأنفسهم سمعة تاريخية بأنهم قاوموا تجارة العبيد، كانوا في الحقيقة في المركز الثاني في الأعمال الخاصة بالرقيق. وفي سنة ١٧٧٤م فإن ثلاثمائة سفينة أبحرت من ليثربون وكانت تعمل في تجارة العبيد، وبأى طريقة للمقارنة فإن (الإنجليز كان تجار العبيد من الدول الأخرى يعتبرون بالنسبة لهم من السمك الصغير). إن من نقل من العبيد الإفريقيين في السفن البريطانية يقدر بنحو أربعة أمثال ما نقل منهم بكل السفن الأخرى التي تنتمي إلى كل الدول الأخرى مجتمعة.

وقد اعتبر الإنجليز أنهم انتصروا انتصاراً عظيماً في «أوترخت - Utrecht» عندما نجحوا في أن يضمنوا لأنفسهم عقداً يتعلق بتجارة الرقيق لكل المستعمرات الإسبانية. وقد حصلوا على هذا الاحتكار في سنة ١٦٠٠م، وحصل الهولنديون على هذا الاحتكار سنة ١٦٤٠م، وحصل الفرنسيون على هذا الاحتكار سنة ١٧٠١م، ثم ضمنه الإنجليز مرة أخرى سنة ١٧١٣م عن طريق الشركة الإنجليزية لجنوب البحار. وبهذا الاحتكار صار الإنجليز تجار الرقيق المعترف بهم عالمياً. وهذا العقد الأخير تضمنته اتفاقية أوترخت وبها حصل الإنجليز على الحق في أن يدخلوا إلى أمريكا الإسبانية ١٢٣ ألف زنجي بمعدل ٤٨٠٠ كل سنة لمدة ثلاثين سنة. ومن أجل الحصول على هذا الحق دفعت الشركة للملك إسبانيا ٢٠٠ ألف دولار.

كان لدى «رودايلاند - Rhode Island» وحدها ١٥٠ مراكباً لتجارة العبيد في سنة ١٧٧٠م، وكانت الأرباح خيالية فمثلاً المركب المسمى فينس في بالتيمور تكلف بناؤها ٣٠ ألف دولار وحقق أرباحاً في أول رحلة لها في تجارة العبيد بلغت ٢٠٠ ألف دولار. وأن تجار العبيد الأمريكيين اندفعوا في هذه التجارة. كما أن ملاك مصانع النسيج في الشمال ورجال البنوك شأ بهم شأن ملاك السفن حصداً أرباحاً هائلة خلال تلك العقود من النظام العبودي في الجنوب الأمريكي.

وكان الكتاب يررون هذه التجارة بقولهم إن العبودية قديمة قدم الحضارة نفسها وأن الأديان تشرعها إلى آخر هذا الكلام.

إن أول عبيد وطئت أقدامهم نصف الكرة الغربي (الأمريكات) كانوا في سانتو دومينجو سنة ١٥٠٢م بعد عشر سنوات فقط من رحلة كولومبس أتى بهم ملاك المزارع مدفوعين برغبتهم الحادة لتحقيق الأرباح السريعة. وكان ذلك بداية عبودية الزنوج في أمريكا. وعلى مدى الخمسين سنة التالية جلب عشرات الآلاف من العبيد لجزر أمريكا الوسطى في هذه المنطقة مثل كوبا بورتوريكو سانتو دومينجو جاميكا. وكذلك في سدان أمريكا الوسطى مثل جواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس وغيرها التي تكون منطقة الكاريبي الواسعة. وبسرعة فاق عدد الزنوج عدد البيض في هذه البلاد. وعشية ثورة سنة ١٧٩٠م في هايتي (سانتو دومينجو) التي صارت مستعمرة فرنسية كان إجمالي سكانها ٥٣٦ ألف نسمة، وإجمالي عدد الزنوج العبيد فيها لا يقل عن ٤٨٠ ألفاً، كان هناك ٣٥ ألفاً فقط من البيض. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرقام بالنسبة للزنوج من الواقع لأن المزارعين كانوا يدفعون ضريبة الرؤوس عن العبيد الذين يمتلكونهم فكانوا يقللون من العدد تخفيفاً من الضرائب.

دخلت العبودية في البرازيل وهي ثاني أكبر منطقة في نصف الكرة الغربي سنة ١٥٣٠م بمركب هولندية. وصار الطلب على العبيد الزنوج كبيراً وذلك لزراعة المزارع ضخمة لقصب السكر المنزرعة لئلا تفسد البرتغاليين. ورغم الحملات التي كان يقوم بها سمعون لاصطياد الهنود واستعبادهم فإن ازدياد الطلب على عمال المزارع صار يرسماً بجلب الأعداد الوفيرة من العبيد من إفريقيا ومن المستعمرات البرتغالية في إفريقيا على وجه الخصوص، ومع نهاية القرن الثامن عشر وخاصة بعد إدخال زراعة قصب السكر فاق عدد العبيد في البرازيل عدد البيض الأحرار هناك بنحو ١٠ إلى ١٢ مرة. وفي بعض مناطق هذا البلد وخاصة بAHIA كان عدد العبيد الزنوج ستة أضعاف عدد السكان البيض بنحو عشرين ضعفاً.

ومع بداية القرن التاسع عشر بلغ عدد العبيد المجلوبين إلى البرازيل نحو خمسة ملايين عبيد، والإحصاءات في هذا الأمر لا يعتمد عليها ولكن المقدر أن عدد من سُورِد من العبيد الأفارقة بلغ نحو ١٢ مليوناً قبل انتهاء تجارة العبيد سنة ١٨٥٠م. تدبر بعض المؤرخين الرقم الإجمالي للعبيد الإفريقيين الذين جلبوا إلى كل أمريكا نحو ١٥ مليون إفريقي. ويذكر «دي بوا» أن مقابل كل عبيد استورد ووصل حياً إلى نصف الكرة الغربي كان مثيله خمسة قتلا إما في إفريقيا أو في الطريق بمعنى أن رقم

١٥ مليوناً المذكورة يتقابلة إفقار للمكان الإفريقيين من إفريقيا يبلغ ٦٠ مليون نسمة، وهذا الإهدار الضخم للقوى البشرية كان من أكبر المعوقات أمام التطور الإفريقي وتقدم الشعوب الإفريقية.

إن استيراد العبيد إلى الولايات المتحدة وهي أكبر ثالث منطقة لاستيراد العبيد في الأمريكيات كلها بدأ في عام ١٦١٩ م. ومثلما كان الشأن في البرازيل فإن سفينة هولندية هي ما بدأت بها تجارة العبيد. وقد زاد طلب ملاك المزارع من العمالة الإفريقية لتلاؤمها مع الجو والبيئة التي تصلح لزراعة التبغ والأرز والنيلة (الصبغة الزرقاء) وغيرها. وكان بعض الناس في هذه المستعمرات يعتقدون أنه بمجرد تعبيد الإفريقي واعتناقه المسيحية فإنه يصير حراً، ولكن هذا الفهم لم يكن يتلاءم مع شهوة ملاك المزارع وشهوتهم في الربح فصدر تشريع بمنع ذلك في ميرلاند سنة ١٦٦٣ م وفي فيرجينيا سنة ١٦٦٧ م. وبعد ذلك وعلى مدى كل مرحلة تاريخية للعبودية صار الأفارقة عبيداً مؤبدين سواء آمنوا بالمسيحية أو لم يؤمنوا، ولم يكن المستعبدون يعثون بموضوع العقيدة إذا كانت تعوق حصولهم على العمل الرخيص، ولكنهم بقوا يتشدقون بأنهم يستعبدون الإفريقيين ليعلموهم المسيحية.

وفي المرحلة الأولى لمستعمرة فيرجينيا كانت المزارع تصل إلى نحو ٥٠ ألف أكر أو أكثر مما يتطلب أعداداً هائلة من العاملين فكانت مناطق جذب شديد للعبيد، وعلى أي حال فإن العدد الإجمالي للعبيد كان ينمو بشكل بطيء نسبياً، ففي عام ١٧١٠ م بلغ عددهم ٥٠ ألفاً، وفي سنة ١٧٧٠ م وصل عددهم إلى ٤٦٢ ألف عبد في كل المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة. ثم بعد ذلك مع التطور السريع لزراعة القطن وقصب السكر بعد عام ١٨٠٠ م زاد العدد بقفزات كبيرة فبلغ سنة ١٨٦١ م نحو أربعة ملايين.

لم تكن كندا يزيد عدد العبيد فيها كثيراً؛ لأن الجو فيها لا يصلح للزراعة الكبرى، فكان أغلب العبيد في كندا يعملون في الخدمات المنزلية أو في رعاية الماشية والخيول وغير ذلك^(١).

(١) المرجع السابق. P. 79-82. Out Line Political History of the Americans.

إن المتصالحين مع العبودية والمدافعين عنها طُوروا نظريات مزيفة تقول إن ملاك العبيد لأنهم اشتروا العبيد بأموالهم واستثمروا أموالهم في هذا الشراء فقد كانوا يحرصون عليهم ويذلون عناية طيبة بشأنهم. وفي الحقيقة فإن الواقع يتناقض مع هذه النتائج وبعلية الأشياء فإن استبقاء النظم العبودية يستوجب حتماً إبقاء العبيد في جهل مطلق وفرض أقصى أنواع الإرهاب ضدهم وكان من الحتمي أن يتمرد العبيد وأن يقوموا بشورات مما يستدعي قمعهم بشدة، ومن أي زاوية يمكن النظر بها إلى النظام العبودية فقد كان نظاماً بربرياً قاسياً جداً في المزارع والمناطق التي تنتج من أجل التصدير.

وإن مؤرخين وصفوا الحالة بشكل جيد في أمريكا اللاتينية بقولهم: «بوجه عام لقد اعتبر العبيد الأفارقة حيوانات وعوملوا على هذا النحو، وبعض الكتاب ذكر «إن أصحاب المزارع الكبيرة في جزر الهند الغربية وجدوا أن الأكثر ربحاً لهم أن يعمل العبيد حتى الموت وحتى إن كان الموت في سن مبكرة فذلك أفضل من أن يعيشوا إلى سن الشيخوخة والعجز». وقال أحد المؤرخين أيضاً عن مستعمرة البرازيل إنها سبعت سنوات مع العمل المتصل بغير راحة ثم يعامل العبد أسوأ مما يعامل به الثور العجوز أو جثة الحيوان التي يلتقي بها في أية خرابة من الخرابات. وذكر آخرون أنه كان من النادر رؤية عبد عجوز، وذكر أيضاً أن العبيد في المسيحي كانوا يعملون ١٤ ساعة في كل ٢٤ ساعة، كما كانوا في جورجيا يعملون ١٩ ساعة، ولم يكن يوجد قانون يمنع من أن يعملوا حتى الموت^(١).

هذه الحالة العامة سادت أيضاً في الولايات المتحدة، بل إن العبيد الأفارقة في هذا البلد عوملوا بقسوة أشد مما عوملوا به في أي مكان آخر في نصف الكرة الغربي، وفي الولايات المتحدة كانت تصور النظم الخاصة والقوانين المعمول بها في البرازيل وغيرها من المناطق ذات الاستخدام الكثيف للعبيد، وذلك على أساس أن العبيد هم مجرد ملكية وليسوا آدميين. وفي المستعمرات البرازيلية الإسبانية كان العبيد لهم حقوق شرعية أكثر وفرص أحسن لضمان حرياتهم مما كان في المستعمرات الإنجليزية. وأن

(١) المرجع السابق. Our Line Political History of the Americans. P. 82.

ماك ماستر يوضح أن ظروف القاتون العبودى فى الولايات المتحدة ومزارعها كانت أكثر قسوة منها فى خارج الولايات المتحدة. وقد كانت عقوبة الجلد تفرض على كل أسود لديه كلب أو يملك بندقية أو يستأجر حصاناً أو يمتزّه أو يمشى فى جنازة أو يشتري أو يبيع أو يتاجر بغير إذن من سيده. وكان العبيد ممنوعين أن يتعلموا القراءة أو الكتابة أو أن يدلّوا بشهادتهم ضد أى رجل أبيض، أو يرحلوا أو أن يبعدوا عن المزارع التى يعملون فيها بغير إذن من الرجل الأبيض أو بغير أن يكونوا مصحوبين به، وإذا فعل أحدهم ذلك فإن أول رجل أبيض يقابلهم من سلطنته عليهم أن يجلد العبد عشرين جلدة على ظهره العارى. وإذا رد العبد الضربة فمن حق الأبيض أن يقتله. وركوب الخيل بغير إذن يعاقب عليه بالجلد وهكذا. وإذا هرب العبد فإن التشريع كان يجيز لأى رجل أبيض حر أن يقتله عندما يلتاقه. وكانت سرقة العبد الإفريقى تشكل جريمة، ولكن قتله أثناء عقابه، بشكل جريمة.

إن فردريك دو جلاس القائد الإفريقى الكبير وكان عبداً هارباً وصف بكلماته صورة العبودية بقوله «إن تجارة العبيد الأمريكية كانت تدعمها الأوضاع السياسية والعقائد المنتشرة فى أمريكا، إنك هنا ترى الرجال والنساء يساقون كالحنازير إلى السوق هل تدري من هوسائق الحنازير سأريك أحدهم إنهم يعيشون فى الدول الجنوبية ويتجولون فى البلاد ويحملون المسدسات والسياط والسكاكين، ويقودون مئات من الرجال والنساء والأطفال إلى سوق العبيد فى نيو أورليانز، وكان العبيد يباعون فرادى أو جماعات حسب ما يرغب المشترون لقد كانوا حطاماً لحقول القطن ومعاصر السكر»^(١).

كانت المرأة الإفريقية تعاني من العبودية، وفضلاً عن كل صعوبات الحياة والعمل الجماعى للجنسين كان عليهن أن يعانين من امتيahan سادتين لهن، وفى المستعمرات الإسبانية لم يكن للعبد أية حقوق قانونية، وإذا كان لا يعترف للرجل بأى حق أن يتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأى حق أن تتزوج فقد كان لا يعترف للمرأة بأى حق فى أن ترفض أن تساق إلى سرير مالكها أو من يطلبها، وأن رفضها لهذا الأمر كان يشكل عملاً من أعمال التمرد. ولم يكن شيئاً فادراً أن يعرض مالك المزرعة جاريانه

(١) المرجع السابق، P 83. Out Line Political History of the Americans.

على ضيقه ويدعوه إلى اختبار من يريد منهن لقضاء ليلته . وفي مناطق كثيرة من مناطق العبيد وبسبب وضع المرأة الريفية كان معدل المواليد منخفضاً ، بحيث كانت الوسيلة الوحيدة لاستبقاء عدد العبيد كما هي الاستيراد من إفريقيا . وكان هناك حالات كثيرة ترفض فيها النساء أن يحملن كنوع من أنواع مقاومة العبودية .

ثورات العبيد

الصراع من أجل الحرية

على الرغم من القيود الحديدية التي كان يقيد بها العبيد الإفريقيون فلم تكن ردود فعلهم دائماً هي الطاعة ، إنما تمثلت الأفعال الاحتجاجية لهم بأشواط شتى مثل عدم العمل مثلاً أو التراخي في أدائه أو الهروب أو حرق المزارع أو اغتيال المشرفين عليهم وملاك المزارع أو رفض الإنجاب ، كما أنهم في ظروف أخرى كانوا يلجؤون إلى التمرد مسلح . وعلى خلاف ما قال به البعض إنهم كانوا سلبيين ومطواعين وغير متعاونين ظروف العبودية على خلاف ذلك عرفت لهم انتفاضات من أجل التمرد .

وفي بلاد الكاريبي على مدى المرحلة الاستعمارية كلها فإن الفتن والعصيان الذي مرّ به كان متكرراً بدأ أوله في بداية القرن السادس عشر في المزرعة التي كان يملكها خير كولومبس مكتشف أمريكا ، وفي كوبا عرفت انتفاضات لهم في سنوات ١٥٣٣ ، ١٥٣٨ ، ١٥٤٨ م ، وفي المكسيك حدث عصيان منح من العبيد الأفارقة سنة ١٥٣٠ م ما حدث في جاميكا انتفاضات لهم في سنوات ١٦٥٥ ، ١٦٦٤ ، ١٦٩٢ ، ١٧٠٢ ، ١٧٠٣ م . وعرفت صراعات كثيرة في السنوات الأولى في المستعمرات البرية مثل هايتي ومارتينيك وجوادي لوب . كما حدثت انتفاضات للعبيد عديدة في جواتيمالا ونيكاراجوا وكولومبيا ، وبعض هذه الانتفاضات أمكنها أن تنتصر بشكل مؤقت ولكنها بعد ذلك ، أقمعت بعنف شديد وشنق زعمائها أو رموا بالرصاصة أو حرقوا حتى الموت . ومن أهم ثورات الإفريقيين في كوبا هي ما قاده الإفريقي المنحور خير أنطونيو أفونتي - Jose Antonio Afonze في سنة ١٨١٢ م ، كما أن انتفاضات الإفريقيين في الكاريبي بلغت ثورة عنيفة في هايتي سنة ١٧٩١ م التي وجهت ضربة نهية لنظام العبودية الإفريقي وهزت كيان النظام الاستعماري بأمريكا .

كان العديد من الإفرقيين يهربون من المزارع وينشدون معسكرات لهم في الغابات والأدغال ووجدت مستوطنات أنهم، وكان الهاربون منهم يسمون «المارونز» - وكثير ذلك في كوبا وغيرها من جزر الهند Simmarones أو سيمارونز Maroons الغربية، وفي البرازيل وأمريكا الوسطى، وفي غيانا الهولندية ووجدت مستوطنات حولها لما لا يقل عن ١٧ ألف إفريقي في الأدغال وهم من سلالة العبيد الهاربين من أيام الاستعمار القديم وهم يسمون «الجوكاز - Djukas». وقد ذكر هيرس كوفيتس في كتابه أسطورة ماضي الزوج أن الحكومة الهولندية لم تستطع أن تقهر العبيد المتسربين فاعترفت رسمياً بوجودهم في معاهدات لاحقة.

وفي البرازيل وجدت ثورات للإفرقيين ضد العبودية، وثمة آلاف من الإفرقيين هربوا إلى الأدغال فرحب بهم الهنود وأعطوهم الأرض والصدقة. وقام العديد من ثورات الزوج العبيد في البرازيل في أعوام ١٧٥٦م، ١٨١٣م، ١٨٣٩م، ثم قامت الحروب الدينية لمن سموا بالزوج المحسدين في «بانيا - Bahia» في أعوام ١٨٠٧، ١٨٣٥م وكانت ذات علاقة بالعبودية، ولكن أقوى ثورات العبيد وأكثرها شهرة في البرازيل هي ثورة «الماريز - Palmares»، لقد بدأت بمعسكرات للعبيد الهاربين في سنة ١٦٣٠م وبقيت حتى سنة ١٦٩٧م كانت جماعة منظمة أسست جمهورية بالماريز على أسس إفريقية وكان على رأسها «Janja Zomba» وكان قائداً شجاعاً وعبقرياً، وقد بلغ عدد الزوج بها من العبيد السابقين نحو ٥٠ ألفاً أنشئت لها حكومة واختير لها قائد ومارست التجارة مع المناطق المحيطة بها. وقد أعد البرتغاليون حملات عسكرية لغزو هذه الجمهورية وتمكنوا منها أخيراً في سنة ١٦٩٧م. وقتل آلاف الزوج المهزومين أنفسهم مفضلين الانتحار على الاستسلام، وهذا الحدث الكبير يعتبر علامة من علامات الطريق في تاريخ مستعمرة البرازيل.

وفي المستعمرات الإنجليزية لساحل الأطلس على مارس العبيد الإفرقيون عدداً من الصراعات من أجل حريتهم، من الأيام الأولى لوجودهم حتى التحرير الذي حدث في الحرب الأهلية سنة ١٨٦١ - ١٨٦٥م، وقد استخدموا الوسائل المعروفة للعبيد وقتها في هذه المناطق من أمريكا وهي هروب الآلاف منهم في فلوريدا. وكان أحد الأهداف الرئيسية لحكومة الولايات المتحدة في حروبها ضدهم هو إجبارهم على تسليم الأعداد الكبيرة من العبيد الإفرقيين الذين هربوا، كما أن الحكومة الفيدرالية

استخدمت قواتها ضد الانتفاضات المسلحة للعبيد في فيرجينيا سنة ١٨٠٠م
- بيريانا سنة ١٨١١م وكارولينا الجنوبية سنة ١٨٢٢م، وفيرجينيا سنة ١٨٣١م
- بيريانا مرة أخرى سنة ١٨٣٧م.

كان ثمة أحداث كبيرة لانتفاضات العبيد لم تكشف في المرحلة الاستعمارية
الأمريكية. وقد قرر أحد المؤرخين عدد الثورات والانتفاضات التي حدثت في تاريخ
عسكرة الأمريكي بنحو ٢٥٠ ثورة وانتفاضة، وهذا يؤكد أن الجهود المنظمة لاستعادة
حرية لهؤلاء الناس لم تكن نادرة. وإنما كانت ظاهرة ذات حلقات متتابعة في تاريخ
الاستعمار الأمريكي.

١- أول ثورة للعبيد سجلت في الولايات المتحدة في سنة ١٥٢٦م في المستعمرة
سبانية على نهر «بيدي - Pedee» جنوب كارولينا. وفي سنة ١٦٦٣م قامت ثورة
سبت العبيد الإفريقيين والخدم البيض في فيرجينيا، وكانت هذه هي أول ثورة كبيرة
في مستعمرات الإنجليزية اشترك فيها العبيد الإفريقيون، وقد تبعها ثورات في مناطق
عبيد على مدى القرن الثامن عشر. وحتى في مدينة نيويورك قامت ثورات مهمة
عبيد منها واحدة سنة ١٧١٢م. فطبقاً لتخطيط محكم قامت مجموعة من العبيد
بحرق أحد المباني، وانتظروا الرجال البيض القادمين للإطفاء وبمهارتهم في استعمال
سكاكين والفؤوس والمسدسات قتلوا منهم تسعة وجرحوا غيرهم قبل أن يفروا
مخبيين. وذكرت التقارير أنه لولا وجود حامية من الجنود الإنجليز لأصبحت المدينة
بدون رماداً وأبيد الجزء الأكبر من السكان، وعندما خمدت النيران وجرى التحقيق
مع ثلاثة عشر عبداً شتتاً ومات أحدهم وهو مصنف في الأدغال وحرق ثلاثة وهم
منسودون على الخازوق وكسرت عظام واحد على عجلة التعذيب، كما فضل ستة
خرون الانتحار على أن يقاسوا العقوبة على يد مجتمع البيض. ثم أصدرت الجمعية
شرعية نيويورك قانوناً جديداً للعبيد يلبيهم معظم الحقوق التي كانوا يتمتعون بها
في ذلك الوقت عن نظرائهم الجنوبيين^(١).

ولكن هذا القمع الشديد لم يرهب العبيد وقاموا بثورة أخرى عام ١٧٤١م قتل فيها
٣ من الإفريقيين ومن البيض. وقد استارت ثورة العبيد في هايتي الإفريقيين في كل

١/٤ الحمر والبيض والسود - المرجع السابق - ص ٢٢٣.

المستعمرات في نصف الكرة الغربي وقاموا بالثورات لتحرير أنفسهم في السنوات العشر الأخيرة من القرن الثامن عشر.

ومع نمو أعداد السكان العبيد بعد سنة ١٨٠٠م بسبب المزارع الجديدة للمطن وقصب السكر صارت الثورات أضخم وأكثر ظهوراً، كما صارت أكثر خطورة على السادة هناك، لقد أبقت هذه الأحداث طبقة ملاك المزارع في حالة من الانزعاج المستمر واتخذت إجراءات عسكرية قمعية كثيرة لمنع هذه الانتفاضات ولقمعها. وكان الإعداد للثورة وتنظيمها في هذه الظروف البائسة الصعبة أمراً يتطلب شجاعة هائلة ومهارة غير محدودة لهؤلاء العبيد.

وعلى رغم كل هذا الإرهاب فإن ثورات العبيد خطط لها ونفذت وكان الأكثر أهمية هو ما سمي بفتنة «غبريال - Jahrial» في سنة ١٨٠٠م في فيرجينيا، شارك فيها نحو ألف من العبيد وقتل فيها نحو ٣٥ من القادة الزنوج. وفي فلوريدا سنة ١٨١٦م شارك نحو ألف من العبيد وقاموا بجيش الولايات المتحدة لمدة أسابيع حتى أبدو نهايتها.

ومن الثورات العديدة التي قامت قبل الحرب الأهلية في الولايات المتحدة في سنة ١٨٦٠م، فقبلها بعشرات السنين قامت في جنوب كارولينا ثورة سنة ١٨٢٢م غدر بها بعض خدام المنازل من الزنوج وأدت إلى شق ٣٥ من القادة الزنوج. وفي سنة ١٨٣١م في فيرجينيا قامت انتفاضة قادها «نان ترنر - Nan Turner». وقد هزمت هي الأخرى وشق فيها ١٦ من الزنوج. وقامت ثورات عديدة مشابهة مع اقتراب الحرب الأهلية. وأحياناً ما كان يحدث في ثورات العبيد الإفريقيين في كل البلاد هو التعاون ما بينهم وبين البعض من الأهالي البيض. وكان الرمز البارز لهذا التعاون هو المحاولة البطولية التي قام بها جون براون بفرقة صغيرة معه تتكون من ٢٠ من البيض وخمسة من الزنوج في فيرجينيا في أكتوبر سنة ١٨٥٩م وذلك لبدء ثورة العبيد هناك وقد ضحى جون براون وستة معه بأنفسهم في هذا العمل وقتلوا. كما أن الهنود أيضاً كثيراً ما تعاونوا. وشاركوا العبيد الأفارقة.

وكل ذلك يؤكد بوضوح أن تاريخ هؤلاء الزنوج لم يكن تاريخ خضوع ورضاء بالعبودية كما يريد أعداء الشعب الزنجي أن يؤكدوه على غير الحقيقة. إن هذا التمشيع

يرزف تقول به الطبقات الحاكمة ضد طبقة من الشعب تريد أن تفقد لها التقدير وتبرر
استغلالها لها. إن الشعب الرنجي أثبت تاريخياً درجة عالية لديه في الشجاعة
وتقدرات القتالية وحب الحرية وذلك في حروبهم القبلية وفي صراعاتهم اليائس ضد
غزاة البيض لإفريقيا وضد ثوراتهم العديدة ضد العبودية في أمريكا^(١).

قد يتساءل القارئ مع هذه القسوة والصلف من السادة البيض في أمريكا للاحتفاظ
بعبيدهم وبالنظام العبودي الذي ابتدعوه وطبقوه عبر القرون. وشيدوا به ثراء أمريكا
وبناء العالم الجديد وداسوا به مبادئ الحرية والإنسانية التي يتشدقون ويطنتنون بها.
حتى جورج واشنطن ذاته أبو الحرية الأمريكية زعيم حركة استقلال أمريكا وحركة
تحرير شعبها الأبيض من الاستعمار البريطاني كان من ملاك العبيد وكان يحوّز ٣٠٠
عبد من الزوج البائسين ولا يوجد في مراسلاته أو خطبه ما يشير إلى أنه كان يدافع أو
يقتنى سياسة الإلغاء للرق. إن واشنطن وغيره من المؤسسين الآخرين لأمريكا وضعوا
مسير الجمهورية الجديدة في مواجهة المعارضة ضد الرق، وكان هناك شعور عام بأن
الجمهورية سوف تذوى إذا فقدت عمل الرقيق، ومن ثم لم يحدث أي إجراء من
واشنطن ضد الرق ووضع مصالحه الاقتصادية التي تؤدي إلى التمسك بنظام العبيد
على مبادئه الأخلاقية. فما الذي جعل البيض في أمريكا أن يقبلوا إلغاء العبودية؟
لما الأسباب التي أجبرتهم للخضوع إلى إلغاء النظام العبودي؟

بإيجاز شديد يمكن تلخيص هذه الأسباب في :

- ١ - العبودية لم تعد مفيدة بعد ذلك من الناحية الاقتصادية بالقدر المأمول في ظروف
الاقتصاد صار يعتمد أكثر على الصناعة والمهارات الصناعية.
- ٢ - ثورات العبيد صار منعها وقمعها باهظ التكلفة.
- ٣ - ظهور معارضة عامة للنظام العبودي في هذه البلاد أتت من العمال الذين
يعتبرون بالأحرر ويخشون مناقشة العمل العبودي لهم.

(١) المرجع السابق. Out Line Political History of the Americans P. 83-87.

٤ - تحرر استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا واستقلال المستعمرات الأمريكية عن الدول المستعمرة الأوروبية جعلت الدول المستعمرة في أوروبا لا تجد مصلحة لا في أن تقوم قراصنتها وتجارها وجيوشها باضطهاد العبيد من إفريقيا نفسها ويحولوها إلى مستعمرات لهم بمناجمها ومزارعها، ويتطلب ذلك منهم استبقاء قوة عملها فيها ليقوموا بهذا العمل لصالح المستعمرين الأوروبيين فعدلوا عن اضطهاد الإفريقيين واستعبادهم في أمريكا وتحولوا إلى استعباد القارة بشعوبها وثرواتها.



من أين جاء هؤلاء؟

لا أحد يستطيع أن يقدر حجم القسوة والبؤس اللذين صاحبهما إعطيات الملايين من رجن والنساء في إفريقيا على مدى الأربعة قرون الأساسية التي نشطت فيها هذه الحرية، إننا نجد أن أكثر السنوات كثافة بالنسبة للعبودية كانت تتركز في الفترة ما بين ١٧ - ١٨٥٠ م. وأن المناطق التي كان يستجلب منها العبيد بانتظام وبأعداد كبيرة كانت في البداية محدودة.

وتتبع هذا الوضع تأخذ المكسيك كحالة، فإن العمل الإفريقي في المكسيك حل أولاً محل الهنود الحمر خلال قرن واحد. ففى بدايات سنة ١٥٧٠ م كان هناك نحو ألفين من العبيد في المكسيك، وفى سنة ١٥٨٤ م أصدر ملك إسبانيا إلى المجلس في المكسيك قراراً يقول إن الهنود الحمر شعب ضعيف وإنه يتعين أن يترك للشعب لأعماله الخاصة، أما العمل في المناجم والبناء والحقول والمطاحن فيجب أن يؤمنه بوج «مولاتوس» Mulattoes و«المستيزوز» Mestizos.*

ومن أغلب الإفريقيين الذين جاءوا إلى المكسيك فى هذه الأيام المبكرة من المحتمل أن يكون من الجماعات التي تتكلم الماندى الذين كانوا يعيشون وظلوا يعيشون فى أقصى وراة الجانب الغربى لساحل غينيا، وهؤلاء المختطفون كانوا يعرفون عامة باسم الماندنجو، وبعض هؤلاء جلبوا إلى البلاد لا بأسمائهم ولكن بما أطلقه عليهم أسيادهم، ومن ثم فإن من كانوا يسمون «نوب» Nups كانوا يسمون «التاباس» Tabas. وقد سلموا بواسطة التجار لأسواق العالم الجديد. وفى المقابل فإن اليوروبا (بيجيريا) استعبدوا بواسطة شعب «الفون» Fon فى داهومى على الغرب منهم. أما يسمون «ناجوس» Nagas ودخلوا بهذا الاسم أمريكا. وإن شعب «سوسو» Sosو من شاطئ ساحل غينيا لم يظهروا فى سجلات المكسيك، لأنهم سجلوا باسم «كوكو» Xoxo وكثيراً ما كان المقتنصون لهم اسمان الأول هو الخاص بالسوق اشتروا منه فى الشاطئ الإفريقى، والاسم الثانى هو اسم الكنية الخاصة بقيته.

وأغلب العبيد كانوا من غرب إفريقيا، وقد أخذوا من الأسواق الرئيسية أو الأسواق شعبية العديدة على طول ثلاثة آلاف ميل من الساحل الإفريقى بين السنغال فى الغرب والجزيرة فى الجنوب. والقليل منهم أخذ من شرق القارة فى القرن السادس. وقد سجلت الأرشيفات المكسيكية اثنتين على الأقل من المدن التي كانت تشكل

دولاً في شرق إفريقيا «ميلين - Melin» أو «مالندي - Malindi» وموزمبيق. ومن أخذوا من شاطئ موزمبيق أطلق عليهم اسم «كفراريان - Kaffrarian» مشتق من اللفظ العربي كافر أو وثني، ومن ثم فإن عيد «زوزا - Zoza» من المحتمل أن يكونوا آتين من أقصى الجنوب الشرقي في جنوب إفريقيا، وضحايا آخرون أتوا من مناطق أبعد فإن السجلات المكسيكية تحدثنا عن عيد جاءوا من بورما والملايو وجاوا والصين.

وفي العالم الجديد فإن الشعوب الإفريقية كثيراً ما كانوا أقوياء إلى الحد الذي جعلهم يحتفظون بعاداتهم وعقائدهم الخاصة ببلادهم ويعيدون إنشاءها إلى هذا الموطن الجديد. وفي بعض جزر الهند الغربية يظهر هذا الأمر بوضوح. إن المقتنصين من اليوروبا نقلوا إلى البرازيل في أعداد كبيرة وشكلوا جماعة تختص عقائدهم، كما أن الأطفال الآتين من ثقافات راسخة أكدوا بصفتهم بالنسبة للنطق الإفريقي على الثقافة الجارية، ومن ثم فإن «الأوريشا - Orishas» أي الآلهة المحليين لليوروبا أعيد إنتاجهم في البرازيل باعتبارهم قديسين مسيحيين. وفي ريودي جينيرو فإن إله الحرب المسمى «أوجن - Ogun» قد صار القديس جورج وقدس باعتباره فارساً من الكاثوليك.

وكان هناك من التجار العرب من يحصلون على العبيد من زنجبار في القرن التاسع عشر ثم يسلطونهم إلى التجار الآخرين عبر القارة حتى يصلوا إلى غرب القارة وبياعوا. وقد قص أحد هؤلاء قصته في سنة ١٨٣٦م فقال «لقد باعونا من أجل المال وأنا نفسى باعوني ست مرات بعضها مقابل المال وبعضها مقابل السلاح وبعضها مقابل الملابس، واستغرق ذلك ستة أشهر قبل أن أشاهد الرجل الأبيض».

وإن ذكريات أخرى تقص علينا كيف أن أحد قبضة الرقيق الفرنسيين اشترى عند نهر الكونغو امرأة إفريقية كانت فيما يبدو جميلة ولم تكن تخشى البيض فلما سألها تاجر العبيد عن ذلك قالت إنها سبق أن شاهدت الرجال البيض في بلاد أخرى كانت الشمس فيها تشرق من البحر بدلاً من أن تغيب في البحر كما هو الحال في الكونغو، وقالت إنها رأت العديد من الأقماع في طريقها. وهذه القصة تظهر أن العبيد كانوا يأتون من موزمبيق أحياناً وبياعون في الكونغو.

لا يوجد شيء غير محتمل بالنسبة للإفريقيين الذين ينتقلون من محيط إلى محيط. وأن كلاً من السجلات الأوروبية والإفريقية تتفق عامة باستثناءات قليلة على أن

الشعوب الساحلية نادراً ما كانت تقدمهم بالعبيد من أهاليهم ومن صفوفهم ، لقد كانوا يشترونهم أو يأتون بهم من الشعوب التي في الداخل وكانوا يأتون منها عبر الأنهار .

ومن ثم فإن مملكة عبيد « الفون - Fon » في داهومي كانت يؤخذ منها المأسورون بأعداد كبيرة من المناطق التي تكون بعيدة أكثر من مائتي ميل في الداخل . وهناك مصدر كبير آخر للعبيد في ساحل الذهب وكان الوسطاء في تجارة العبيد هناك من شعب « الفانتى - Fanti » الذين كانوا يشترون المقتنصين من الأشانى في الشمال منهم ويبيعونهم إلى الأوروبيين في القلاع الساحلية ، لذلك كانت تختلط الأسماء بين الفانتى والأشانى .

والخلاصة عن غرب إفريقيا يمكن القول إن الشعوب الإفريقية القوية التي تقطن ساحل كانت تغزو الداخل وتغزو الشمال ، وكانوا يستمدون ما يحصلون عليه من عبيد من الشعوب ذات الوفرة النسبية^(١) .

العلاقات التجارية الإفريقية

قبل ظهور تجارة الرقيق عبر الأطلنطي كانت هناك علاقات إفريقية أوروبية لا حثث عن العلاقات العربية الإفريقية ولا العلاقات الهندية الإفريقية . كانت إفريقيا شبه الجزيرة الكبرى التي يحيط بها المحيط الأندلس والمحيط الهندي والصحراء . سعة من الشمال . وعلى طول الحدود الساحلية كانت تقوم علاقات بين مدن ساحل مع مدن ، وحكام يتعاملون مع حكام آخرين وكانت تقوم مدن تجارية تجار تخصصوا في التجارة عبر البحار أو عبر الصحاري . كان هناك الاتساع « Wata » ، « دجيون - Djenne » وتمبكتو ، وكانت على اتصال بمدن أخرى غرب الصحراء مثل كلوه وماليندي وما شابهها على الساحل الشرقي لإفريقيا .

وكانت التجارة قد صارت مهمة لهذه المجتمعات قبل أن تظهر في الأفق السفن ذاتية من أوروبا عبر المحيط ، كانوا جميعاً يندرجون في التجارة المحلية وينهضون في تسويق فعالة ، وكان بعضهم ينهض في التجارة مع الخارج عبر المساحات

The African Slave Trade, Basil Davidson - James C. G. Oxford, 2004, P. 120-124.

الشاسعة، ومع ذلك كانت التجارة للقسم الغالب من الريقيين (وكان أغلب الأفارقة ريقيين) ذات أهمية ثانوية في الحياة اليومية؛ لأنهم كانوا يعيشون على الاقتصاد الطبيعي ويستهلكون ما ينتجون محلياً. ولكن هذا الوضع اختلف كلما بدأت التجارة مع الخارج تظهر وتنمو، كانت المدن صغيرة إذا قورنت بمدن اليوم ولكنها كانت عمدة الإفريقيين ببعضها مستوردة ترفيهية لا توجد في الداخل. وكان هذا النوع من التجارة يخص طبقة عليا وليس الغالبية من السكان.

وعندما كتب ليو الإفريقي في القرن السادس عشر أن تمبكتو كانت سوقاً كبيراً للمكتب وثأنيها المخطوطات المستوردة من «البربر - Barbary» وأن أرباحاً كبيرة كانت تنجم عن تجارة الكتب أكثر مما تنجم من أي أعمال أخرى. عندما قال ذلك لم يكن يبالغ ولا يعنى أن كل سكان السودان الغربي يشترون الكتب، إنما كان يعنى فقط أن تمبكتو وحدها كانت مركزاً مهماً للتعليم الإسلامى وأنها كانت قادرة على أن تكون مكتبات خاصة. ومثل ذلك يقال عن الواردات الكبيرة لشرق إفريقيا من الخرز والصيني من الصين وكانت تستخدم في المنازل وعلى موائد الأغنياء وذوى النفوذ (وليس في الأكواخ ولا لدى الفقراء) فقد كانوا لا يحرصون على تراكم الثروة.

كانت فكرة الملكية الخاصة نادرة، كتب أحد المؤرخين من الشعوب المتحدثة بلغة البانتو في جنوب إفريقيا يقول: «إن كل الأرض تشغلها القبيلة ويديرها الرئيس بوصفه على رأس القبيلة ولم تكن الأرض ملكاً خاصاً له، كانت جميع مصادر الثروة الطبيعية من أرض وماء وأخشاب ومراع وأشجار مملوكة ملكية عامة ولا تحتجز أبداً للاستخدام الشخصى الخاص، ولم يكن معترفاً به إلا الأرض التى يقيم فيها الإنسان وما يزرعه باعتباره حقاً خاصاً.

هذه النظم تختلف في تفاصيلها ولكنها عامة في أغلب إفريقيا وتتطلب شعوراً بالمسئولية التضامنية الجماعية، وكانت التجارة مفيدة، ولكنها ليست حيوية وقد نمت مع تطور الدول وظهور الحكم المركزى^(١).

(١) المرجع السابق، P 124-129. The African slave trade.

نظم التحالف العبودى

بدأت تجارة الرقيق عبر الأطلنطي فى بداية القرن الخامس عشر عندما وصل قبطان برتغالى يدعى «بوى دوسيكيرا» - Puy do sequeira ، وصل إلى ساحل بينين وتوصل إلى بلاط الملك حيث تسلم إذنًا ملكيًا بالتجارة فى الذهب والعاج والعبيد. ولم تكن التجارة تمثل نشاطًا اقتصاديًا جديدًا فقد مارسها الأفارقة من قبل فى مناطق نائية من قارتهم، ولكنها فى تلك المرة كانت بداية الاتصال مع شركاء جدد فى التجارة من مناطق نائية عن قارتهم.

كانت التجارة المبكرة فى العبيد متبادلة بين المشترين الأوروبيين والباعة الأفارقة. فضلًا عن أن التجارة نفسها كانت مقصورة على المراكز التجارية الساحلية، حيث كان يؤتى بالعديد من العبيد الأسرى من الداخل بواسطة الوكلاء الأفارقة، ويباعون بالشروط التى يحددها البائعون الأفارقة ويتسلمون الأسلحة الأوروبية وآسياخ الحديد والنحاس وأوعية القصدير والأباريق وعقود الخرز وشراب الدوم المسكر والمنسوجات نظير العبيد والذهب والعاج.

ولم يكن الرق ظاهرة اجتماعية جديدة على الأوروبيين أو الأفارقة، فقد اشغلت المجتمعات الإفريقية منذ قرون مضت تجارة العبيد السود عبر الصحراء الكبرى من غرب إفريقيا إلى أوروبا الرومانية والشرق الأوسط، لكنها كانت نشاطًا عارضًا وليس منظمًا وكان الهدف منها تزويد أم البحر المتوسط التجارية بالجنود وخدم البيوت والحرفيين فضلًا عن العمال الزراعيين. وفى داخل إفريقيا ذاتها وجد الرق منذ زمن بعيد على نطاق للمخدمة الشخصية ولفترة محدودة من الوقت أكثر منه العمل مدى الحياة، ويشبه هذا النوع من الرق ما قام فى أوروبا منذ قرون، ونتج عنه استرقاق مسيحيين للمسلمين والمسلمين للمسيحيين خلال الحروب الدينية، وكان المرء يصير عبدًا إما لكونه شخصًا غريبًا أو كافرًا أو أسير حرب، أو إذا باع نفسه فى سوق النخاسة ليحصل على مال لأسرته أو لارتكابه جريمة شنعاء، وكانت حقوق العبيد محدودة وفرصهم فى التغيير إلى الأحسن مقيدة بصورة قاسية. ولكن بصرف النظر عن ذلك كان ينظر إليهم كأعضاء فى المجتمع يتمتعون بحماية القانون ولهم حقوق خاصة معينة

منها التعليم والزواج وحق الأبوة وأهم من كل ذلك كله أن حالة الرق لم تكن وضعا نهائيا غير قابل للإلغاء أو يتشبه آليا إلى أبناء العبيد^(١).

المهم لقد حمل العبيد الإفريقيون بعيدا عن إفريقيا تحت أشكال مختلفة، ولكن المجرى العام لتجارة الأطلنطي، يمكن القول إنها جرت في ثلاثة مجالات، وكان الثالث منها هو الأكثر أهمية. هذه المجالات أو الأشكال الثلاثة هي: العبودية بالقرصنة، العبودية بالتحالفات الحربية، العبودية بالمشاركة بقدر قل أو كثير من المشاركة السلمية.

وفي المجال الأول أو المرحلة الأولى، واجهت إفريقيا غزوات صريحة بواسطة جماعات صغيرة من الأوروبيين. وكانت هذه الغزوات مختلفة عن الحروب الداخلية للقبائل في أن الغزاة كانوا يأتون من البحر ويذهبون بعيدا وسط البحر.

وما لبثت طريقة الغزو أن حل محلها أسلوب التحالف؛ لأن الأوروبيين كانوا يستطيعون تقديم سلع يرغب فيها الرؤساء الأفارقة رغبة شديدة، بدأ ذلك بالخليل ثم بعد ذلك زادت عليه الأسلحة النارية ثم الكحول، ثم ظهرت الرغبة التي يمكن تسميتها بالتوافق المتبادل مثل ما فعله مامادو كبير مالي الذي أرسل إلى الكابتن البرتغالي في قلعة المينا بطلب مساعدته ضد أعدائه من جيرانه، وكذلك وجد الأوروبيون والإنجليز خاصة. وجدوا أنفسهم مشبكين في حروب تخص أحد الرؤساء الإفريقيين ضد الآخر، وعملوا على استغلال هذا الوضع لصالحهم.

في سنة ١٥٦٧م سارع انقريسان الإنجليزي «هوكنز» Howkins وهو واحد من طلائع القادة البحريين الإنجليز القراصنة تجار العبيد، شرع في القيام برحلته الثالثة في السعي وراء العبيد وذهب إلى غينيا وسار على الساحل في الطريق المعروف الآن من الرأس الأخضر إلى «ريوجراند» Rio Grande (في الجمهورية الحديثة لغينيا بيساو) ثم إلى جزر «الأيدولز» Idols بالقرب من كوناكري (عاصمة غينيا الحالية) ثم توغل إلى الداخل باحثا عن الرقيق عبر سواحل سيراليون وجمع في طريقه ١٥٠ من المثمنين، وبعد أن عانى من بعض الخسائر كان مستعدا بأن يبحر بهم إلى جزر الهند الغربية بأمريكا ويبيعهم هناك للمزارعين الإسبان، ولكن الأحداث غيرت هذا الأمر، فبينما

(١) انظر البيض والسود - المرجع السابق - ص ١٨٤.

كان يستعد للمغادرة من ساحل البحر كان هناك زنجى أرسل سفيراً من ملك الزنوج
سعى كان مقمعا من الملوك الآخرين من جيرانه ، وقد عبر هذا السفير عن رغبة مليكه
بمركز فى أن يتعاون ضد أعدائه بوعده أن كل ما يحصل عليه من الزنوج سيكون الملك
مسروراً فى أن يبيعه له . إن هذا الرئيس المحلى لم يكن يعبأ ولا كان يعرف شيئاً عن
الاختلاف بين ظروف القصر عند الإفريقيين وبين الظروف التى سيعيش فيها
إفريقيون عندما يباعون للأوروبيين ، وقد نظر إلى بيع المسجونين لحليف أنى من
سحر مثل بيع المسجونين إلى حليف مستقر على الأرض .

إن هوبكنز بعد ذلك جمع عدداً من القراصنة الإنجليز وانضم إلى ملك سيراليون ضد
الملوك المعادين له وقام بإشعال الحرائق وتدمير إحدى المدن التى كان يقال إنه كان بها ما بين
ثمانية آلاف وعشرة آلاف من السكان . كانت هذه المدينة مبنية لمواجهة الحروب وكان
عليها سياج (سور) من الأشجار العالية المثنيكة . وكان فيها من الجنود نحو ١٥٠
مجموعة ، وكان الملوك فيها يجمعون نحو ستة آلاف من الجنود الزنوج فضلاً عن السكان
من النساء والأطفال وغيرهم . لم تكن السيطرة على المدينة سهلة ، وفى النهاية فإن
الإنجليز حرقوا المدينة وأجروا مذبحة هائلة وخرج منها هوبكنز بـ ٤٧٠ من المقتنصين .

هذا النوع من النظم التحالفية حدث فى أماكن أخرى ، وكان البرتغاليون يصنعون ذلك
كثيراً ، وإذا ذكرنا مثلاً على ذلك بعد سنوات قليلة فقد وقعوا معاهدة بالتعاون المشترك مع
حكام الدائم للمملكة الداخلية مونوموتابا فى الأراضى التى صارت بعد ذلك تعرف
بروديسيا الجنوبية (زيمبابوى حالياً) . لقد استبدلوا السلاح الناري والمهارة بامتيازات
الأراضى والمناجم وكان ذلك مدمراً لمونوموتابا واستقلالها ، ولم تكن هذه الحالة الوحيدة
ولكن حيثما كان الهيكل الاجتماعى قوياً إلى حد يستطيع به أن يثاوم التغلغل من هذه
النوع كان التحالف الحربى يترك طريقه إلى النموذج المتكامل للتجارة السلمية .

ومع نمو تجارة الرقيق فى القرن السابع عشر عندما أصبح الاسترقاق هو العنصر
حاکم فى العلاقات الإفريقية الأوروبية صار تجمع العبيد فى سواحل غينيا والكونغو
عملاً يزداد تقبله رغم قيام نظم معقدة من الأحكام والضوابط ، كان هذا العمل الدائم
هو عمل الرجال الأقوياء على أجناس يعملون مباشرة أو بطرق غير مباشرة من خلال
وكلاء يعينونهم أو تجار أو قواد ، ولكنه كان من الجانب الإفريقى عملاً يزداد الاعتماد
فيه على الرؤساء والحكام الذين يشتمون قيمة الاحتكار وكيف يدافعون عنه .

إن القول بأن تجارة العبيد في إفريقيا صارت عملاً يقوم به الملوك والأغنياء والتجار، هذا القول هو المفتاح لفهم طبيعة النظام ونجاحه وأثره على طول الساحل الإفريقي وما يجاوره من أراضٍ إفريقية.

وفي السياق المؤسسي صارت تجارة العبيد لا تتفصل عن أعمال الحكم في إفريقيا، وحيثما كانت التجارة تجر رؤساء وملوكًا كانت تزدهر، وحيثما لم تجر هؤلاء كانت تضعف، وسواء بالنسبة لتراكم الثروة بواسطة الضرائب أو الهدايا أو أرباح التجارة أو نسبة للسلطة السياسية التي دعمها تنظيم هذه التجارة أو بالنسبة للثغور العسكرية الذي نبع عن شراء الأسلحة النارية فقد بنت العبودية قوة أساسية لم تكن موجودة من قبل ونقلت هذه القوة طابع الحكم القبلي العام والواسع إلى الطابع الأوتوقراطي الضيق.

ومع ازدياد الطلب فإن تجار العبيد كانوا مجبرين دائماً على الإبحار على طول ساحل ليلتقوا عشرات المقتنضين من هنا وهناك، وكانوا يتحملون في ذلك أسابيع وشهوراً من مخاطر الأمراض والبؤس ويدفعون ثمن زيادة نسبة الموتى في صفوفهم، ومع ضرورة التسليم والتسليم فإن المناطق المنتجة أنشأت مجتمعات يوضع فيها العبيد لتسليم السريع وصار عدد من القلاع الأوروبية في ساحل الذهب مراكز للتجميع.

كما أنشأ الأوروبيون أنفسهم مناطق للتجميع وكانت سفنهم التي تسع هذا التجمع معززة بأسلحة كثيرة يكون بها الأوروبيون قادرين على الدفاع عن أنفسهم إذا حدثت ثورة من العبيد أو هجوم من البر أو غزو من المنافسين في البحر. وقد كتب أحد تجار العبيد الفرنسيين أنه شاهد سفينة إنجليزية مشحونة بالسلاح تخدم بوصفها قلعة ومحطة لتجارة للشركة الإنجليزية.

شاهد الإفريقيون كيف أن الأوروبيين يحاربون بعضهم بعضاً من أجل احتكار خدمات البحرية التي تقوم بهذه التجارة، ولم يكن الرؤساء الإفريقيون في مناطق الساحل بطيئين في فهمهم لمصالحهم التجارية. فسعوا من جانيهم لكسب احتكار الجانب والخدمات البرية لهذه التجارة ليس في مواجهة بعضهم البعض، ولكن في مواجهة محاولات الأوروبية للتغلغل في البر وفي الأراضي الداخلية لاصطياد العبيد، وقد نجح لأفارقة في ذلك بشكل عام وأعاقبت المجتمعات الساحلية الاتصال بين الأوروبيين وبين شعوب الداخل وبنيت لنفسها وضع الوسيط وسلطته في هذا الشأن.

وقد كان الأفارقة على السواحل يحارب بعضهم بعضًا مثلما يفعل الأوروبيون وينشدون التحالف مع هذه الدولة الأوروبية أو غيرها ويغيرون على منافسيهم ويستعبدونهم ويبيعونهم أو هم أنفسهم يستعبدون ويباعون ، وبهذه الحلقة الدائرة بين السبب والنتيجة تأسست تجارة العبيد بهذه القسوة . . كانت تجارة قاسية ولكنها ليست عشوائية ؛ لأن نظم التعامل تأسست وتمت وصار المملوك الإفريقي لا يختلف عن المملوك الأوروبي^(١) .



(١) المرجع السابق P 101-106 The African Slave Trade

الفصل الثاني

غرب إفريقيا والساحل الغربي

- البرتغال في الساحل الغربي

- التجارة عبر الأطلنطي

- القبول بالمشاركة

- الدور البلجيكي في الكونغو

- فقدان البشر

البرتغال في الساحل الغربى

عندما بدأ الأوروبيون يتخيلون إفريقيا وراء الصحراء، اقتصرت صورة القارة على أنها من أراضي المجهول وأنها مليئة بالكائنات غير الطبيعية والمخيفة. وأن رودلف هيجون الراهب الأوروبى الذى رسم صورة العالم سنة ١٣٥٠م تصور إفريقيا أنها تحتوى على أناس بعين واحدة ويغطون رؤوسهم بأقدامهم. وفى سنة ١٤٥٩م فإن الراهب القس الإيطالى «فرامورد» أعلن أن إفريقيا هى بلد طائر الرخ وهو طائر يستطيع أن يحمل فيلاً على أجنحته.

وفى العصور الوسطى لم يكن هناك أوروبى يعرف ما إذا كانت إفريقيا تحتوى على طيور عملاقة أو أناس بعين واحدة أو غير ذلك، وبسبب أن المراكشيين الأعداء فى نظر الأوروبيين كانوا يعيشون على الشاطئ الإفريقى للبحر الأبيض المتوسط لم يشجسروا أى من الأوروبيين إلا القليل لوضع أقدامهم هناك، والأقل بكثير الذين أخلوا على الجنوب عبر الصحراء، والكل كان يعتقد أنه بمجرد ما تعبر جزر كنارى عند المغرب تواجه ببحر الظلمات^(١).

وأن معظم الأوروبيين الذين كانوا يتكلمون عن إفريقيا كانوا مقتنعين بأنه فى الأزمنة الأولى كانت عادة أكلة لحوم البشر موجودة فى القارة، وأن بعض شعوب إفريقيا كانوا يمارسون طقساً يتعلق بأكل لحوم أعدائهم من ذوى الشرف والحشيشة، وبين الحين والحين كانت المجاعات تجبر الناس على أكل بعضهم بعضاً. هذه الأسطورة الخاصة بأكل لحوم البشر لدى الأوروبيين صاحبها أسطورة مماثلة عند الإفريقيين فقد كانوا

King Leopold's Ghost. Adam Hochschild. Pan Books. Pan Macmillan Ltd, London
2002, P. 6.

مستنعين بأن الأوروبيين هم من يأكلون لحوم البشر وأنهم يصطادونهم ليس من أجل العمل ولكن ليحولوا أجسامهم إلى قحمة وشحم وزيت لطعامهم^(١).

ومع هذا الجهل الأوروبي بإفريقيا فإن إحدى الحقائق البارزة عن الدول الإفريقية القديمة في إفريقيا السوداء مما عرفت في الأزمنة الأولى، ثم نسبت بعد ذلك هو أنهم لم يغزوا قط من خارج القارة وإن كان حدث ذلك فقد كان من النادر جداً. لقد قاوموا الغزو وبقوا بعيدين عن أن تنتهك أراضيهم، كان يمكن للمسلحين الأوروبيين أن يكتبوا موضع قدم على طول الساحل فقط وكانت الدول البربرية الموجودة في شمال إفريقيا حفظها قليل في غزواتها البرية نحو الجنوب، وقد فشلوا في النهاية وأجبروا على الرحيل. وكان كتاب المرحلة الاستعمارية يميلون إلى تفسيرهم هذه الخليفة الخاصة بنجاح المقاومة الإفريقية بإرجاعها إلى المناخ والناموس، وفعلاً فإن الملاريا والشمس كانتا مما يثبط عزائم الغزو الأجنبي، ومع ذلك فإن التقارير الأوروبية القديمة تشير إلى أسباب أخرى وحصانات أخرى وجدت منذ الغزو، وهي تشير إلى قوة الجيوش الإفريقية وإلى أن عنصر المقاومة العسكرية مما كان بين وقت وآخر يثبت أنه العنصر الحاسم.

وحتى في القرن الخامس عشر الميلادي فإن البرتغاليين وهم يتلمسون طريقهم جنوباً حول الشاطئ الإفريقي الغربي الطويل كانت معرفتهم غامضة حول القوى والمجتمعات الداخلية في إفريقيا التي كانوا ينشدون التحالف معها. لذلك بدأ ملك البرتغال بعذر يرسل وكلاء برسانل للرؤساء المنهزمين وأن يظهر نفسه لهم باعتباره صديقاً قوياً ووثيقاً لشئونهم وحروبهم. وفي الربع الأخير من القرن الخامس عشر أرسل رسولين إلى أمير التكرور (عند ساحل السنغال) وإلى أمير غمبكتو، كما أرسل بعثة في اتجاه الجنوب إلى جامبيا وإلى «منسا موندى - Mansa Mundi» وهو واحد من أقوى الرؤساء في إقليم الماندنجو وكان أيضاً أميراً على إمبراطورية مالي المترامية الأطراف يعرض صداقتهم^(٢).

انتمست كل الدول الأوروبية، البرتغال وإسبانيا وهولندا وإنجلترا وفرنسا في تجارة الرقيق، وكانت البرتغال صاحبة السبق في الاسترقاق وتجارة الرق في إفريقيا. أبحرت

(١) The African slave trade P. 115.

(٢) المرجع السابق P 27-28.

سحبها نجوب سواحل إفريقيا من غربها إلى شرقها ومن أنجولا إلى موزمبيق وعابرة لأطلنطلي نحو البرازيل وجزر الكاريبي. في البداية اقتصر على نطاق ضيق على صيد ونقل الأرقاء إلى الجزر المحاذية للساحل، فلم تتوغل بعيداً عن الشاطئ في أرض نكرة، وبعد أن ازداد الطلب على الرقيق أصبحت هذه الجزر مرافئ وورش صيانة سفن ومحطات ترانزيت^(١).

كان سبب سيطرة البرتغال على تجارة العبيد عبر الأطلنطلي حادثاً صغيراً يكاد لا يذكر في كتب التاريخ. ففي عام ١٤١٥م غزا البرتغاليون مدينة سبته المغربية وهي ميناء صغير من موانئ المغرب يقع عند مضيق جبل طارق وانتزعوها من المغاربة، وكان وقتها سبته تجارياً كبيراً على شاطئ البحر المتوسط ونقطة النهاية الشمالية لعدد من طرق شمال أفريقيا من داخل إفريقيا. وكان هذا الانتصار بداية حللك الفصول في تاريخ إفريقيا (لا تزال سبته تقع تحت الاحتلال الإسباني) ذلك أن سقوط هذا الميناء هو الذي فتح الباب لغزو القارة الإفريقية.

وتفسير ذلك أن أوروبا في ذلك الحين كانت غارقة في ظلمات العصور الوسطى، وكان العرب المراكشيون منذ سنة ٧١١ - ١٤٠٠م يسيطرون على إسبانيا، وكانت سيطرتهم تغلق أمام الأوروبيين إمكانات السيطرة على التجارة البحرية في البحر المتوسط. وكان البرتغاليون وغيرهم من الدول الأوروبية يعيشون في خوف مما يسمى بالعرب الإفريقيين الذين كانوا يسيطرون على إسبانيا. وأثار هذا النصر الصغير أوروبا وحشيتهم على التفكير بأن العرب ليسوا بعيدين من إمكانية أن يهزموا بعد أن عاشوا مئات سنين في خوف من الإفريقيين العرب الذين كانوا يسدون الطريق أمام تحركات الأوروبيين في البحر، وساعدهم الخلاف الذي قام بين الحكام العرب الأفارقة في إسبانيا مما أدى في النهاية إلى سقوط إسبانيا وتحريرها من السيطرة العربية. وكان هذا الانتصار بمثابة كرة الثلج التي أثرت على إفريقيا إلى الأبد^(٢).

ورغم سيطرة البرتغاليين على سبته إلا أنهم فشلوا في أن يسيطروا على تجارة الذهب الإفريقية ويغتصبوها من المغاربة. وأن فشلهم في الحصول محل المغاربة دفعهم إلى تبني

(١) علاقات الرقيق في المجتمع السوداني - محمد إبراهيم نعمة - دار الثقافة الجديدة - ط ١ - ١٩٩٥م ص ٤٣.
(٢) اليهودية في إفريقيا - عابدة العزب موسى - دار الشروق الدولية (ط ١ - ١٤٢٤ - ٢٠٠٤م)، ص ٤٣ - ٤٥.

إستراتيجية بحرية بهدف الوصول إلى طريق الذهب الحقيقي ، وبدأت خططهم بالانتفاف حول سواحل إفريقيا من الساحل الشمالى الغربى إلى الجنوب على طول الساحل الغربى .



فى عام ١٤٤٠م أسر أحد ضباط أمير البرتغال هنرى الملاح بعض المغاربة فأمر الأمير بإعادتهم ، فلتقى من المغاربة مقابل ذلك عشرة من الزوج وكمية من الذهب ، ففتح هذا العطاء شهية مواطنيه فجهزوا عدداً من السفن لتلك التجارة . وسار بعض المغامرين نحو الجنوب فى اتجاه رأس بوجادور سنة ١٤٣٤م ، وفى معارك صغيرة على الشاطئ الغربى اقتنص نحو ١٦٥ من الرجال والنساء والأطفال فضلاً عن قتل فى هذه المعارك ، وبقي هؤلاء المغامرون يسعون وراء المزيد من الاقناص . وأمر ١٥ برتغالياً أن يسيروا فى البر ليستطلعوا عما إذا كان هناك مراكشيون أو ليتعرفوا على أى ملامح تشير إلى وجودهم . وكانت السفن تنف بعيداً عن الشاطئ والزوارق تقترب من الأرض ، وفى طريق هؤلاء رأوا المراكشين يهرولون عندما شاهدوا البرتغاليين يجررون وراءهم ولكنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا المراكشين من الرجال إنما لحقوا فقط بالنساء والأطفال الصغار الذين لم يكونوا قادرين على الجرى السريع فأسروا منهم سبعة عشر أو ثمانية عشر . ووصلت كل هذه الحملة إلى جنوب البرتغال ومعهم الأسورون ، وبهذا يمكن القول إن تجارة الرق عبر الأطلنطى قد بدأت فى ذلك الوقت .

ظهرت تجارة الرق لأول مرة مجسدة فى وصول أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى البرتغال فى أغسطس ١٤٤٤م وكان عددهم ٢٣٥ عبداً ، ويذكر هيو توماس فى مؤلفه القيم «تجارة الرقيق» الذى نشر عام ١٩٧٧م أن وصول هذا الحجم من الإفريقيين كان شيئاً مشيراً ، ذهب الكثيرون ليشاهدوه ومتهم الأمير هنرى الملاح الذى أخذ يحدث إليهم من ظهر جواده واستلم منهم هدية يبلغ مقدارها ٤٦ عبداً وهو يمثل الخمس الملكى ، ويصف «جومز دى زوارار» وكان من حاشية الأمير هنرى عندما رأى ذعر ويؤس هؤلاء الأسورين : «أى قلب قاس لا يستطيع أن يتفعل ويشعر بالشفقة تجاه هؤلاء القوم عندما يصطادون ويتفصل الآباء عن أبنائهم والأزواج عن زوجاتهم والإخوة عن أخواتهم ، ونجد الألم فى العيون والدموع تغسل الوجوه والأكف

حرب الحدود والصراخ ينبعث عاليًا، والأنظار تحقق بعيدًا كما لو كانت تطلب معونة من إله الطبيعة».

انتشرت تجارة الرق سريعًا كانتشار وباء الطاعون. وفي مذكرات رحالة قديم آخر من ديا يسمى «موستو - CA.DA. Mosio» وكان قد أبحر في عام ١٤٥٦م إلى نهر جامبيا حيث تتسع إفريقيا في اتجاه الشرق، إنه بعد ذلك بنحو ١٢ عامًا حدثت غزوات أخرى - نوع من الانتظام في هذه التجارة. ويذكر موستو «قبل أن يتظم هذا الطريق فإن القوافل البرتغالية التي كانت تبلغ أربع قوافل أو أكثر كانت تسير مسلحة إلى خليج أرجوم Arguim ثم تنهبط في الماء وتغزو قرى صيادي الأسماك ويأخذون ما يستطيعون أخذه من هؤلاء العرب (لم يكونوا عربًا طبعًا إنما كانوا من البربر وغيرهم من الأفارقة) رجالاً ونساءً ويحملونهم معهم إلى البرتغال للبيع، وكان هذا يحدث على طول الساحل. ولكن في أوقات أخرى كان يتم ذلك بسلام وهم مشغولون بالتجارة»^(١).

في البداية لم يكن الباعث لاختطاف الإفريقيين وجعلهم عبيدًا هو التجارة فقط وإنما كان للانتقام أيضًا، كان أغلب المأسورين من الجزء الشمالي من موريتانيا من قبائل العوارق الذين كانوا تسيبوا أحيانًا في تدمير واسع النطاق من قبل في شبه جزيرة أيبريا. سلك كان البرتغاليون يصطادون الإفريقيين ويحولونهم إلى عبيد محض انتقام من الأفارقة المغاربة والسيطرة الإفريقية على شبه جزيرة أيبريا (إسبانيا والبرتغال)، باختصار كنت خطينة هؤلاء الأسلاف هي أن أراد البرتغاليون أن يتشمتوا من خلفائهم.

هذه التوليفة من مرارة الانتقام والجشع التجاري والتعصب الديني والمغامرة خربية أعطت البرتغال حمية القيام بغزواتها على الساحل الإفريقي. وفي عام ١٤٦١م أقام البرتغاليون مركزًا لهم في أرجوين (أغادير) الواقعة على الساحل مغربي المطل على المحيط^(٢).

وفي عام ١٤٨٢م بنى البرتغاليون أول قطعة لهم في ساحل الذهب في مكان أسموه «الينا» أصبح مقرًا لتجميع العبيد للانتقال منه إلى السفن الأوروبية، واعتقدوا أنهم من

The African Slave Trade P. 56.

التيانية والإسلام - تاريخ الإمبراطوريات الزنكية في غرب إفريقيا. د. ماديو باتيكار - ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بنيع - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥م. ص ١٩٥.

هذا المكان يستطيعون أن يقتحموا منابع الذهب الإفريقي، وكان عليهم أن يبنوا هذه القلعة باتفاقية يرمونها مع رئيس الأهالي في هذه المنطقة. وقد استطاع ديوجودي أزامبوزا الذي قاد الحملة البرتغالية بعد مفاوضات طويلة مع الرئيس الإفريقي أن يجعله يوافق على بناء القلعة بشرط واحد هو الحرص على بقاء السلام والحق، لذلك فإن أول الأفعال المبكرة التي تلت بناء القلعة في الميناء تم تكن الحملة العسكرية إلى المناجم التي في الداخل، ولكن كانت البعثة الدبلوماسية من أجل الصداقة والتحالف التي أرسلها الملك جون ملك البرتغال إلى ما مادو كبير مالي في إفريقيا، وقد أمر بأن يصحب هؤلاء ثمانية مبعوثين من البرتغال بينهم فارسان من البلاط الملكي، وكانت معهم الهدايا من الخيل والبغال والأسلحة والأشياء القيمة في ذلك البلد^(١).

كانت الميناء منشأة ملكية فلم يكن التجار الأفراد مسموحاً لهم بالاقتراب منها، وصارت تحكم ذاتياً تحت تصرف الحاكم البرتغالي، ويقال إن ملكة منطقة الميناء (نانا كوامينا) كانت غير موافقة على السماح للبرتغاليين ببناء القلعة ولكن أزامبوزا استخدم المكر والخداع للحصول على الموافقة. وبعد ذلك أنشأ البرتغاليون عددًا آخر من الحاميات الأصغر واستخدمت كلها في حبس العبيد إلى حين تصديرهم إلى أمريكا.

وفي عام ١٤٨٦م وصل البرتغاليون إلى ساحل بنين المدينة الإفريقية القديمة العظيمة واندثشوا من جمالها. وبعد سنوات وصلها الهولنديون وكتب أحدهم عن هذه المدينة «إنها مشيرة للخيال عندما تدخل إليها ستسير في طريق عريض أعرض سبع أو ثمانى مرات من شوارع أمستردام، إن قصر الملك هو تجمع من مبان كبيرة تحاط بالأسوار وهناك وحدات متعددة للوزراء والمحاشية أغلبها في ضخامة المباني الحكومية في أمستردام، وهي مدعمة بأعمدة من الخشب مغلقة بالنحاس نظيفة لامعة، والمدينة تتكون من ٣٠ شارعاً رئيسياً مستقيمة بعرض ١٢٠ قدماً، فضلاً عن شوارع جانبية غير

(١) لم تكن الميناء هي من سهل الوصول إلى ذهب إفريقيا وما وصل خلالها كميات قليلة، والحقيقة لا البرتغاليون ولا الهولنديون ولا أي من القوى الأوروبية الأخرى استطاعت ضمان الوصول إلى أرض الذهب غانا حتى حرب تريفينيون الأسباني في نهاية القرن ١٨. تخديت القلاع ولكن لم يكن أي منه مأمنًا، ووضع الحاميات فيها وكانت تستعمل دائماً من أوروبا وبين الفينة والفينة كان الأسباني يحاربون ويؤسرون ويغلبون وأحياناً كانوا يجبرون على العيش في اتفاق وثيق مع حيراتهم الإفريقيين وإلا فقدوا قوتهم.

محددة، المنازل قريبة من بعضها وعتقة بنظام طيب. إن هؤلاء الناس لا يمكن القول بأنهم أقل من الهولنديين بالنسبة للنظافة، إنهم يغسلون وينظفون منازلهم كما تنظف عداست النظارة اللامعة».

ظل البرتغاليون يحتكرون تجارة العبيد حتى نهاية القرن السادس عشر، في البداية كانوا هم من يقومون بعمليات صيد العبيد من الساحل وكان الإفريقيون الذين يجيدون الإبحار في شواطئهم يهمل جمعون البرتغاليين وينتكون بهم. ولما زاد عدد القتلى لبرتغاليين قرر الأمير هنري أن يغير من أساليب الصيد البرتغالي قبل أن يغامر البرتغاليون بهذا العمل فليشترروهم من الأفارقة وبدلاً من اختطافهم ليقيم الأهالي بهذه المهمة. وأظهر بعض الأهالي للبرتغاليين استعدادهم للتفاهم معهم واقنعوا بأن لعبودية أسهل بالتجارة منها بالحرب. وحتى ذلك الوقت فإن رؤساء العشائر في جنوب الصحراء كانوا يعملون كوسطاء داخل البلاد لتجارة الرقيق من غرب إفريقيا إلى البحر الأبيض وأوروبا، ولكنهم بدءوا الآن يبيعون الرقيق مباشرة إلى أوروبا، وانتصر البرتغاليون في واحد من أهم أهدافهم وقد كسروا احتكار التجارة الإفريقية التي كانت تحتكرها الدول الإسلامية في إفريقيا المطللة على البحر الأبيض التي سيطرت عليها قرونًا عديدة. ويقول كاداموستو إن هؤلاء العرب (مرة أخرى هو يقصد رؤساء العشائر البربرية في جنوب الصحراء وفي مناطق السافانا السودانية) كان لديهم خيول برية وكانوا يتاجرون في أرض السود ويتبادلون مع الحكام السود يعطونهم خيول مقابل عبيد، وكان الحصان الواحد يساوي من ١٠ إلى ١٥ عبداً حسب نوعه، هؤلاء الحكام سود كانوا يحكمون دولاً زنجية مثل مالي وسنغاي وأن احتياجهم للخيول التي وجدوا من الصعب عليهم أن يستولدوها ويربوها جعلهم يتوجهون في إشباع هذا الاحتياج من شمال إفريقيا^(١).

أخذت البرتغال تزود الجلالة الأفارقة صائدة العبيد بالبنادق النارية وتدريبهم على استخدامها ليتمكنهم اقتناص أكبر عدد من الرقيق، لذا أطلق على القرن السادس عشر عصر البنادق^(٢).

(١) المرجع السابق. The African Slave Trade P. 57.

(٢) الموسوعة الإفريقية - المجلد الثاني - تاريخ إفريقيا - معهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٩٧ م. ص ٣٣٠.

ومع التوسع فى الطلب على الشاطئ، نصنوعات أوروبية مقابل أرقاء، إلى الاقتحام العسكرى وفرض الهيمنة على مناطق تقسم عشرات القرى، وإلزام شيوخها بإتاوات من رءوس الرقيق، اضطر الشيوخ للإغارة على قبائل مجاورة لاستجلاب الإتاوة واستكمالها بأفراد القبيلة إن لم تبلغ النصاب من الأسرى، وأصبح هؤلاء الشيوخ وكلاء أفارقة للشركات البرتغالية يتولون تنظيم الغزوات وتجميع الصيد وتصنيفه ذكراً أو أنثى، شاباً أو فتاة، أو طفلاً، والإشراف على زرائب على الشاطئ، ونقلهم فى زوارق صغيرة للجزر حتى ترسو السفن العابرة للمحيط وتفرغ شحنتها من بضائع يتولى الوكلاء تسويقها ومتابعتها^(١).

كما أنشأت الحصون على السواحل لتكون مخزناً لتجميع الأفارقة قبل شحنهم إلى الأمريكتين وأوروبا. وكان القساوسة يعمدون كل رجل وامرأة وطفل قبل وضعه فى الأغلال وقبل ركوب السفن حتى تجد أرواحهم الخلاص عند موتهم فى البحر، وكسبت الكنيسة بهذه العملية مبالغ طائلة؛ لأنها كانت تقاضى ضريبة عن كل رأس^(٢).

واستمر البرتغاليون يكتشفون الساحل الإفريقى منذ أن نزلوا به، ولما توفي الأمير هنرى الملاح لم يهتم ابنه «فرنا» و«أفونسو الأول» بإفريقيا فنقلوا مسئولية الممتلكات البرتغالية فى إفريقيا إلى رجل الأعمال اللشبونى «فرنا وجومز» مقابل مبلغ من المال (٢٠٠ ألف ريس Reis) فى العام للأسرة المالكة البرتغالية، وكان جزءاً من الصفقة أن يتعهد جومز بأن يستكشف فى عام ٣٠٠ ميل فى الطريق الساحلى لإفريقيا.

وكما ابتدعت البرتغال تجارة الرق ابتدعت نظام السخرة لهؤلاء العبيد المأسورين، فكانت تطلب من الزعماء المحليين عدداً من العمال المطلوبين فيقومون هؤلاء بتجنيدهم بمقتضى عقود جماعية تحمل توقيع الزعيم، وكان هؤلاء الزعماء يجلدون إذا ما نوانوا عن تقديم العدد المطلوب، ونادراً ما كان هؤلاء العبيد يعودون إلى قراهم إذ غالباً ما كانوا يرسلون للعمل فى مشاريع خارج القارة، وبالأذات فى جيانا البرتغالية فى أمريكا إذ يشحنون إلى هناك وتتقطع صلتهم بقارتهم. وكان هؤلاء العمال يتلقون أجوراً تافهة

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - نشأة - سمات - الانتماء - لوليق وتعليق محمد إبراهيم نقد -

دار الثقافة الجديدة ط ١ - ١٩٩٥ م. ص ٤٤.

(٢) إفريقيا دراسة عامة إفريقية - د. أحمد نجم العين -

ولا يصرف للعامل إلا ربع راتبه خلال فترة العمل حتى لا يقرر ولا يصرف له الباقي إلا بعد انتهاء العقد الذي كان لا ينتهي أبداً^(١).

وبعد أن أقام البرتغاليون مراكز تجارية على طول الساحل الغربي نزلوا إلى الجنوب إلى سواحل الكونغو ووصلوا إلى أنجولا وأسسوا نقاطاً ساحلية مؤقتة سرعان ما تحولت إلى وجود دائم.



(١) الاستعمار الأوروبي في إفريقيا - د. زاهر رياضي ص ١٤٧.

التجارة عبر الأطلنطي

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبي في إفريقيا إلى مرحلتين أولاً: مرحلة الاستعمار التجاري الذي اقتصر على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الساحل البحري، وثانياً: المرحلة الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا والتي أدت إلى عدم اكتفاء الدول الاستعمارية باحتلال سواحل القارة بل بدأت تتوغل في قلب القارة. استهدفت المرحلة الأولى تجارة الرقيق وتحويلهم للعمل في أوروبا والعالم الجديد، والمرحلة الثانية استهدفت استعباد الأفريقيين في أرضهم الإفريقية لاستخراج الموارد الطبيعية. وإذا كانت المرحلة الأولى شهدت مأسى تجارة الرقيق فإن المرحلة الثانية شهدت مأسى الممارسات العنصرية^(١).

المرحلة الاستعمارية الأولى وهي عصر تجارة الرقيق الأطلنطي والغزو الاستعماري وهي الفترة الممتدة من ١٧٠٠ - ١٩٠٠ م، وعلى عكس التجارة عبر الصحراء التي قام بها تجار من القطاع الخاص شمال وجنوب الصحراء. دون تدخل مباشر من قوة أجنبية من خارج الإقليم، فقد قام بالتجارة الأطلنطي راسماليون تجاريون استفادوا من الدعم العسكري للقوة الأوروبية ومن التمدد التقني للاقتصادات الأوروبية وسيطروا على مناطق شاسعة من العالم لإحالة ميزان القوى لصالحهم في الأسواق الإفريقية.

كما أدى التقدم التاريخي الذي حققته أوروبا خلال تلك الفترة التي شهدت نشأة الرأسمالية إلى تشكيل العلاقات بين إفريقيا والعالم الخارجي بطريقة مختلفة، فبينما كانت إفريقيا خلال مرحلة التجارة السابقة عبر الصحراء تتعامل مع العالم الخارجي على قدم المساواة تقريباً، ولم يكن باستطاعة العالم الخارجي أن يفرض مطالبه بالقوة على القارة الإفريقية، فقد أدى تطور تجارة الرقيق الأطلنطي واتساع نطاق الغزو الاستعماري إلى تمهيد المسرح لفقدان التكوينات الاجتماعية الإفريقية لاستقلالها الذاتي وهو ما أدى إلى إخضاعها كلية في نهاية الأمر^(٢).

منذ وصول البرتغاليين إلى غرب إفريقيا بدءوا في اضطهاد الرقيق الإفريقي ونقله إلى بلادهم على طول الساحل الغربي الإفريقي، ثم اندفعت سفن الدول الأوروبية

(١) الموسوعة الإفريقية - المجلد الثاني - تاريخ إفريقيا - ص ٣٨٢.

(٢) السياسة والحكم في إفريقيا - الجزء الأول - أنثونيا يسومي - ترجمة مجموعة من الباحثين - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣م - ص ٥١.

التجارة عبر الأطلنطي

ينقسم عصر الاستعمار الأوروبي في إفريقيا إلى مرحلتين أولاً : مرحلة الاستعمار التجاري الذي اقتصَرَ على احتلال عدد من الموانئ والمحطات التجارية على طول الساحل البحري ، وثانياً : المرحلة الإمبريالية التي صاحبت الثورة الصناعية في غرب أوروبا والتي أدت إلى عدم اكتفاء الدول الاستعمارية باحتلال سواحل القارة بل بدأت تنوغل في قلب القارة . استهدفت المرحلة الأولى تجارة الرقيق وترحيلهم للعمل في أوروبا والعالم الجديد ، والمرحلة الثانية استهدفت استعباد الإفريقيين في أرضهم الإفريقية لاستخراج الموارد الطبيعية . وإذا كانت المرحلة الأولى شهدت مأسى تجارة الرقيق فإن المرحلة الثانية شهدت مأسى الممارسات العنصرية^(١) .

المرحلة الاستعمارية الأولى وهي عصر تجارة الرقيق الأطلنطية والغزو الاستعماري وهي الفترة الممتدة من ١٧٠٠ - ١٩٠٠ م ، وعلى عكس التجارة عبر الصحراء التي قام بها تجار من القطاع الخاص شمال وجنوب الصحراء . دون تدخل مباشر من قوة أجنبية من خارج الإقليم ، فقد قام بالتجارة الأطلنطية رأسماليون تجاريون استفادوا من الدعم العسكري للقوة الأوروبية ومن التقدم التقني للاقتصاديات الأوروبية وسيطروا على مناطق شاسعة من العالم لإحالة ميزان القوى لصالحهم في الأسواق الإفريقية .

كما أدى التقدم التاريخي الذي حققته أوروبا خلال تلك الفترة التي شهدت نشأة الرأسمالية إلى تشكيل العلاقات بين إفريقيا والعالم الخارجي بطريقة مختلفة ، فبينما كانت إفريقيا خلال مرحلة التجارة السابقة عبر الصحراء تتعامل مع العالم الخارجي على قدم المساواة تقريباً ، ولم يكن باستطاعة العالم الخارجي أن يفرض مطالبه بالقوة على القارة الإفريقية ، فقد أدى تطور تجارة الرقيق الأطلنطية واتساع نطاق الغزو الاستعماري إلى تمهيد المسرح لفقدان التكوينات الاجتماعية الإفريقية لاستقلالها الذاتي وهو ما أدى إلى إخضاعها كلية في نهاية الأمر^(٢) .

منذ وصول البرتغاليين إلى غرب إفريقيا بدءوا في اصطلياد الرقيق الإفريقي ونقله إلى بلادهم على طول الساحل الغربي الإفريقي . ثم اندفعت سفن الدول الأوروبية

(١) الموسوعة الإفريقية - المجلد الثاني - تاريخ إفريقيا - ص ٣٨٢ .

(٢) السياسة والحكم في إفريقيا - الجزء الأول - أنطوان بيانوني - ترجمة مجموعة من الباحثين - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣ م - ص ٥١ .

وعندما نجح ليوبولد الثاني أن يضع نفسه سبداً على الكونغو وقع هذا البلد تحت أسوأ استغلال عرقته البشرية في الفترة ما بين ١٨٨٥ - ١٩٠٨ م وهي عبودية السخرة لكي يستغل أقصى موارد من المطاط والعاج، واقتضى ذلك معاملة الإفريقيين بقسوة تصل إلى حد الإبادة، فكان الجنود يطلقون النار على العامل الذي لا يقوم بجمع حصته أو يقطعون أعضائه، ولكي يثبت الجنود البلجيكي أنهم لم يبعثوا ذخيرتهم هباء فكان الجندي مجبراً على إحضار عضو من جسم الإنسان في مقابل كل رصاصة أطلقت. أن ليوبولد لم يضع قدماً قط في الكونغو ومع ذلك حكمها ٢٣ عاماً من سنة ١٨٨٥ - ١٩٠٨ م، وحسبما يقول هونشيلد إن الكونغو كانت المستعمرة الوحيدة في العالم التي يدعيها رجل واحد لنفسه أزهق فيها أرواح ما يتراوح بين خمسة وثمانية ملايين من البشر، حتى أجبرته الاحتجاجات العالمية أن يتنازل عن إدارته الخاصة للكونغو عام ١٩٠٨ م، وانتقل هذا البلد البائس إلى الحكومة ليصبح مستعمرة بلجيكية^(١)، أي أنها انتقلت من الملكية الخاصة للملك إلى الملكية العامة للدولة البلجيكية.

كان العاج أهم ما كان يصدره ليوبولد من الكونغو. ثم حدث بعد ذلك بالصدفة حادث غير مصير مستعمرة الكونغو وشعبها. كان «جون دانلوب» في إيرلندا يجرب دراجة مع ابنه واكتشف إلى أي مدى يكون الإطار المصنوع من المطاط مناسباً للسير فأسس شركة إطارات عام ١٨٩٠ م سميت باسمه دانلوب، ثم ظهرت هذه الصناعة الكبرى للإطارات من المطاط «إطارات دانلوب» وصار المطاط هو الذهب الجديد، وكان هذا ما أثلج صدر ليوبولد وفتح أبواب الثروة من الكونغو القنّى بالمطاط.

إرهاب المطاط

ضغط ليوبولد على وكلائه للمزيد من استغلال المطاط الطبيعي في الكونغو رغم وقفته، ومارس من أجل ذلك مذابح القتل الجماعي، كان استخراج المطاط الطبيعي عملية صعبة للغاية استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية ليجبروا الأهالي في الكونغو على أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط، وأحياناً كانت تقتل زوجة

(١) قضايا إفريقية - د. عبد الغني سعودي - ص ٩٢ - ١٠٢.

رجل انتقاماً منه . يصف أحد رجال ليوبولد مشهد أحد الأهالي المعاقب لتقاعسه في جمع حصته من المطاط : «لقد قيدوا معصميه مع بعضهما وأوقفوه وذراعاه يعلوان رأسه وربطوه على عارضة ورقعوه حتى صارت قدماه تمسان الأرض وترك هذا الكائن يسكين طول الليل ، كان معلقاً يتوسل طالباً الرحمة وأحياناً ما كان يغشى عليه ، وخلال الليل كانت زوجته المشقة عليه تفعل كل ما تستطيع للتخفيف عن معاناته وتجلب له الشراب والطعام وتدلّك له قدميه المتورمتين ، وفي النهاية عندما أتى الصباح جاء الرجال أسقطوه على الأرض وهو فاقد الوعي»^(١).

إن العمل بالسخرة وسلاسل العبودية والجوع وحرق القرى كان ذلك كله من النظام سائد ، وكان هناك نوع من الكراييج يصنع خصيصاً من جلد الخرافات بعد أن يجف وينقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة ، وكانت تترك آثاراً دائمة على الأجسام ، أن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعي ، ومائة جلدة كانت قاتلة . إن ما حدث في الكونغو كان قتلاً جماعياً على نطاق واسع^(٢).

والحقيقة أن من قاموا بعمليات القتل لصالح ليوبولد لم يكونوا قتلوا أكثر من عرسيين الذين يعملون في الكونغو برزافيل حتى أن آلاف اللاجنبيين الذين عبروا الكونغو هروباً من ليوبولد فيل عادوا من جديد إلى بلادهم هروباً من قسوة الفرنسيين في برزافيل (تقدر الخسائر البشرية في المناطق الاستوائية الغنية بالمطاط المملوكة لفرنسا نحو ٥٠٪ مثل الخسائر ذاتها في الكونغو المملوكة لليوبولد).

وقد قاوم كثير من القرى نظام المطاط فكان وكلاء ليوبولد يأمرؤن جيش الطواري أن يعزرو هذه القرى المستردة ويقتل أهلها ، وحتى يتأكد الضباط من أن الجنود لم يهددوا الرصاص في اصطلياد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه ، يقول هوتشيلد : إن الدليل النمطي كان اليد اليمنى لكل جثة وأحياناً - وأيا يحصلون على أيدي أناس لم يقتلوا عندما كانوا يواجهون الرصاص إلى اصطلياد حيوانات فكانوا يقطعون يد رجل حي ليقدموها ، وفي بعض الوحدات العسكرية كان هناك أمين على مخزن الأيدي المقطوعة كانت وظيفته تبخيرها^(٣).

مراجع السابق، King Leopold's Ghost, P. 295.

١ - عبودية في إفريقيا - المرجع السابق - ص ٢٤.

٢ - المرجع السابق ص ٢٦ - ٣١.

القبول بالمشاركة

من المؤكد أنه لا يوجد فصل في تاريخ الخبرة البشرية يشبه ما حدث في ساحل خليج غينيا^(١). إن وقائع ما حدث في غرب إفريقيا يفوق كل المواجهات الأخرى بين أوروبا وإفريقية التي لم تكن سوى الحزن والعنف والكوارث والدمار... وربما يكون ساحل غينيا هذا النموذج الأكثر وضوحاً لما أحدثته الاتصال الأوروبي من التحول التدريجي للمجتمع الإفريقي من المشاركة ثم الإخضاع والإخلاق.

في مناطق إفريقيا المختلفة نجد تنوعات كبيرة في مواجهتها مع العالم الخارجي، فشعوب الكونغو مثلاً عرفت الاتصال الأوروبي عن طريق دولة أوروبية واحدة ولمصلحة واحدة وهي التجارة في العبيد. ولكن على طول ساحل غينيا كانت العشرات من الدول الأوروبية تتنافس بسفنها وتجارها وتتداول التجارة عبر العديد من الأيادي والمجالات. وشعوب شرق إفريقيا كانت لديهم معرفة طويلة بالاتصالات المتنوعة مع العالم الخارجي وينوا مدناً وممالك هناك ولكنها كانت ضعيفة وغير عصرية على بنادق البرتغاليين وطموحهم، وقمعهم البرتغاليون بسهولة. في حين أن شعوب ساحل خليج غينيا كانت لديهم القوة الكامنة للمقاومة وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم عندما يهاجمون ودافعوا عن أنفسهم فعلاً.

في البداية كان لديهم قبول بالتعاون المتكافئ والمساواة بينهم وبين الأوروبيين، عندما جاء البرتغاليون إلى بنين في ساحل خليج غينيا، قدموا أنفسهم باعتبارهم حلفاء ومبشرين شجعوا أمراء هذا الزبارة لشبونة وساعدوا في بناء الكنائس وأسروا تجارة مكثفة للعاج وغيره من البضائع وحاولوا احتكارها، ثم تحولوا سريعاً إلى طلب العبيد وأسروا وكالات في مدينة بنين وأحياناً كان جنودهم يحاربون مع جيوش «الأوبا» (Oua) ملوك بنين ضد جيرانهم.

استمرت هذه المساواة الأولى وظهرت أشكالاً جديدة بصرف النظر عما إذا كان ذلك من خلال الصراعات ومآسي الاتصال الأوروبي. وكان الطرفان يشق بعضهم في بعض أو يستريسون في بعض البعض ويتشدون الغنى أو يتشدون الدمار ويحترمون

(١) ساحل خليج غينيا تمتد من ساحل غانا غرباً إلى ساحل بنين ثم ساحل نيجيريا شرقاً.

السلام أو يخرقونه، ولكن بقي اتصالهم هكذا من خلال المصلحة في التجارة، وسنة بعد سنة من أجل خدمة هذه التجارة فإن البحارة الأوروبيين والتجار الأوروبيين واجهوا مخاطر قاتلة في الملاحة، والأجواء في الساحل ولكن لم يشتهم شيء من ذلك ولا أعادهم القهقري.

وفي الجانب الآخر فإن الشركاء الإفريقيين أظهروا مهارة وبراعة في ممارسة التجارة. إن تاريخ ساحل خليج غينيا بين أعوام سنة ١٥٥٠ - ١٨٥٠م كان تاريخ المشاركة في المخاطر والأرباح بشكل مستمر ونام. ولذلك فإنه من الخطأ اعتبار خبرة عرب إفريقيا خبرة مفروضة كلها من الخارج ومنظمة كلها من الخارج، ولا أن الجانب الإفريقي كان سلبياً وخاضعاً تماماً وهذا النظر للارتباط يعكس فكرة مألوفة عن ضعف القدرة الإفريقية ولكن يظهر أن هؤلاء الأفارقة الذين انخرطوا في التجارة نادراً ما كانوا ضحايا عاجزين أمام تجارة لا يقيمونها، بل على العكس كانوا يفهمونها بمثل ما كان يفهمها الشركاء الأوروبيون. وقد استجابوا لتحدياتها واستغلوا فرصها. إن سوء حفظهم الكبير وهو مأساة إفريقيا هو أن أوروبا أرادت عبيداً للاسترقاق في الأمريكتين، وأن الدول والشعوب الإفريقية التي انخرطت في هذه العلاقات والاتصالات بشكل مباشر أو غير مباشر كانوا أنفسهم على تنوع كبير في اللغة والهيكل الاجتماعي، كانوا دولاً وشعوباً في أراضي المراعي (السافانا) والسهول النباتية السودانية وحزام الغابات لإفريقي وسواحل البحار.

في وقت وصول الأوروبيين في القرن الخامس عشر كان الكثير من هذه الشعوب قد بلغت النضج الخاص بعصر الحديد في الهيكل الاجتماعي، وظهرت دول وإمبراطوريات إقطاعية، وحازت في تراثها ما يجعلها جديدة بالنظر إلى نفسها - غنارها قلب إفريقيا السوداء.

إن الدول الرئيسية الأساسية في ساحل غرب إفريقيا وما جاورها في الأراضي الإفريقية الداخلية قد نشأت بشكل قوي في وقت نشأة مشيختها في أوروبا، كان لها سبق داخلي وثقة اجتماعية بالنفس ورؤية فنية وقيمية وأخلاقية، وبعضها عرف أوروبا وبعضها لم يعرفها، لكنها كلها في القرن السادس عشر بدأت تقيم تجارة بحرية على طول الساحل^(١).

(١) المرجع السابق. P 202-210. The African Slave Trade.

مملكة الأشانتي

لتصور للحقبة أن سفناً من دول قوية وصلت في انعصور الوسطى آتية من قارة غير معروفة من أكثر الشواطئ بعداً في شمال أوروبا ووجدوا أناساً بسطاء متفرقين منتظمين في عشائر صغيرة ومجموعات أسر اعتادوا على العيش عند السواحل والحدود البعيدة لعالمهم، وهم من كانت القوة والمستوى الحضارى يكمن خلفهم في الأراضي الداخلية، كان هذا هو حال شعوب ساحل الذهب رغم أن المشابهة ليست دقيقة عندما وصل إليهم البرتغاليون والأوروبيون الآخرون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

إن أغلب هذه الشعوب الصغيرة عاشت هنا من وقت لا تدركه الذاكرة، وآخرون دخلوا في الأراضي الساحلية التي تكون الشريط الضيق بين البحر والغابة. وخلال عمليات هجرة في القرن الثاني عشر وما قبلها كانوا منظمين في وحدات صغيرة ويدينون باختصوع للشعوب، ذات العدد والقوة في الغابات عند الأفق الشمالى، ولكنهم كانوا يحتملون هذا الخضوع؛ لأن المطلوب منهم كان قليلاً سواء من المال أو الجهد.

إن شعوب الغابة كانوا في حالة مختلفة، لقد كانوا مزيجاً من السكان القدامى والهاجرين الآتين من الشمال ولكن عمليات مركبة تكونت بها الدولة ونمت بهم، وهذه العمليات اكتملت تقريباً قبل سنوات عديدة من بدء ازدهار تجارة المحيط، وكانت قوة هؤلاء ترد من كفاءة نظمهم، كما كانت تأتي أيضاً من تجارة الذهب التي يمارسها مع دول السهل السودانى الغربى. وكانت الأشانتي وما جاورها من أراض مشهورة باعتبارها مورداً للذهب.

وفي الوقت ذاته هبط الأوروبيون بنوا الفلاح وكانوا يؤدون أجوراً لهذه الشعوب الصغيرة الموجودة على الساحل. ويمكن للإنسان أن يتصور أن الرؤساء على هذه المناطق الساحلية كانوا مبتهجين لهذا الدخل غير المتوقع وهذه الأهمية الجديدة التي اكتسبوها. ولذلك فإن البرتغاليين الذين بنوا قلعة «اليتا» لم يجدوا صعوبة في تأمين اتفاقية «كاسامانسا - Casamansa» مع الرئيس المحلى وكانوا يصفونه بأنه رجل بدائى ولكن لديه فهم طيب وأحكام واضحة.

إن القائد البرتغالى قد صادف صعوبات في عمله، ولكن عندما ذللها لم يصرف وقتاً في تأكيد قوته بأنه أحرق قرية كاسامانسا، وكانت ثمة معارك واشتباكات

حصارات على هذا الشاطئ- نضع مئذنة من السنين - ولكن في النهاية فقد كانت
صانع المرتبطة بالتجارة قوية إلى حد أنها كانت تداوى هذه الأمور، وعلى مر السنين
خبرت المشاركة وأدت إلى بناء نحو ٤٠ قلعة أوروبية على طول ٤٠٠ كم بين «بيين -
» «B.» و«كيتا - Keta» في الشرق وهي تقريباً منطقة غانا الآن، ولكنها كانت مشاركة
مير مستقرة وتخضع للحروقات المتعجئة والحروب التي تشتعل.

كان ثمة سببان لعدم الاستقرار: المنافسة بين الأوروبيين بعضهم البعض والمنافسة بين
إفريقيين بعضهم البعض وكل منهم يصارع من أجل السيطرة الاحتكارية على الجانب
الخاص به في التجارة، فمثلاً في الجانب الأوروبي كان الهولنديون ضد البرتغاليين،
وعلى الجانب الإفريقي كان «الأكوامو - Akwamu» ضد الدنكويرا Denkwira، وقد ازداد
توتر هذه من الجانبين عندما زادت تجارة الذهب وتجارة العبيد عند الأوروبيين وزادت
حاجة إلى الأسلحة النارية والسلع الأوروبية الأخرى لدى الإفريقيين. وفي النهاية كما
«شأن في ساحل العبيد» فإن الصراع المزيج للاحتكار أنتج معارك بين الأوروبيين
إفريقيين. وأفضى إلى بداية الحكم الاستعماري.

لقد كان ما يرغب فيه الأوروبيون على الساحل أن يدافع كل منهم عن نفسه ضد
الآخر ومن أجل أن يسيطر بقدر ما يكون ذلك مناسباً وممكناً، وأحياناً ما كان يظهر أن
سيطرة كل من القوى الأوروبية على الآخر الأوروبي أسهل من السيطرة على
إفريقيين، ويمكن ملاحظة ذلك في الخبرة الهولندية، حيث كانوا هم الأقوى بين كل
قوى الأوروبية البحرية في القرن السابع عشر، وبهذا استطاعوا أن يسيطروا على قلعة
«بيين» من البرتغاليين وبنوا القلاع الخاصة بهم ثم يواجهوا الأفارقة وممالك الإفريقيين
في الداخل، وقد بنى الهولنديون قلاعاً كثيرة صغيرة في بوتري وشاما وأكرا وغير ذلك
معينين أمام الأفارقة أنهم يبنون هذه الحصون ليدافعوا عنهم ضد الهجمات التي تأتيهم
من أعدائهم المجاورين من داخل الأراضي الإفريقية، فلما قوى الهولنديون بدءوا
يمارسون هذه السيطرة على الإفريقيين بمنعهم في الساحل من الصيد وتوقيع العقوبات
نفسية عليهم إذا تاجروا أو اتصلوا بالأوروبيين الآخرين. وهذا النوع من التعسف لم

(٢٩) ساحل العبيد أطلق على ساحل غرب إفريقيا.

يدم مدة طويلة فصادف مقاومة، كما أن دول الداخل في إفريقيا كانت أكثر قوة من أن تنحى جانباً. وفي الثمانينيات من القرن السابع عشر في أكرا فإن قلاعاً أوروبية ثلاثاً لم تكن قادرة على السيطرة على القلعة الهولندية، فتبيع قلعتها بـ ٥٠ ماركاً من الذهب ولم تكن هذه حالة وحيدة. وعلى طول ساحل الذهب وعلى مدى عقود أو قرون كانت تجرى تحالفات ومتنافسات بين كل قوة والأخرى.

وثمة ضغوط أخرى كانت تجرى بين شعوب الداخل في إفريقيا، وكان ثمة توتر قومي وصراعات تتعلق بالفتح والاستيعاب؛ لأنها كانت شعوباً منظمة في حكومات مركزية ينفذ كل منها منافساً للآخر. ولكن قوة إغراء التجارة الأوروبية والرغبة في الدفاع عن النفس واستيراد البنادق والم ذخيرة زاد من حدة الصراعات القومية والقبلية الإفريقية بما يجعلها تنفجر في حروب وعمليات غزو، وهنا ظهرت معادلة العبيد مقابل البنادق على طول ساحل العبيد.

ظهرت دولة الأشانتي في نهاية القرن السابع عشر عندما كانت وحدات متناثرة من شعب الأكان في غابة الأشانتي خاضعين إلى رؤسائهم المحليين واستجابوا استجابة متزايدة للطلب على العبيد. وأن الرؤساء المحليين للأكان انضموا بعضهم إلى بعض في اتحاد الأشانتي وعقدوا تحالفاً وثيقاً مع الأوروبيين في الساحل.

ومن قبيل الدفاع عن النفس خاضر الأشانتي فتوحات تجعلهم مهيمنين على الأراضي وراء ساحل الذهب، ومسيطرين أيضاً على الجانب الإفريقي للتجارة الساحلية. ولا شك أن كان لديهم الطموح بأن يكونوا أميين ولذلك فإن الإنسان يمكن أن يرى بشكل واضح أن هذا التعاظم الوطني إنما كان مرتبطاً بعلاقات العبودية الجارية؛ لأن أمن اتحاد الأشانتي كان معتمداً على البنادق، ولكن البنادق لم تكن يمكن الحصول عليها بغير المبادلة بالعبيد. وقد كانت تجارة الذهب تفقد أهميتها مع الوقت لذلك فإن الأشانتي شاءوا أم أبوا كانوا مدفوعين إلى تجارة العبيد لأن العبيد هم الثمن الذي يدفعه الأشانتي مقابل حصولهم على السلع الأوروبية.

ولكن العملية نفسها قادتهم بالتحتم تجاه فتح البلاد المجاورة، لم يكونوا قابلين قط أن يبيعوا شعبهم، أو كان ذلك نادراً جداً، ومن ثم فقد كان لا بد من غزو الشعوب الإفريقية الأخرى وخاصة أن هذه الشعوب كانت منغمسة في هذه اللعبة الخاصة

بحرية ويطرق التجارة إلى الساحل . وقاد ذلك إلى الاحتياج للمزيد من الأسلحة
لحماية هذا القود إلى المزيد من جلب العبيد ، ومن ثم فقد غت الأثنى حتى صارت
حدة من أقوى الدول المعتمدة على العبودية فى إفريقيا مثل دول المدن فى دلتا النيجر
تتاجر مع بريطانيا وفرنسا وهولندا على الجانب الآخر .

ذكر أحد المؤرخين أن الأثنى صارت بشكل منتظم دولة تتعامل فى العبيد ، وكثير
العبيد كانوا يشترون من أسواق الشمال ويساقون إلى الساحل ويبيعون ، ولكن
من العبيد أيضا كانوا يؤخذون بالإغارات والحروب . وفى كل الأحوال فقد
ت عمليات العبيد هى ثمن وجود الأثنى .

وبعد سنة ١٧٠٠م نما اتحاد الأثنى باعتباره مكونا لا ينفك عن شبكة
شركاء التجاريين الذين يمكنون أوروبا الغربية من تركيب الثروات فى المزارع
راسعة عبر الأطلنقى .

لقد أنشأ البريطانيون علاقات دبلوماسية مع الأثنى فى عاصمتهم «كوماسى» فى
ية الأثنى ، ثم إنه مع المد الاستعماري غزا البريطانيون الأثنى ، وبعد حروب
سنة اشتملت على العديد من الانتكاسات استطاعوا حزو البلاد ، وكان هذا هو
تميل الأخير فى التحول من المشاركة العبودية القديمة إلى النظام الاستعماري الذى
أعمله فى سنة ١٩٠٢م عندما انضمت الأثنى إلى الإمبراطورية البريطانية .

عندما رفض شعب الأثنى فى غانا الخضوع لحكم الإنجليز خاضت بريطانيا
سنة من الحروب لإخضاعهم امتدت من سنة ١٨٢٣م إلى سنة ١٩٠٠م حتى
خضع الأثنى لا بسبب أنهم يريدون الحكم البريطاني ، ولكن بسبب تفوق أدوات
حرب البريطانية .

وتذكر «تريزا سنجلتون» وهى عالمة إفريقية أمريكية من علماء الحفريات أجرت بحثا
فى منطقة «المينا» فى غانا وهو المكان الذى دار فيه القتال بين الأثنى والبريطانيين ، إنه
فى عام ١٨٢٣م سار الأثنى تجاه الساحل لمواجهة الغزاة البريطانيين ، وحتى يوقف
نريطانيون زحف الأثنى قذفوا بالقتال أسوار قلعة المينا ودمروها ، وبقيت هذه
قلعة مدمرة لم يعد بناؤها حتى ذهبت إليها بعثات الحفريات عام ١٩٨٥م^(١) .

(١) المرجع السابق، P. 205-210. The African Slave Trade

إن الحقيقة التي يجب ألا تغيب هي أن كل ما كان يريد الأوروبيون في أي مكان في العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو بالغش فإن لم ينجحوا بأي من هاتين الرسلتين بالقوة.



بنين مملكة الدماء

بنين مثل الأشانتي ، عندما وصلها الرحالة البرتغاليون الأوائل وجدوا عاصمة قوية لإمبراطورية تسيطر على مناطق واسعة وتمتد من دلتا نهر النيجر حتى لاجوس (نيجيريا) ، ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة إحدى المناطق الرئيسية التي هبط فيها التجار الأوروبيون الذين يبحثون عن مناطق لصيد العبيد ، ولسوء حظ بنين أيضاً اتفق أمراؤها مع أوائل البرتغاليين الذين جاءوا إلى غرب إفريقيا يمارسون أحسن تجارة في تاريخ البشر وهي تجارة الرقيق .

ويذكر المؤرخون أن العاصمة بنين كانت تمثل نحو ثلاثة أميال من البوابة حتى البوابة ، وكان ثمة خندق مائي واسع كاف للدفاع عنها ، وكان نطاقها الذي تسيطر عليه في حجم جنوب إنجلترا وويلز ، وكانت بنين في ذروتها التاريخية تحت حكم الأوبا إيوار العظيم Ewuare (الأوبا لقب يطلق على كل من يشغل العرش أي الملك) وكان حاكماً لها في السنوات السابقة مباشرة على وصول البرتغاليين . ورغم أن البرتغاليين لم يكتبوا عنها كثيراً على مدى القرن السادس عشر فقد كان الأوبا يحسن استقبالهم تجاراً ومبشرين .

وقد تزايدت المصادر التاريخية عن بنين بوعاً ما مع وصول الهولنديين في القرن السابع عشر وكانوا كثيرى الاهتمام بشركائهم من التجار وكتبوا خطابات عديدة لذويهم في هولندا تحوى تفاصيل مفيدة عن بنين ، كتب أحدهم يصف المدينة في سنة ١٦٠٢م : «إنك تمشى في شارع عريض جداً غير ممهد يبلغ نحو سبع أو ثمانى مرات عرض شارع وارموس في أمستردام ، وبوابة المدينة كبيرة ومصنوعة من الخشب وفي حالة جيدة تفتح وتغلق ، وكان قصر «الأوبا» مخفياً عن الأنظار داخل بنين ، وبلاط (الملك) الأوبا واسعاً جداً وبه أربعة ميادين ومبان»^(١).

(١) المرجع السابق P. 232 The African Slave Trade

وقامت تجارة واسعة وكثيفة بين بنين وبين الدويلات المجاورة لها، والكثير من هذه التجارة كان احتكاراً ملكياً، وكان ثمة وسطاء في هذه التجارة فلا يستطيع أوروبي أن يساوم أو يدخل في علاقة تجارية إلا من خلال التجار أو مندوبين من أهالي المدينة. هذه المدينة الإمبراطورية كان لها مشاكلها مع جيرانها مثل أي دولة أخرى، وكانت بنين تستورد الأسلحة النارية لقرضى سيطرتها طوال القرن السادس عشر. وتذكر التقارير أن هولندية أن الحروب التي قامت مع جيرانها كانت لصالح بنين حتى منتصف القرن السابع عشر، ولكن بعد هذا التاريخ انخفض المنحى وحل محل حروب الفتح حروب أخرى من أجل العبيد.

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والأسلحة النارية وطلبوا منهم الانطلاق إلى مناطق الغابات والمناطق الريفية الداخلية لمحاصرة الأهالي واصطيادهم وقيادتهم إلى ساحل خليج غينيا ليباعوا هناك ثم يصدروا إلى البرتغال، حيث يباعون من جديد بخملة وبالقطاعى.

وبالفعل انطلقت جيوش بنين المزودة بالأسلحة النارية إلى المناطق الداخلية وأسرت الآلاف، مما أفزع الأهالي من الأسلحة النارية التي لا قبل لهم بمواجهتها، وهربوا دزين مذعورين إلى مناطق أكثر تغلغلاً في الغابات والأحراش^(١).

وفي بداية القرن الثامن عشر أصبحت مساحات واسعة في بنين خالية تماماً من الأهالي وضعفت قدرة المملكة على الاستمرار في تجارة العبيد، واضمحلت بالتالى سون الدولة التى وصمها التاريخ الإفريقى بعار الاشتراك مع الأوروبيين فى تجارة العبيد، واحتفظت ذاكرة التاريخ لها بهذه الوصمة المشينة، حيث تشير القصص والحكايات المتوارثة إليها باعتبارها «مملكة الدماء».

لقد قوضت تجارة العبيد الرخاء كما حطمت هيكل الدولة وصارت مساحات واسعة من الأراضى بوراً وخالية تماماً من الزراعة والبشر بعد أن اشتركت فى شبكة كبيرة منجارة العبيد شأنها فى ذلك شأن دلتا الشرق لنهر النيجر، وارتبطت بغزوات منتظمة بحثاً عن العبيد. ويقال إنه فى عام ١٧٩٨م جعلت السفن البريطانية نحو ٢٠ ألف عبد

^(١) الإسلام فى ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء - تأليف جوران جوزيف - ترجمة مختار السويفى / دار الكتاب المصرى ودار الكتاب اللبنانى بيروت - ط ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م ص ١١١.

مقتضى من الدلتا الشرقية في مقابل بحر ألوف فقط من نهر بنين مما يدل على أن بنين لم تعد قادرة على أن تكون دولة لتجارة العبيد، وحصار «الأوبا» عاجزاً على وقف المذابح التي كانت تجري بشأنها، وبعد سنوات أرسلت بريطانيا قوة عسكرية وفرضت سلطتها الاستعمارية عليها.



ما وراء الساحل

إذا توغلنا أكثر فيما وراء الساحل نجد أن شعوب دلتا النيجر كانوا حلقة الاتصال بين تجار العبيد الأوروبيين وبين الممالك والإمبراطوريات السودانية. وشعوب الدلتا هؤلاء كانوا أناساً ذوي خبرة تاريخية ممتدة، وكانوا يكسبون من التجارة مع بعضهم البعض كما يكسبون من التجارة مع دول الشمال في السودان الأوسط، لذلك كان يتعين أن يكونوا أقرباء إلى الحد الذي يمكنهم من الحصول على العبيد من المجتمعات المجاورة في داخل إفريقيا والتكفل في مواجهة الأوروبيين.

ومنذ البدايات الأولى لشعوب دلتا النيجر أظهروا براعة كبيرة من استخلاصهم أحسن ما يستخلص من ظروفهم الطبيعية السيئة سواء بالنسبة للتربة أو الجو أو المياه، وقد اتبعوا طرقاً جديدة لتوحيد شعوبهم فوى اللغات المختلفة والأصول المتباينة والولاءات الإثنية، فأنجهموا إلى أشكال مركبة لتنظيمات مجتمعاتهم، ومن بين مؤسسى هذه المجتمعات شعب «إيجبو - Igbo» الأثني من بنين، وهؤلاء المستوطنون سواء من الإيجبو أو من القبائل الإثنية المتعددة الموجودة أصلاً احتلوا سواحل النهر والأراضي المتخللة للمياه وعاشوا صيادين في ظروف فقيرة.

ثم أتى البرتغاليون ولم يجدوا لديهم شيئاً ينجحون به، ولكن هذه المنطقة ذاتها استطاعت أن تستفيد من موقعها فتكون همزة وصل بين الداخل الإفريقي وبين الوافدين الأوروبيين على السواحل الإفريقية من البحر لتصير بعد ذلك بؤرة جذب للتجارة الآتية من الشرق من نيجيريا، وهكذا لم تعد الدلتا مجرد مكان للمجوء ولكنها توظفت لإيجاد روابط مع أوروبا.

واجه شعوب الدلتا مشكلة تعدد ولائتهم الإثنية فتغلبوا على ذلك بابتكار نظام حكم سمي «بالدولة المدينة»، وقد أبدت دول المدن هذه مهارة في نسج ولاء عام ومرن

يستطيع أن يستوعب مهاجرين جددًا كانوا يتنافسون على التجارة وعلى الأرباح وعلى الأراضي أيضًا، ولكنهم فضلًا عن هذه المنافسة كانوا يشعرون بما يربطهم معًا في مصالح مشتركة يمكن أن تشكل بها نظم حكم، وقد استطاعوا بالفعل إقامة هذه النظم التي صار بعضها ملكيات وبعضها جمهوريات، وكان الخيار في ذلك مرتبطًا إلى حد كبير بتنفيذ التقاليد المجاورة لها.

ومن خلال هذا التكوين ظهرت مؤسسات جديدة استطاعت أن تربط المجتمع وتضيق علامة مميزة للدلتا وهي مؤسسة «النظام المنزلي - House System»^(١)، ويعرف هذا النظام بأنه وحدة تجارية تعاونية ومؤسسة حكم محلي في الوقت نفسه. وكل «منزل» كان يحكمه تاجر قوى فرد وكل دولة سواء كانت ملكية أو غير ملكية تتكون من عدة «منازل»، ومن خلال هذا النظام المنزلي تأسس نظام قانوني جديد يشمل المهاجرين والمجموعات الإثنية المتعددة.

إن الفكرة الأساسية الكامنة وراء هذا النظام لم تعد من خارج الدلتا، إنها مفهوم إفريقي متميز عن العائلة الممتدة وهو الجماعة التي تتضمن عديدًا من الرجال والنساء والأطفال تشملهم رابطة دم واحد. ولكن نظام الدلتا ثما بهذه الفكرة ثمًا بعيدًا فصارت العضوية في «المنزل» تشمل ليس فقط العائلات الأسياد وأقاربهم، ولكنها تشمل أيضًا الخدم والعبيد مع درجات مختلفة لكل درجة منها أو طبقة واجباتها ومستولياتها وامتيازاتها وحقوقها.

ومع الوقت فإن الأصول المختلفة نسبت أو صارت منية واللغات المختلفة تداخلت والولاءات الإثنية تقطعت وكلهم امتزج في عادات وتقاليد جديدة، وكانت «المنازل» الأصغر تتراوح بين ألف عضو وثلاثة آلاف والمنازل الكبيرة تضم عدة آلاف.

كان أكفأ العبيد يستبقون لتزود بهم الزوارق المسلحة التي كانت تذهب إلى الهجمات والغزوات الباحثة عن العبيد المقتنصين ممن تحتاجهم التجارة مع أوروبا، ومع مضي الوقت فهؤلاء العبيد الذين لم يكونوا يباعون وإنما يرتبطون بعلاقات خاصة من

(١) المرجع السابق. The African Slave Trade P. 214.

الولاء مع سيد أو آخر صاروا تجاراً مهمين يتاجرون لحسابهم الخاص وأحياناً صاروا ملوكاً. وفي أوقات متأخرة استطاع العبيد الذين يعملون في مزارع هؤلاء الحكام أن ينظموا أنفسهم وواجهت هذه الحكومات الوراثة حالات ثورية لم يكن باستطاعتها أن تستوعبها، وقامت انتفاضات العبيد التي وضعت حداً لمذابح العبودية^(١).

أدت تجارة العبيد إلى طلب المزيد من الأسلحة، ثم زادت أهمية استيراد البنادق والمخيرة (الرصاص والبارود)، ليس بالضرورة؛ لأن الأسلحة النارية كانت أكثر فعالية من الناحية العسكرية من السيوف والخرايب التي تستخدم استخداماً جيداً، فقد كانت الأسلحة النارية في تلك الأوقات قصيرة المدى وفعاليتها غير مؤكدة، وإغنا هذه القيمة زادت باعتبارها علامة على الكفاءة العسكرية فصارت بذاتها قوة حربية رادعة بصرف النظر عن مدى فعاليتها في القتال، ثم مع مرور الزمن ازدادت كفاءة هذه الأسلحة.

إن تجارة الأطلنطي كانت تفتقد إمكانيات التطور لإفريقيا، وكانت محدودة في أشكال ضيقة من التبادل، وكان آخر ما يفكر فيه الأوروبيون هو أن يزدوا التطور التكنولوجي لدى شركائهم الإفريقيين، وإذا كانوا يصدرون البنادق لإفريقيا، فذلك لأن الأوروبيين كانوا مضطرين إلى ذلك ليحصلوا على ما يريدون ولكنهم لم يكونوا مهتمين قطعاً بتعليم الإفريقيين كيف يتجرون الأسلحة النارية أو كيف يستعملونها بكفاءة. إن العصر الجوهري في هذا التبادل كان هو التبادل بين البنادق والعبيد، ولم يكف الأوروبيون عن ذلك إلا عندما حددوا طلبهم بالنسبة للعبيد، أما الدول الإفريقية التي انغمست في هذا الشأن فقد وجدوا أنفسهم في النهاية محطمين فيما صنعتهم بهم تجارة الأطلنطي.

وعندما انخفضت هذه التجارة بعد سنة ١٨٣٠م كان الأوروبيون قادرين على تطوير اقتصادهم الخاص فتحولوا إلى نمط آخر من التجارة وإلى سلع إفريقية يمكن تصنيعها مثل زيت النخيل لسد احتياجات صناعات متعددة أبرزها الصابون، وكان التوسع في صادرات زيوت النخيل ازدهرت في الثلاثينيات من القرن الثامن عشر وغت عبر العقود بعد أن تطلبت توظيف كثير من الأيدي العاملة، ولم يكن يوجد سوق عمل

(١) المرجع السابق P. 215 The African Slave Trade

مأجور وبعبارة أخرى فإن البشر هناك استخدموا من خلال نظام العمل غير المأجور أى أنهم أصبحوا عبيداً محليين يستخدمون فى أعمال الفلاحة الداخلية بدلاً من أن يصدروا عبر البحار .

وفى هذه المرحلة كانت الفجوة التكنولوجية بين إفريقيا وأوروبا صارت واسعة جداً ، وتطورت الرأسمالية فى أوروبا فى اتجاه إمبريالية جديدة وصار الطلب الأوروبى ليس الحصول على الذهب أو العاج أو الفلفل أو العبيد أو زيت النخيل ، ولكن صار الطلب الأوروبى هو الاستيلاء على الأرض وتسخير الإفريقيين للعمل فيها وبدأت مرحلة الاستعمار .



الدور البلجيكي في الكونغو

كانت مملكة الكونغو القديمة تلك عبيداً، وكانت طبيعة العبودية في إفريقيا تختلف من منطقة لأخرى وتتغير من وقت لآخر. ولكن الغالبية من العبيد كانوا أساساً يؤسرون في الحروب، وآخرون متهم كانوا مجرمين أو مدانين أو كانوا يمتحون من عائلاتهم كجزء من تسوية مع الآخرين. ومثل أي نظام يعطى البشر سلطة مطلقة على الآخرين كانت العبودية في إفريقيا تصنع ذلك، وأن بعض أهالي وادي الكونغو كانوا يضجون بالعبيد في مناسبات خاصة مثل التصديق على معاهدات بين الرؤساء، وكان ثمة نوع من الموت البطيء للعبيد المعاقب بتكسير عظامه، وبعض العبيد كان يضحي بهم لمنح روح الميت للرئيس الميت ليغير بها في العالم الآخر.

إن التجارة في الكائنات البشرية كانت موجودة وأدت إلى كوارث بالنسبة لإفريقيا، وعلى الرغم من ذلك فإن العبودية في إفريقيا كانت أكثر مرونة من نظام الأوروبيين الذي أنشؤوه في العالم الجديد، فبعد جيل أو جيلين فإن العبيد في إفريقيا كثيراً ما يكسبون حرياتهم أو يؤمنون عليها. كما أن أناساً أحراراً كانوا يتزوجون بالعبيد.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن الأوروبيين وجدوا الرؤساء الإفريقيين مستعدين لبيع ما لا يحصى من شعونات المراكب من العبيد. وقد أتى مشترو العبيد أولاً في أعداد قليلة ثم تدفقوا في موجات عبر الأطلنطي. وفي سنة ١٥٠٠م بعد تسع سنوات فقط من وصول الأوروبيين الأوائل إلى «مبانزا كونغو - Mbanza Kongo» فإن حملة البرتغالية آتت وذهبت بالعبيد الإفريقيين إلى البرازيل في أمريكا الجنوبية، وبعد عقود قليلة من السنين صار العالم الغربي مليئاً بأسواق العبيد الأفارقة، وقد وضعوا في العمل بالملايين في مناجم البرازيل ومزارع البن، وكذلك في جزر الكاريبي عندما بدأت القوى الأوروبية تستخدم الأرض الخصبة لزراعة قصب السكر.

وصارت «ديوجو كاو - Diogo Cao» جنوب شاطئ نهر الكونغو مينا لتصدير العبيد، ومنها كان يشحن بالسفن نحو خمسة آلاف عبيد كل سنة يشحنون عبر الأطلنطي وذلك في الثلاثينيات من القرن السادس عشر (١٦٣٠م). وفي القرن التالي فإن خمسة عشر ألفاً من العبيد كانوا يصدرون كل عام من مملكة الكونغو. لقد ترك

شجار الأوروبيون سجلات دقيقة عن سرقاتهم ، ثمة سجلات
رأساً من العبيد مسجلة بأسمائهم ويعيرونهم الجسدية وبالقيمة
سجل بالرجل الأعلى سعراً وينتهي بالأطفال والذكور عبر
سين على وشك الموت إلى آخر القائحة .

وإن كثيراً من العبيد الذين شحنوا إلى الأمريكيات من ثغر هذا النهر الكبير قد أتوا
من مملكة الكونغو نفسها ، وكثيرون آخرون قد احتيدوا من قناصى العبيد الآخرين
الذين كانوا قد توغلوا في إفريقيا نحو ٧٠٠ ميل ، وكانوا يشترون العبيد من الرؤساء
محبيين وبربطونهم من رقابهم ويعطونهم القليل من الطعام ؛ ولأن القوافل كانت تسير
في موسم الجفاف فقد كانوا كثيراً ما يشربون الماء الراكد .

وكثير من هؤلاء كانوا يرسلون إلى البرازيل وهي الجزء الأقرب إلى العالم الجديد
إلى إفريقيا ثم يبدؤون الرحلة الطويلة للمستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية ،
وتقريباً فإنه من كل أربعة عبيد صدروا من الساحل الإفريقى كان واحد فقط هو من
يصل للعمل في مزارع القطن والدخان في جنوب أمريكا . وإن لغة الكيكونجو التى
يتحدث بها الناس حول نهر الكونغو كانت واحداً من الألسن الإفريقية التى توجد الآن
في الجزر الساحلية في كارولينا الجنوبية وجورجيا^(١) .

مبامبا أفونسو الأول

عندما بدأت تجارة الرقيق في الكونغو عبر الأطلنطي كان يحكم هذه المملكة
« Nzinga » الذى سمي « مبامبا أفونسو - Mbamba Affonso » تولى العرش سنة
١٥٠٠ م وحكم أربعين سنة باعتباره أفونسو الأول . وكانت حياة أفونسو فترة زمنية
مريحة في تاريخ هذه المملكة . عندما ولد لم يكن أحد في المملكة يعرف وجود
الأوربيين ، وعندما مات كانت المنطقة كلها مهددة بحملات بيع الرقيق ، كان رجلاً
مركزاً بعصماتهم على مملكته ، وبعد ٣٠٠ سنة كتب أحد المبشرين الأوربيين
سواء إن الرجل العادى من أهالى الكونغو يعرف أسماء ثلاثة ملوك الملك الحالى
سبب السابق وأفونسو .

King Leopold's Ghost - Adam Hochschild, Pan Books, Pan Macmillan Ltd, London 2002.

كان أفونسو رئيساً إقليمياً في بدايات الثلاثينيات من حياته عندما وصل البرتغاليون إلى أمبانزكونغو في سنة ١٤٩١م. وعندما تحول إلى المسيحية اتخذ اسم «أفونسو». كما كتب أحدهم إلى ملك البرتغال يقول له إن أفونسو «يعرف الأنبياء أكثر منا كما يعرف إنجيل مخلصنا يسوع المسيح وحياة القديسين وما يجب أن نعمله مع كنيسة الأم المقدسة، إذا رأيته جلالتم سندعش أنه يتكلم بشكل جيد وبطريقة تبدو لي دائماً كما لو أن الروح المقدسة تكلم على لسانه. . . سيدى الرئيس إنه لا يصنع شيئاً إلا أن يدرس وكثيراً ما غلبه النوم وهو يقرأ في كتبه، وكثيراً ما ينسى أن يأكل أو يشرب، لأنه يكون مستغرقاً في الحديث مع المخلص».

إنه من الصعب أن نعرف مدى ما في هذه الصورة المثالية التي وصفها القساوسة من الصدق ومن محاولة التأثير على ملك البرتغال ومدى تأثير أفونسو على القسيس، وبعبارة أخرى بما استخدم في العصور التالية فإن الملك أفونسو كان من الحداثيين، وكان ملحقاً في سعيه لنيل التعليم الأوروبي والأسلحة والبضائع الأوروبية ليقوى حكمه ويدعمه ضد قوى الشنكيك التي نتجت عن وصول الرجل الأبيض، وعندما شعر برغبة البرتغاليين في النحاس تاجر به مع الأوروبيين، وساعده في ذلك شراء ما تحتاجه أقاليمه. ومن الواضح أن رجلاً بهذا الذكاء غير المعتاد مثل «أفونسو» قد حاول أن يصنع الأشياء الصعبة وهو أن يكون عصرياً، لقد كان متحمساً للكنيسة وللكتابة المكتوبة وللدواء الأوروبي وللمهارات المستوردة التي يتعلمونها من الحرفيين البرتغاليين. ولكن عندما أرسل إليه ملك لشبونة رسولاً يطلب إليه تبني القوانين البرتغالية ونظام البلاط البرتغالي لم يكن «أفونسو» مهتماً بذلك، وقد كان حذراً من الأوروبيين الذين ينقبون في الأرض ليعرفوا ما في بلاده من ذهب وفضة^(١).

ولأن كل ما نعرفه عن هذا القسم من إفريقيا على مدى القرون التالية أتى إلينا عن طريق الغزاة البيض، فإن الملك أفونسو الأول يقدم شيئاً نادراً وقيماً باعتباره صوتاً إفريقيّاً، وفي الحقيقة، فإنه واحد من الأصوات الإفريقية القليلة جداً التي سمعناها عما قبل القرن العشرين. وقد استخدم فصاحته في اللغة البرتغالية ليحلى سلسلة من

(١) المرجع السابق، King Leopold's Ghost، P 12.

الوثائق الأولى المعروفة كتبها هذا الملك الإفريقي الأسود بلغة أوروبية حديثة، وعشرات أخرى من الرسائل موقعة منه كانت لهجة فيها لهجة ملك يوجه حديثه إلى ملك آخر وتبدأ عادة «يا أخى الملك الأمير فاتى القوة والسمو»، ولكننا لا نجد بعد ذلك ملكاً يتكلم دائماً نرى آدمياً مشوهاً ومفزوعاً من رقيته أبناء شعبه يساقون بأعداد غفيرة إلى سفن العبيد.

إن أفونسو لم يكن ممن ألغوا العبودية وكان مثل أغلب الحكام الإفريقيين فى وقته وفيما تلا من عهود يملك عبيداً، وقد أرسل الهدايا إلى أخيه ملك لشبونة من الجلود والنحاس وغيرها، ولكن مثل هذه الهدايا التى ترسل بين الملوك كانت شيئاً مختلفاً لدى أفونسو عن استرقاق عشرات الألوف من رعاياه الأحرار وأخذهم فى السلاسل عبر البحار. استمع إليه وهو يكتب إلى ملك البرتغال جوا الثالث سنة ١٥٢٦م يقول «فى كل يوم يختطف التجار من شعبى الأطفال والأبناء وأبناء نبلائنا وحتى أناساً من عائلاتنا، إن هذا الفساد والاستنزاف صار ضائعاً ومنتشراً حتى أن أراضينا تكاد تخلو من السكان، نحن نريد فى مملكتنا فقط التساوسة والأطباء ومدرسى المدارس ولا نريد تجار، رغبتنا ألا تكون هذه البلاد مكاناً لتجارة العبيد وكنيم بالحديد المحمى وأخذهم أسرى للبيع»^(١).

عندما كان أفونسو يتوصل إلى ملك البرتغال ليرسل إليه المعلمين والأطباء والصيادلة سداً من التجار والنحاسين كان يعرف أن استنزاف الثروات الطبيعية تهدد سلطته، وتكن ملوك البرتغال لم يظهروا تعاطفاً معه، رد عليه الملك «جوا الثالث - Guedes» «إنك تريد ألا تجرى تجارة الرقيق فى بلادك لأنها تجرد بلدك من السكان وأن البرتغاليين على العكس يقولون لى إن الكونغو كبيرة جداً وإنها مكدسة بالسكان وتبدو كما لو أن عبداً واحداً لم يؤخذ منها». وكان أفونسو يرسل إليه مؤكداً على ما يطلبه ويشكو من سوء مستوى المدرسين الذين ترسلهم البرتغال ويقول لملك البرتغال «إن المسيح يعاد صلبه إن عندنا» كان أفونسو يرسل استغاثاته المتعددة لمنع تجارة الرقيق إلى بابا روما، ولكن البرتغاليين كانوا يعتقلون رسله فور نزولهم من السفن إلى الساحل فى لشبونة، وقد مع يأس أفونسو مداه عام ١٥٣٩م فى نهاية حياته عندما عرف أن عشرة من أولاد

إخوته ومن أحفاده ومن أقاربه الذين أرسلوا إلى البرتغال ليتلقوا تعليمهم الديني كانوا قد اختشوا في الطريق . وكتب يقول : «نحن لا نعرف إن كانوا قد ماتوا أو أنهم على قيد الحياة ، ولا نعرف كيف ماتوا ولا عما الذي نقوله لأبائهم وأمهاتهم» . ويمكننا أن نتصور فرع الملك أفونسو وهو يجد نفسه غير قادر على تأمين سلامة أعضاء أسرته . إن النحاسين البرتغاليين والتباطئة على طول طريق عودتهم إلى أوروبا كانوا يذهبون إلى البرازيل يبيعون العبيد بعد أن عرفوا طريقهم لبيع العبيد هناك .

إن كراهية الملك أفونسو لتجارة العبيد عبر البحار وعمله ضدها قد أكسبته عداوة بعض التجار البرتغاليين الذين يحيون في عاصمته ، إن ثمانية منهم حاولوا قتله في الاحتفال بعيد القيامة يوم أحد من عام ١٥٤٠م ، وقد حرب بعد أن أصابت رصاصة ثوبه وقتل أحد المذبذبة وجرح اثنان في هذا الحادث .

وبعد وفاة أفونسو تدهورت بالتدريج قوة دولة الكونغو وتقاسمها رؤساء القرى في الأقاليم المختلفة وبعضهم صار ثرياً بما باع من العبيد . وبعد انتهاء القرن السادس عشر اشتركت بلاد أوروبية أخرى في تجارة العبيد مثل بريطانيا وفرنسا وهولندا ، وكانت مواكبهم تجوب الشاطئ الإفريقي بحثاً عن الشحانات البشرية . وفي عام ١٦٦٥م فإن جيش مملكة الكونغو الضعيف خاض معركة مع البرتغاليين وانهمزم وسيطر المستعمرون الأوروبيون على هذه الأراضي مع أواخر القرن التاسع عشر^(١) .



أرض الموت

أكدت تجارة العبيد عبر الأطلنطي أن الأوروبيين كانوا قد أتوا من أرض الموت لأنهم بعد أن يأخذوا حمولة مراكبهم من العبيد إلى البحر فإن الأسرى لا يعودون أبداً . وكما أن الأوروبيين كان يفزعهم ما كان يقال عن الإفريقيين من أنهم أكلة لحوم البشر كان الإفريقيون يتصورون الأوروبيين أنهم يمارسون الشيء ذاته ، وكان يظن أن البيض يأخذون أسراهم ويحولون أجسامهم إلى لحم مملح وأعضاءهم إلى جبن ودماءهم إلى تبيد أحمر يشربه الأوروبيون . وكان الإفريقيون يعتقدون أن هذه الأفران النحاسية الضخمة والتدوير النحاسية الكبيرة التي يرونها على السفن كانوا يتصورون أنها تقوم

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 15.

عنده المتهام . ويظهر ذلك من أن كثيراً من العبيد كانوا يرفضون أكل الطعام الذى يقدم
لهم معتقدين أن هذا الطعام هو من لحوم الأفارقة الذين أعتقوا من قبل وأبحر بهم فى
وقت سابق .

ومع تعاقب السنين ظهرت أساطير تفسر المقاصد الأسطورية يأتى بها الغرباء من
ضى الموت . بعض المبشرين قالوا إن الإفريقيين عندما كانوا يرون القباطنة ينزلون إلى
قاع سفنهم للفتيش عن السلع والبضائع مثل الملابس وغيرها كان الإفريقيون يعتقدون
- هذه البضائع وغيرها لا تأتى من السفينة ، ولكنها تأتى من فجوة تصل إلى المحيط ،
ويقول أحدهم عندما نحتاج إلى ملابس نجد الثبطان ينزل إلى هذه الفجوة ويدق جرساً
فيأتى إليه من البحر من ينسجون الملابس ويعطونها له ، وأن أرواح البحر هى التى
تسمنها له ، وهو بعد ذلك يقدف ببعض أجساد الموتى من السود ثمناً لما استلمه .

وهذه الأسطورة ليست بعيدة عن الواقع فإن العبيد عندما كانوا يذهبون إلى
أمريكا كانوا يعملون حتى الموت فى زراعة القطن الذى يصير بعد ذلك غزلاً ينسج
وتصنع منه الملابس^(١) .



جرائم البلجيكيك

كانت الغاية المطيرة المتاخمة لنهر «كاساي - Kasai» بالكونغو غنية بالمعاط ، وقد
وجد المبشر شبرد نفسه وسط مشكلة ، فقد كانت كاساي مسرحاً لمقاومة إفريقية شديدة
حكم ليوبولد ، وثار الرجال المسلحون فى المنطقة كلها التى كان يعمل بها شبرد
وأعملوا النهب والحرق فى أكثر من اثنتى عشرة قرية ، وأدى هذا لتكاثر اللاجئين الذين
يتنكبون المأوى لدى بعثة شبرد .

وفى سنة ١٨٩٩ م كلف شبرد من رؤسائه بأن يذهب يتحرى أسباب الصراع ،
وهناك وجد دماء مهددة وفرى مخربة وجثثاً ملقاة والهواء معبأ برائحة الأجساد
تسدة ، وعندما وصل إلى معسكر الأسلاب لقيت عيناه أعداداً كبيرة من الأشياء
سعث منها الدخان ، وفى أماكن حرق الأخشاب وجد أيدي مقطوعة أحصى منها

^(١) المرجع السابق . P 16. King Leopold's Ghost.

وقتها واحداً وثمانين يداً يعني ، وقال القائد الذي يقود شيرد انظر هذا دليلنا لقد اعتدت دائماً أن أقطع اليد اليمنى لمن أقتلهم لأرى الدولة كم عدد من قتلنا ، وبمخبر شديد عرض على شيرد بعض الأجسام والجثث التي قطعت منها الأيدي ، وكان الدخان قد يجفف الأيدي ويحفظها في ذلك الجو الحار الرطب ، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع قبل أن يستطيع القائد أن يعرضها على الموظفين البلجيكي ليأخذ جائزته على ذلك .

اضطرب «شيرد» بسبب الأشياء المروعة في نظام المطاط الذي وضعه ليوبولد ، وكان قطع الأيدي سياسة متبعة اعترف بها كبار الموظفين فيما بعد . ذكر شارلز نوليمير بعد خروجه من الخدمة أنه خلال مدة عمله في الكونغو باعتبارها الحاكم الإقليمي والمندوب الأول في المنطقة الاستوائية أنه كان يبلغ حكومته أنه لكي يجمع المطاط كان يتعين قطع الأيدي والأنوف والأذان .

وكان المتبع إذا رفضت قرية الاستسلام لنظام المطاط فإن قوات الدولة أو قوات الشركة أو حلفاءهم يطلقون النار على كل من يروونه وبذلك فإن القرى المجاورة كلها تتلقى الرسالة .

وقد وصف أحد المراقبين وهو «جون هاريس» هذا المنظر : «كان هناك نحو ٤٠ من أبناء قرية يمسك كل واحد منهم بسلة مملوءة بالمطاط بالكمية المطلوبة من كل منهم وظهر أن ثمة أربع سلال كان المطاط فيها أقل من المطلوب وعلى الفور ظهر أربعة من الحراس الزبانية ومعهم الأسواط وأخذوا يضربونهم ، وكانت الأسواط تترق أجسامهم وأكتافهم وعيناً يحاول الضحايا الإفلات من هذا العذاب . ومنظر آخر عندما كنا أنهينا طعام الإفطار ونحن في شرفة البيت وجدنا أياً إفريقيًا يندفع إلى الشرفة ومعه يد ابنته الصغيرة وقدمها ولم يكن عمرها يجاوز خمس سنوات»^(١) .

لم يكن شيرد هو الشاهد الأجنبي الأول الذي رأى الأيدي المقطوعة في الكونغو ولا كان آخر الشهود ، ولكن المقالات التي كتبها في المجلات التبشيرية عن فزعه من هذا الأمر أعيد طبعها ونقلت فقرات منها مما حقق لها سعة انتشار كبير في أوروبا والولايات المتحدة . وبعد نحو ست سنوات من اكتشاف «شيرد» هذا الأمر فإن الزعيم الاشتراكي

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 216-217

بجبل فاندر فيلد - Emile Vander Velde « هاجم المشروعات العامة التي آتفق عليها
بيولد إنفاقاً ضخماً جداً من أرباح الكونغو ، وقال في البرلمان البلجيكي إن أقواس
شركة التذكارية ستسمى يوماً ما بأنها أقواس الأيدي المقطوعة »^(١).

ويحكى أن قسيساً كاثوليكياً كان يسجل التاريخ الشفهي لمملكة الكونغو سجل ما
هكذا رجل إفريقي اسمه سوامبي عن مدى كراهيته للموظفين الرسميين ومنهم «ليون
فيليز - Leon Fievez» الذين أزهبوا الإقليم كله على طول النهر الذي يبلغ ٣٠٠ ميل
من ستانلي بول ، قال «إن كل السود يرون هذا الرجل باعتباره شيطان المنطقة
التي أتت من كثرة الأجسام التي كان يقتلها وكان يقطع أيديهم وكان يريد أن يري
معد الأيدي المقطوعة بواسطة جنوده وكانت توضع الأيدي في السلال ، وأن القرية
من كانت ترفض أن تعطى لهم المطاط كانت تزال تماماً ، وقد رأيت جندياً من جنود
«لدي فيشير اسمه «موليلي - Molili» كان يحرس قرية «بويكا - Boweka» أتى بشبكة
سيرة ووضع فيها عشرة من الأهالي المأسورين وربط بها أحجاراً ضخمة ، ثم ألقيها
في النهر ، إننا لم نعد نحب أن نسمع كلمة المطاط ، إن الجنود يقتلون الرجال
شباب ويغتصبون الأمهات والأخوات».

وإن من خلف القائد فيشير في وظيفته سنة ١٨٩٤م سجل عن نفسه ما وصف به
سنة عندما كانت القرى المحاصرة لا تمد قواته بما تطلبه يقول «كنت أشن الحرب عليهم
كذلك مثل واحد يكفي ، نقطع رأس مائة من الأهالي ثم نجد بعد ذلك الخير الوفير ، إن
بشيء كان هدفاً إنسانياً فقد قتل مائة من البشر ولكن هذا الصنيع أمكن به أن يبقى
حياة شخص على قيد الحياة من جنودي»^(٢).



نقطة

أضاف ازدهار المطاط في الكونغو إلحاحاً إلى أعمال المرافق الأساسية والمنشآت
الأساسية وأهمها كان وقتها مد سكك حديد من متادي إلى ستانلي بول حول
محطات الكبرى . وهذا المشروع تطلب نحو ستة آلاف عامل في وقت واحد ، ورغم

(١) المرجع السابق P 164 - 165 King Leopold's Ghost.

(٢) المرجع السابق P 166 King Leopold's Ghost.

أن الخط كان طوله يبلغ ٢٤١ ميلاً فقط وهو أكثر قليلاً من نصف خط السكة الحديد الأمريكية، فإن ظروف الجو والمرض جعله أكثر المشروعات ترويعاً في تاريخ إنشاء مشروعات السكك الحديدية. لقد استغرق بناء الأربعة عشر ميلاً الأولى منه ثلاث سنوات؛ لأن الأرض كانت حجرية كما تطلب الطريق ٩٩ جسراً حديدياً يبلغ طولها الإجمالي نحو عشرين ميلاً^(١).

كان العمال يجمعون ولا يعرفون أين هم ذاهبون بل تعلق في رقبة كل منهم بطاقة عليها اسمه واسم سيده الذي يذهب للعمل عنده ومكانه، ويرسل العمال كالتطيع إلى محطة السكك الحديدية، حيث يرحلون، وفي محطة الوصول يقرأ ناظر المحطة البطاقات المعلقة بالرقاب ويتصل بمركز البوليس لامتثالهم وهذا يتصل بأسيادهم لامتثالهم، وكانوا أحياناً يسرون على الأقدام مسافات قد تزيد على الثلاثين ميلاً ليصلوا إلى أسيادهم البيض^(٢).

لقد كان خط السكة الحديد نجاحاً هندسياً متواضعاً، ولكنه كان كارثة بشرية عظيمة. لقد عانى الرجال من الحوادث ومن أمراض الدوسنتاريا والجدرى والبري بري والمalaria، وكلها أتت من سوء الطعام والجلد بغير رحمة الذي كان يمارسه قوات ميليشيا السكة الحديد ويبلغ عددهم ٢٠٠ جندي. كانت الآلات تجري على قضبان وشحنات العربات المملوءة بالديناميت المشحون تضرب في طريقها العمال سوداً وبيضاً، وأحياناً لم يكن هناك مأوى للعمال ينامون فيه وبعضهم كان يعمل وهو مقيد بالسلاسل. كان المهندسون والملاحظون الأوروبيون ينتهون عقودهم ويعودون إلى بلادهم، ولكن العمال السود لم يكن ينح لهم ذلك. وكثيراً ما كانوا في الصباح يرمون جثث من مات في المساء، وقد راج وقتها في إفريقيا وغيرها أسطورة محلية تقول إنه بالنسبة لخط السكة الحديد فإن ربط كل فلنك من السكة الحديد كان يكلف إفريقيا واحداً حياته، وكل واحد من أعمدة التلغراف من السكة الحديد كان يكلف أوروبياً حياته، وحتى بالنسبة للأرقام الرسمية للورديات فإن السكة الحديد كلفت حياة ١٣٢ من البيض و ١٨٠٠ من الإفريقيين. وبعض التقديرات قدرت المتوفين من غير

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost, P 170

(٢) قصايا إفريقية - د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٤ - ١٠٢

مبتس ينحو ١٨٠٠ في السنة الواحدة عن المستين الأولين وهي كانت أسوأ سنوات
نسكة الحديد، وكانت المقابر توجد على طول الطريق^(١).

وباستثناء من كانت الدولة توظفهم في مشاريعها مثل نسكة الحديد فإن ليوبولد كان
حقاً من الأجانب في الكونغو، وبالنسبة لبعثات التبشير البروتستانتية فإنها أتت بمئات
المبشرين مثل ويليام شبرد وأصحابه أتى أغلبهم من إنجلترا والولايات المتحدة
سريد، وهي البلاد التي كان يأمل ليوبولد في كسب تعاطفهم. وذهب المبشرون إلى
برغو متحمسين لدعوة التبشير ولقاومة تعدد الزوجات ليشجعوا بين الإفريقيين
معيير بالخطيئة.

وعلى أي حال فلم يمض وقت طويل حتى كان الرعب المطاطي يثير صعوبات كثيرة
نسبة للمبشرين الذين يبحثون عن الأبدان ليغطوها بالملائس وعن الأرواح
محمورها. إن القرويين المرعوبين كانوا يختفون في الأدغال لأسابيع عندما يرون
حمار البواخر يادياً في الأفق، ويذكر أحد المبشرين الإنجليز أن الإفريقيين كانوا
يوجهون إليه هذا السؤال: هل المخلص الذي تحدثنا عنه لديه من القدرة أن يحفظنا من
سحر المطاط؟. وقد سجل لهم أغنية كونغولية تقول:

نحن سرهقون من العيش في هذا الطغيان، نحن لا نحتمل أن يؤخذ منا نساؤنا
عفالنا وتعامل مع الوحوش البيض. . . سنحارب ونعرف أننا سنموت ولكننا نريد
موتاً^(٢).



^(١) مرجع السابق P 171 King Leopold's Ghost.

^(٢) مرجع السابق P 172 King Leopold's Ghost.

فقدان البشر

كان عدد القتلى في الكونغو مما يصدق عليه أنه قتل جماعي ، إلا أنه لم يكن مثلاً بدافع يتعلق بإقناء قبيلة أو عرق معين ، ولكنه كان من أجل الاستعمار الرأسمالي الأوروبي . وإن فقدان البشر كان يعود إلى عدد من الأسباب أحدها أو بعضها أو كلها وهي القتل والجوع والإرهاق والمرض ومعدلات المواليد . وفي أسوأ فترات الكونغو فترة المطاط كان نقص السكان يرد من تلك الأسباب الأربعة الآتية :

أولاً: القتل ، رغم أن القتل الصريح لم يكن هو السبب الرئيس للموت في كونغو ليوبولد إلا أن هذا النوع كان قائماً عندما تفشل قرية ما أو إقليم ما في أن يسلم حصته من المطاط أو عندما كان ينهض ضد النظام فإن وجود السلطة أو رجال الشركة المطاط كثيراً ما كانوا يقتلون كل ما كانوا يصادفون وقتها . في سنة ١٨٩٦م نشرت صحيفة ألمانية ما نقلته عن مسئول بلجيكي رفيع المستوى أن ١٣٠٨ من الأيدي المفقودة في الإقليم الذي كان يشع الحاكم ليون فيشير سلمت له في يوم واحد ، وقد ذكرت الصحيفة هذه القصة مرتين دون تكذيب من حكومة الكونغو البلجيكية . وثمة تقارير مشابهة عن أحداث تلك الأيام جاء بعضها من بعثات التبشير البروتستانتية أو الكاثوليكية ووردت فيها أرقام أكثر كثيراً .

وفي سنة ١٨٩٩م حكى أحد الضباط «سيمون رواء» ما سجله مبشر في يومياته أن كل يوم كان يسلم الحصة المطلوبة من المطاط أو يسلم الأيدي المقطوعة وأنه خلال ستة أشهر سلم لهم ستة آلاف يد مقابل ستة آلاف قتل .

وإن حملات الشايب ضد تمرد قبيلة «البودجا - Budja» أسفرت عن مقتل ١٣٠٠ من البودجا وظهرت أخبار ذلك في صحافة بلجيكا عام ١٩٠٠م ، وقد نهضت تمردات أخرى كثيرة في العقد التالي تبلغ العشرات . وذكر أحد المبشرين السويديين «لقد رأيت جثث الموتى طافية على سطح البحيرة مقطوعة اليد اليمنى ، وقص لي ضابط سبب قتلهم قال إنه المطاط ، وفي مكان آخر وجدت جثثاً معلقة على شاطئ البحيرة ، وقال لي إن هذا قليل لقد عدت من القتال من أيام معدودة وشاهدت ١٦٠ من الأيدي يقذف بها في النهر» .

ثانياً: الجوع والإرهاق، انتشرت أخبار الإرهاب وفزع مئات الآلاف من البشر تاركين قراهم، وفي المقابل كان الجنود كثيراً ما يأخذون ماشية هؤلاء ويحرقون كواحلهم ومحاصيلهم ويتركونهم بغير طعام. وهذا النوع من التعامل كان موجوداً وقائماً من قبل مرحلة المطاط عندما كان جنود ليوبولد يبحثون في الأساس عن العلاج وعن الطعام لأنفسهم، وقد وصف أحد الضباط السويديين حملة من هذا النوع جرت في سنة ١٨٩٥م في الكونغو أنهم عندما اقتربوا من القرية فإن الأهالي أخذوا على غرة وجمعوا ما استطاعوا من حاجاتهم وفروا بعيداً، وقال إنه قيل أن يغادر المكان كانت غيرة قد نهبت، وشمل ذلك أعداداً كبيرة من الماعز والدواجن وغيرها، وبعدها تركوا القرية وذهبوا إلى مكان مريح يستظلون فيه.

وقد بلغ الأمر مداه في هروب الأهالي من هذه الغزوات أن القرويين كانوا أحياناً ما يكتمون أصوات أطفالهم وأنفاسهم لئلا يعرف الغزاة أماكن اختبائهم، وقد مات بعض الأطفال جوعاً من هذا الصنيع. وأن نسبة صغيرة من الأهالي كانت محظوظة لأنهم كتبوا يعيشون عند حدود الكونغو فهربوا من البلاد. وقدّر أحد الحكام الاستعماريين فرنسيين من فروا إلى الأراضي الفرنسية (كونغو برزاقيل) بنحو ٣٠ ألفاً من الأهالي، وبعض فر إلى المستعمرات الإنجليزية قرب حدود روديسيا الشمالية (زامبيا). وكثير من الأهالي توغلوا في الأدغال وقطعوا مسافات تبلغ ٧٥ ميلاً، وقدّر البعض أعدادهم بنحو ٤٠ ألفاً على الأقل. وقد ذكر أحد الرحالة الإنجليز يسمى إيوارت، س. جروجان أنه في مسيرته في إفريقيا صدم عندما رأى أن نحو ثلاثة آلاف ميل مربع خالية من السكان ومدمرة، كل قرية فيها حُرقت وكلها كانت هياكل متساقطة.

إن الجوع قهر الريفيين الذين لم يلتجئوا إلى الغابات؛ لأنهم إذا كانوا قرب مناطق مطاط فقد كان عليهم أن يسلموا الجنود المحوم والأسماك والموز، وفي قرية بومبا على سيرة المثال كان هناك نحو ١٠٠ أسرة يجب عليها أن تسلم ١٥ كيلو من الخضراوات وخمسة خنازير وخمسين من الدواجن.

إن آلافاً من الأهالي منهم النساء والأطفال والصبية ماتوا وألقاهم الجنود في عسكريات التجميع القذرة وهم مقيدون بالسلاسل.

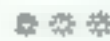
ثالثاً: المرض، وكما حدث في هنود أمريكا قتل الممرض من الكونغوليين أضعاف ما قتل الرصاص، إن الأوروبيين وتجار الرقيق جلبوا إلى داخل الكونغو العديد من الأمراض التي لم تكن معروفة من قبل. لم يكن الأهالي المحليون لديهم المناعة ولم يستطيعوا أن يكتسبوا المناعة التي تحصنهم من الأمراض الجديدة وتفشيت الملائيا على سبيل المثال وانتشرت سريعاً الأمراض الجديدة والقديمة؛ لأن أعداداً هائلة من الكونغوليين أجبروا على الترحال لمسافات طويلة وهم يعملون كحمالين أو عمال في السفن التجارية (كان الزورق الكبير يتطلب من ٢٠ إلى ٦٠ من الحمالين)، وكان من أخطر الأمراض التي انتشرت الجدري ومرض النوم.

وقد كان الجدري وياه في مناطق من الساحل الإفريقي لعدة قرون ولكن حركات الترحال الراسعة للأهالي في الفترة الإمبريالية نشرت المرض في المناطق الداخلية وتركت القرى مليئة بجثث الموتى. وكان الأفارقة يسمونه مرض السماء أو المرض الآتى من الأعلى لأنهم لا يعرفون سبب انتشاره. أما مرض النوم فقد انتشر في مناطق الأنهار ويقدر من مات منه من الكونغوليين بنحو نصف مليون في عام ١٩٠١ م وحده.

رابعاً: نقص نسبة المواليد، نيس مفاجأة أن الرجال الذين أرسلوا إلى الغابة للبحث عن المطاط وأن النساء بقوا في أكواخهم نصف جوعى، ليس مفاجأة أن يكون ذلك سبباً لقلّة النسل. وأن أحد المبشرين الكاثوليك الذين عملوا سنين في إقليم بحيرة «ماي ندومبي» - Mar Ndombe، وهي منطقة من أهم مناطق المطاط وقتها لاحظ هذا الأمر، وعندما وصل إلى هذه المنطقة عام ١٩١٠م أدهشه أنه لم يجد أطفالاً على الإطلاق بين سن ٧ سنوات و ١٤ سنة رغم وجود الكثيرين من غير هذه السن، وهذا يشير إلى المدة من سنة ١٨٩٦ - ١٩٠٣ م وهي المدة التي كانت شركة المطاط في ذروة نشاطها في هذه المنطقة، حيث انخفض السكان بنسبة ٦٠٪ تقريباً، وقد صارت نسبة المواليد في أسوأ حالاتها وأن النساء يرفضن حمل الأطفال ويتخذن من الوسائل ما يمنع الحمل، ويقلن سبباً لذلك إنه إذا أتت الحروب وامرأة حامل أو أم تحمل طفلاً فإنها لن تستطيع الجرى فراراً من الجتود. إن جزءاً من نقص السكان وفقدانهم في الكونغو نتج عن الرعب الذي عانت منه الأسر فتوقفوا عن الإنجاب^(١).

(١) المرجع السابق King Leopold's Ghost P. 225

وأخيراً . . . لقد قدمت الكونغو مثلاً نادراً في سياسات النسيان، وأن الملك ليوبولد والموظفين الاستعماريين البلجيكيك مسحوا كل ما يتعلق بأدلة تثبت ما ارتكبهوه من جرائم في تلك المنطقة. ففى أحد أيام أغسطس ١٩٠٨ م قبيل تسليم المستعمرة رسمياً بحكومة البلجيكية قام موظفو الملك بإشعال النار فى أرشيفات الدولة وبقيت النار مشتعلة ثمانية أيام، مما جعل من أيام الصيف الحار قبضاً شديداً أحس به من كان على مقربة من المنطقة. وعندما تجمع الناس وسألوا عن ذلك قال لهم الحاجب أسف إننا نحرق أرشيفات الدولة، وتحولت كل سجلات الدولة عن الكونغو إلى رماد ودخان، وقال ليوبولد سأعطيهم الكونغو الخاص بهم ولكن ليس لهم أى حق فى أن يعرفوا ما بذى صنعه^(١).



١١ المرجع السابق Pl. 294 King Leopold's Ghost



الفصل الثالث

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير،

السودان الغربى والأوسط والشرقى

أولاً - السودان الغربى والأوسط

- قرن الصحوة والحروب

ثانياً - السودان الشرقى، سودان وادى النيل

- الممالك القديمة

- السودان الموحد

- رقيق الثورة المهدية

- رقيق الحكم الثمانى

- الأوضاع تختلف

وسط إفريقيا «السودان الكبير»

التعريف بالسودان الكبير

يُعرف وسط إفريقيا بالسودان الكبير أي السودان الغربي والأوسط والشرقي، وهو المنطقة المسيحية الممتدة من المحيط الأطلنطي في الغرب حتى السودان وادي النيل في الشرق، وبين المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية في الشمال إلى نطاق الغابات الاستوائية في الجنوب.

وصفه المؤرخ العربي علي أبو الحسن المسعودي في كتابه «مروج الذهب»: السودان بلاد كثيرة وأراض واسعة ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى أثيوبيا وغربها البحر المحيط (يقصد المحيط الأطلنطي). ومصطلح السود مأخوذ من لون بشرة سكان المنطقة بمائلها كلغة أثيوبيا التي تعني الوجه المحروق.

وحدده الرحالة عمر النونسي بشكل أدق: أقاليم السودان من المشرق إلى المغرب عشر ممالك: مملكة سنار تليها كردفان، ودارفور، ووداي، والباجرمي، وبننو، وأوقز، ونقه، وإسنيكتو، ومالي وهي العاشرة. ومن يأتي من الغرب تكون مملكة مالي هي الأولى.

وعرفه الجغرافيون العرب في العصور الوسطى باسم سودان الساقانا، وإذا أضفنا السودان وادي النيل إلى هذه المنطقة النسيحة، فإتينا نجد لفظ السودان يمتد في حزام من سحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً، وهي تشمل ثلاث مناطق الجزء الغربي والأوسط والشرقي وهو محور هذا الفصل.

أولاً: السودان الغربي والأوسط

● **السودان الغربي** : قامت في السودان الغربي ممالك ثلاث هي مملكة غانة القديمة وسلطنة مالي وسلطنة الصنفي ، وهذه الممالك كانت إمبراطوريات وسلطنات كبيرة بدأت من القرن الثالث والرابع الميلادي وبلغت أوج ازدهارها بعد أن دخلها الإسلام ، واستمرت حتى القرن التاسع عشر حين صرعتها الاستعمار الأوروبي .

(أ) **أولى هذه الممالك مملكة غانة** (وهي ليست غانا الحالية التي تقع في أقصى جنوب غرب إفريقيا) إنما هي المنطقة النسيحة التي تقع بين منحنى نهر النيجر ونهر السنغال وتضرب حدودها حتى جنوب موريتانيا الحالية ، وكانت متسعة النفوذ والسلطان وخضع لها معظم مناطق السودان الغربي . نشأت في الفترة ما بين القرن الثالث والرابع الميلادي ، وأخذت تتسع حتى استهل القرن الحادي عشر عندما غزاها المراكشيون .

اعتمدت غانة على التجارة كمصدر رئيسي في اقتصادها خاصة الذهب حتى صارت تعرف بأرض الذهب وأصبح ملوكها من أغنى ملوك الأرض ، وكانوا يتحكمون في الطرق التجارية ، فموقع غانة جعلها حلقة اتصال بين شمال القارة وغربها ، أدى رواج التجارة إلى أن أصبحت عاصمتها كومي من أكبر أسواق بلاد السودان وتسرب إليها الإسلام من شمالها .

في بداية القرن الثامن الميلادي امتدت الفتوحات الإسلامية عبر إفريقيا شمال الصحراء ، وفي نهايته كانت القوافل التجارية الآتية من الشمال تعبر الصحراء بانتظام للتجار مع إفريقيا السوداء ، وفي القرن الحادي عشر وبالتحديد في عام ١٠٦٢م غزا غانة المرابطون القادمون من مراكش وقد ووجهوا بمقاومة شرسة ولم ينجحوا في إخضاعها إلا عام ١٠٧٢م حين احتلوا عاصمتها ^(١) .

وقد وصفها الجغرافي الإدريسي أكبر مؤرخي الحوليات في العصور الوسطى (عاش ١١٠٠ - ١١٦٥م) بأنها «الدولة الكبرى في أرض السودان والأكثر كثافة في التجارة ، ومع ذلك لم تكن المملكة بحالة طيبة والزراعة حول العاصمة لم تعد منتعشة

(١) Islam's Black Slaves: Ronald Segal; Atlantis Books; London; 2001; P 84.

بعد التدمير الذي أحدثه يدو المايبيين . إن حقول الذهب في «بامبوك - Bambuk» التي تقع بين نهر السنغال ونهر القاليم جرفت من جراء الاستغلال عبر القرون ، وكذلك مناجم «بيور - Bur» في أعالي نهر النيجر .

(ب) **سلطنة مالي الإسلامية** : تقع بين بلاد يرتو في الشرق والمحيط الأطلنطي غرباً وجبال البربر شمالاً وفوتاجالون جنوباً ، وقامت على أنقاض دولة غانة ، وتعد هذه السلطنة من أعظم ممالك السودان الإسلامية قدرت مساحتها بما يزيد على نصف مساحة أوروبا كلها ، واشتملت على خمسة أقاليم في ذروة قوتها وازدهارها ، وهذه الأقاليم هي مالي يتوسط أقاليم السلطنة وصوصو تقع إني الجنوب من مالي وغانة وتقع شمال مالي وتمتد إلى المحيط الأطلنطي ، وكوكو تقع شرق إقليم مالي وتكرور تقع غرب مالي حول نهر السنغال^(١) .

احتلت سلطنة مالي في القرن الثالث عشر الميلادي مكانة إمبراطورية غانة كأعظم دولة حكمت في السودان الغربي ، وبدأ التجار من شمال إفريقيا يتجهون إليها بكثرة ، زارها ابن بطوطة في عهد ملكها منسى موسى وتكلم عن حركة انتقال التجار والرحالة الأمانة والميسرة في هذه البلاد وعن ازدهار الزراعة والتجارة وعن انتشار العدالة في البلاد . ويعد منسى موسى من أعظم ملوك مالي ، وقد زار القاهرة مرة وهو في طريقه إلى الحج وأنفق فيها ذهباً كثيراً أدى إلى هبوط قيمة الذهب وقتها ، وتجاوزت شهرته بلاد المسلمين إلى العالم المسيحي . وفي بداية القرن الخامس عشر أخذت مالي في الأفول وسقطت على يد ملوك سنغني .

(ج) **سلطنة السنغني** : بدأت دويلة صغيرة على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، ثم توسعت وابتلعت أقاليم مالي وامتدت حتى السودان الأوسط إلى إمارات الهوسا (الحوصة) وشملت أقاليم المساقانا الممتدة من الغرب إلى الشرق وسيطرت على مناجم الذهب والملح أهم تجارتي في غرب إفريقيا ، وصارت الدولة الأكبر في المنطقة وصلت شمالاً إلى مراکش وإلى نهر جامبيا على شاطئ الأطلنطي ، وفي الشرق إلى برنو عند بحيرة تشاد .

● **السودان الأوسط** : يشمل ثلاث سلطنات إسلامية هي سلطنة كانم وبرنو ، وسلطنة الهوسا أو الحوصة شمال نيجيريا ، وسلطنة البلالة في حوض بحيرة تشاد .

(١) الموسوعة الإفريقية - المجلد الثاني تاريخ إفريقيا - معهد البحوث والدراسات الإفريقية ١٩٩٧م ، ص ١٧٤ .

١- سلطنة كانم وبرتو : قامت في بلاد السودان الأوسط تتكون من حوض بحيرة تشاد وما يقع حولها من بلدان تمتد من نهر النيجر غرباً إلى دارفور شرقاً، وكانت مركز لانشاء طرق القوافل التجارية المارة إلى جميع أنحاء القارة، قامت في القرن التاسع الميلادي في إقليم كانم وسيطرت على حوض بحيرة تشاد، وبخاصة غربها، وأصبحت تعرف باسم سلطنة كانم وبرتو، واتسعت في القرن الثالث عشر الميلادي حتى وصلت إلى مشارف وادي النيل شرقاً وقرب نهر النيجر غرباً، مما يعني أن بلاد الهوسا التي تشكل شمال نيجيريا الآن كانت تابعة لها^(١).

٢- سلطنة الهوسا (الإمارات الإسلامية في شمال نيجيريا) هي أربع إمارات كانوا وزاريا وكاتسينا وجويير كانت تسمى بلاد الهوسا وتنضم شمال نيجيريا وجزءاً من جمهورية النيجر، وكانت حدودها في العصور الوسطى المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وصنغي غرباً والبرتو شرقاً والصحراء الكبرى شمالاً وجنوب نيجيريا في الجنوب.

٣- سلطنة البهالة الإسلامية : قامت في حوض بحيرة تشاد وظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي وظلت تابعة لسلطة كانم وبرتو طوال فترات قيامها حتى بداية القرن العشرين حين سقطت في قبضة الاستعمار الفرنسي.

• **السودان الشرقي** هو سودان وادي النيل يشمل سلطنة الفونج في سنار، وسلطنة الفور أو دارفور في أقصى جبال النوبة، وفي بدايات القرن التاسع عشر توحدت هذه السلطنات وضمّت معها أجزاء أخرى من جنوب السودان.

١- سلطنة الفونج : تقع في سنار على الضفة الشرقية للنيل وقامت على أنقاض الدولتين المسيحيين مملكة دنقلة ومملكة علوة من الشلال الثالث إلى النيل الأزرق.

٢- أما سلطنة دارفور : فهي عبارة عن هضبة تتشر فيها المراعي وتتخللها مرتفعات جبال مرة، واتسعت المملكة وامتدت إلى كردفان جنوباً، ومملكة وداي شمالاً.

(١) الموسوعة الإفريقية - المراجع السابق - ص ٢٠٦.

وظل السودان وادى النيل حتى دخله الإسلام فى القرن السابع أقاليم متناثرة إلى أن فتحه محمد على فى القرن التاسع عشر، ثم ظهر السودان الموحد يضم الفونج ودارفور وكردفان بالإضافة إلى متطقتى بحر الغزال، وسأعرض له بالتفصيل فيما بعد.



قصدت مما سبق تعريف وتحديد الحزام الأوسط لإفريقيا وهو ما يطلق عليه السودان بالمعنى الشامل الممتد من المحيط الأطلنطى إلى البحر الأحمر؛ لأن هذه المنطقة بطولها هى التى كانت مسرحاً لتجارة العبيد ومورداً للرقيق الأسود.

وتاريخ هذه المنطقة من أروع صفحات التاريخ الإفريقى، كانت تمثل الرابطة الحضارية بين شمال القارة وجنوبها، منها تخرج القوافل التجارية من قاس ومراكش والقيروان تحمل الملح لغانا ومالى وتمبكتو وتعود محملة بالذهب والرقيق عبر ثلاثة طرق:

أولها: من مراكش حتى منحنى النيجر.

ثانيها: من تونس حتى بحيرة تشاد ونهر النيجر.

وثالثها: من طرابلس الغرب ومصر إلى تشاد.

فى بداية القرن الثامن الميلادى امتدت الفتوحات الإسلامية فى إفريقيا نحو الغرب عبر شمال الصحراء، وفى نهايته كانت القوافل تعبر الصحراء بانتظام آتية من الشمال لتلتقى مع إفريقيا السوداء، وتقدم الإسلام فى هذه المناطق بشكل سريع وتحولت ممالك الوثنية التى سبق الإشارة إليها إلى الإسلام. ولم يكن هذا التقدم الواسع للإسلام فى إفريقيا السوداء يعود إلى عناصر تتعلق بالغزو من الشمال، فقد كان حكام الممالك والإمبراطوريات المتعاقبة فى المنطقة مستعدة لقبول الإسلام؛ لأنه يعطيهم شرعية فى معاملاتهم مع ملوك المغرب وتجار العرب، وكانت تجارتهم ورعاؤهم يعتمد على هذه المعاملات، لذلك فإن معظم التجار فى المنطقة صاروا مسلمين، وكانت مراكزهم الاجتماعية وانتشارهم جعلهم مؤثرين فى انتشار الإسلام. وفى الحقيقة فإن بعض التجار كانوا من شيوخ المسلمين، وكان لهمؤلاء امتيازات شخصية تتعلق بمرور تجارتهم وبالتعامل معهم دون أى إيذاء.

وأكثر من ذلك بل قد يكون فوق ذلك كله فإن الإسلام كان يقدم أو يعد بالخلول عن
المشكل الأساسي للحكم التوسعي . فقد كان الحاكم التقليدي يعتمد على ولاء من
يتسبون إليه بأصرة القربى أو بالأصول المشتركة ، وكلما اتسعت حدود الإمبراطورية
كانت هذه الولاءات تمتد وتوسع ، وكان تعيين أعضاء من الأسرة المالكة للعمل كحكام
مع مداهم بما يلزم من الجنود كان يؤدي إلى مخاطر أن هؤلاء الحكام يستثيرون روح
التمرد والتحالفات المعارضة ، لذلك فإن الملوك والأباطرة بدلاً من ذلك عينوا حكاماً
إقليميين من بين عبيدهم الذين يتميزون بالمواهب والمؤهلات اللازمة ، وكذلك
بالانتماءات الشخصية للمبدأ والعقيدة بدلاً من السبب والقربى . وكانت مثل هذه
المؤهلات والولاءات توجد بين هؤلاء عبيداً كانوا أو أحراراً الذين تعلموا في مدارس
المسلمين في هذه المناطق التي كانت تجذب العلماء من كل أقطار الإسلام^(١) .

كان الذهب والعبيد يتجهون مباشرة من الإمبراطوريات السودانية المتعاقبة في غرب
إفريقيا إلى مراكش ، ولم يكن ذلك هو الطريق الوحيد ، ففي القرن التاسع عشر كان
هناك طريق من غانة إلى جاجو ثم يتجه عبر الصحراء إلى مصر ، وقد قلت أهمية هذا
الطريق تدريجياً في حين ظهر طريق آخر من مالي إلى صعيد مصر في القرن الرابع
عشر ، ثم في القرن السادس عشر طريق ثالث من تبركو إلى القاهرة .

كتب الإصطخرى الرحالة الجغرافي العربي في القرن العاشر يقارن بين العبيد الآتين
من مختلف أنحاء إفريقيا وأكد أن هؤلاء الذين يقدون من وسط السودان عبر زاويلا في
طريق الشمال كانوا أكثر مواءة وأحسن من غيرهم .

ومن المحتمل أن مملكة وسط السودان في كاتم التي ظهرت في القرن التاسع
أو العاشر ظهرت كاستجابة لتجارة الرقيق ، وفي القرن الحادي عشر فإن داعية إسلامي
هو (محمد هاني) حول ملك كاتم إلى الإسلام وأهدى الملك إليه تعبيراً عن الامتنان
نحو ١٠٠٠ من العبيد و ١٠٠٠ من الإبل و ١٠٠٠ من العملات الذهبية .

وبقي الحكام المتاليون له على الإسلام ، وكان المسلمون ذوي وضع متميز في المملكة ،
وفي بدايات القرن الثالث عشر فتحت كاتم قزان ويحتمل أن كان ذلك لتأمين طريق

(١) المرجع السابق Isbnis Black Slaves: P. 92

التجارة عبر الصحراء. وفي منتصف القرن الرابع عشر خضعت المملكة لضغط شديد من الصراعات بين العرب والصراعات معهم من أجل بيع المسلمين من كاتم باعتبارهم عبيداً. وفي العقد الأخير من ذلك القرن ذهب الملك وأتباعه إلى برنو جنوب غرب كاتم وأنشأوا دولة جديدة (مملكة برنو) التي توسعت وبقيت حتى القرن التاسع عشر.

إن عدداً من العبيد السود أرسلوا من وسط السودان لاستخدامهم في الخدمة العسكرية في شمال إفريقيا، كما كانت التجارة تستخدمهم في خدمة الحريم وخدمة الحكومة وكانت الجوارى منهن يُعْن محظيات. وإن ابن بطوطة الذي عبر الصحراء في منتصف القرن الرابع عشر كان مسافراً في قافلة بها نحو ٦٠٠ من الجوارى وكتب يصف بأنصاف معاملة الخصيان والجوارى الحريم في برنو، والرقيق الذين كانوا يقومون بأعمال يدوية كثيرة، وبعض هؤلاء كان يعتبر من الهدايا التي تهدي.

كان الرقيق مطلوبين ليس فقط للخدمة عبر الصحراء ولكنهم كانوا مطلوبين أيضاً لصالح حكام السودان الأوسط باعتبار أن امتلاك الحكام السودانيين للرقيق كان مظهراً من مظاهر الجاه والثروة وكانوا يعملون لدى ملوكهم سواء في الأعمال التي تحتاج إلى خبرة ومهارة أو غيرها من الأعمال التي تحتاج إلى معرفة خاصة، وأكثر من ذلك فإنه حيناً ما كان يحدث نقصان شديد في عدد السكان في بلدان إفريقية بسبب الجفاف والمجاعات والأوبئة والحروب، فكان لا بد من تعويض هذا النقص في العمالة بشراء رقيق من داخل إفريقيا.

وضع الرقيق في السودان الأوسط والغربي

قبل تجارة الرقيق عابرة الصحراء أو المحيط كانت قبائل غرب إفريقيا ووسطها اعتادت أن تبيع بعيداً عن ديارها من يرتكب جرماً كبيراً من أبنائها: السحرة، والزناة، وقطاع الطرق، والعاجزين عن سداد الديون كان أشبه بتروخ من النفي، وفي أزمة لاحقة مارست تلك القبائل استرقاق بعضهم بعضاً، استرقت قبائل الفولاني قبائل الهوسا، وتبادلت الباجرمي والقمر استرقاق بعضها البعض واسترقت قبائل الفور. ثم تعدى لاسترقاق والاحتياجات الداخلية إلى التجارة الخارجية عبر طريق القوافل الصحراوية لتقديمه نحو شمال إفريقيا والبحر الأبيض.

وعندما اتسم وضع الممالك بالاستقرار الداخلي مما أسهم في ثبات الحكم وهيكله وفي ازدهار الإنتاج والتبادل الداخلي والخارجي وتوسع الزراعة والمراعى والثروة الحيوانية وتطور الحرف المنزلية والخدمات ، استقر تبعاً لذلك الأرقاء وانتقل بعضهم إلى وضع المولى بعد العتق يمنحه أو يخصص له المالك قطعة أرض يعمل فيها بعد أن يؤدي ما عليه من عمل في أرض المالك وينال جزءاً من المحصول ، ويسمح المالك لمواليه أن يملكوا ماوى ومائسة ومستجات وتؤول للمالك بعد وفاته ، وكان نادراً ما يعود الرقيق المعتوق لمسقط رأسه ويفضل البناء في حمى مالكه في مساكن حول بيت أسرة المالك (١) .

كانت تجارة الرقيق أكثر أهمية حتى من تجارة الذهب ، فهذه التجارة كانت توفر الجنود للجيش من مراكش حتى تركيا ، والحواري للحريم أو كخدمات في المنازل والخصيان لحراسة الحريم ، والرقيق العاديين لزراعة الأرض . وكانت قافلة الرقيق الطويلة تذهب إلى الشمال وإلى الشرق ، كذلك فإن البلدان العربية كان لديها مزيج كبير من الدم الزنجي في سكانها .

وكانت هذه التجارة تعنى أن الدول المنظمة تقوم بحملات اعتيادية في المناطق الوثنية لأسرهم ، وقد اعتادت غانا وكذلك مالي وصنغاي أن تفعل الشيء نفسه ، وترتب على ذلك أن الحروب في بلاد السودان كانت أساساً غارات من أجل الرقيق بل إن الجزية كانت تدفع بالرقيق أكثر مما تدفع بالذهب ، فالرقيق أصبح هو العملة الشائعة ، كما كان الرقيق أفضل وسيلة للدفع للتجار الأجانب ، ويذكر ليو الإفريقي (٢) أن سلطان بونو

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني . المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٢) ليو الإفريقي هو الحسن بن محمد الوزان ، ولد في غرناطة في الأندلس سنة ١٤٨٨ م هاجر إلى فاس . وعند عودته إلى بلاده وقع أسيراً في يد أحد الغزاة المصفاة الذي أهداه إلى بابا القائكان بوجنا ليو ، وهناك تنصّر وحول اسمه إلى بوجنا ليو وهو اسم البابا نفسه وحتى يفرق بينه وبين البابا كان يُنادى «ليو الإفريقي» .

قام الحسن الوزان قبل أسره بعدة رحلات إلى فاس ووسط المغرب وبلاد السودان صغى وليبيا وتونس وبلاد الشام ومصر وسودان وادي النيل . حصيلة هذه الرحلات هي التي أغرت الإيطاليين بأسره وطلبوا إليه أن يدون خبراته ومعلوماته في عدد من الكتب أشهرها كتاب «وصف إفريقيا» اعتد فيه على مشاهداته وما طل عائلته في ذهنه بعد عشر سنين من الأسر من كتابات ابن خلدون والفيرواني والبيكري والإدرسي والعمرى ، وهو بذلك جمع للإيطاليين خلاصة تجاربه الشخصية ومعارفه التي استفادها من خبرة الرحالة والكتاب العرب [نقلاً عن «العلاقات السودانية انتشادية» / الدكتور كمال محمد عبيد / جامعة إفريقيا العالمية - مركز البحوث والدراسات الإفريقية / إصدار رقم ٤٣ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م] .

.. يشتري الأصناف التي يحتاج إليها من التجار ، ثم يخرج في حملة لأسر الرقيق ..
.. استطاع الحصول على عدد كاف دفعه للتجار ثمنًا للضائع التي اشتراها وإذا لم
يكن فعلهم الانتظار حتى الحملة القادمة ^(١).

وقد أدى الاهتمام بتجارة الرقيق إلى إهمال الزراعة، فلم ينشغل سكان غرب إفريقيا ووسطها بالزراعة رغم أن بها أنهاراً كثيرة لم يستخدم نهر واحد في أعمال
الزراعة ولا يرجع ذلك إلى عجز أهلها عن معرفة الزراعة، فالإفريقي كان مزارعاً
نهرًا، كما لا يمكن القول بأن الزراعة لم تتطور بسبب عدم سخاء التربة، فهضبة
غربي كانت تزرع وهي ليست أكثر سخاء، وإنما السبب أن الرقيق كان الحصول عليهم
سبباً أسهل من الزراعة، ولم يكن ممكناً أن تتطور الزراعة ما دام الرق سائداً فالزراعة
من خلق طبقة من الفلاحين سواء على هيئة أفنان مرتبطين بالأرض أو رجال أحرار
ملاحتها. وهذا ما افتقدته دول غرب إفريقيا ووسطها بسبب تجارة الرق، فلم تكن
زراعة فط حرفة مهمة وكانت دولهم قائمة أساساً على تجارة الرقيق.

كانت بلاد السودان تقوم بغارات نهب من أجل أسر الرقيق وبيعهم لتجار شمال
إفريقيا، وقد عرفت بلاد السودان منذ أقدم العصور بأنها سوق للرقيق، وكان الطريق
من تشاد إلى طرابلس ماراً بفزان هو طريق الرقيق. وهذا الطريق الملتطخ بالدماء الذي
تم فيه آلاف الهياكل العظمية لا بد أن يذكر بما أحدثته تجارة الرقيق من تأثير مدمر
على حياة السودان الاقتصادية ^(٢).

في مملكة بورنو في القرن السادس عشر أنشأ أباطرة بورنو جيشاً كانت فرقته المختارة
هي حرس القصر المكون بأكمله من الرقيق، وتولى تدريب أفرادهم على استعمال
الأسلحة النارية مدربون أتراك. ومع بداية القرن الثامن عشر ازدادت أهمية الرقيق
حتى سيطروا على إدارة البلاد في القرن التالي، فكانت السلطة التي تركزت في يد
الإمبراطور يمارسها الرقيق الذين يحيطون به ^(٣) وفي بلاد الهوسا سيطر الرقيق على

١- الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات النيجية في غرب إفريقيا / مادهور باتيكار / ترجمة وتعليق أحمد
نواز بلخ / المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥ م / ص ٣٩٣.

٢- الوثنية والإسلام - المرجع السابق ص ٤١٧.

٣- الوثنية والإسلام - المرجع السابق ص ٤١٢.

الإدارة وحل أحد الأرقاء محل الأمير، وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان الرقيق قد وطدوا أنفسهم كطبقة إدارية وارتبط صعودهم بتدعيم السلطة الملكية. وفيما عدا الأمراء الملكيين والرئاسات القبلية المحلية أصبح الرقيق أهم مجموعة في الدولة وهم على غرار الانكشارية التركية كانوا السلطة الحاكمة الفعلية في البلاد؛ لأن المناصب الإدارية والحربية يتم شغلها أساساً من بينهم. وهناك سبب لهيمنة الرقيق في الإدارة وهو أنه كان من تقاليد الحكم المسلمين أن يجندوا للإدارة والجيش أشخاصاً لديهم ولاء تام وكان الرقيق لا ولاء لديه إلا لمن يملكه، وقد أدى هذا النظام أن أصبح باستطاعة الرقيق الارتقاء إلى أرفع المناصب في الإمبراطورية^(١).

وفي صنفى كان للرقيق أهمية في المستويات الأدنى من الإدارة، وقد شغل أحدهم منصب السكرتير الخاص للإمبراطور ومن ثم مستشاره الأمين. كما كان للرقيق أهمية في مجالات أخرى فهم المسئولون عن أهل البيت الملكي وهم رسل الملك ويشكلون الحرس الملكي ويزودون الجيش بالجناب الأكبر من الجنود، وأحياناً كانوا يقومون بتحصيل الإيرادات المتحصلة من المقاطعات، وقد زادت سيطرة هؤلاء الرقيق بالتدريج حتى أحكموا قبضتهم على الإدارة، وهم لم يكتفوا بتركيز السلطة في أيديهم بل كونوا ثروات كبيرة أيضاً.

لم يكن الرقيق فئة واحدة بل كانوا ينقسمون إلى أربع درجات، في القمة رقيق بيت الإمبراطور وبيوت عليا القوم وهؤلاء قد يديرون أملاك سيدهم ويستطيعون أن يصبحوا ضباطاً وأن يمارسوا نفوذاً قوياً في الجيش، يليهم رقيق الجيل الثاني الذين يتمتعون ببعض الحقوق ولا يمكن بيعهم، والفئة الثالثة الرقيق الذين يحترفون المهنة، وأخيراً يأتي الرقيق الذين يفلحون الأرض أو يعملون في المناجم. وكان لمجموعة الرقيق الذين يعرفون برقيق البيت الملكي وضع خاص، فهم فرقة مختارة يتمتعون بميزات يمتد إليها غيرهم من الرقيق، وتعد هذه المجموعة هي التي يختار منها الموظفون والقادة الحربيون.

(١) الوثنية والإسلام - المرجع السابق ص ٤٤٤.

عسكرة الرقيق

مع تطور التجارة عبر الصحراء ظهرت جماعة اجتماعية هي الأرستقراطية العسكرية التي كان لها اليد الطولى في السلطة السياسية في الدولة، إذ إن توسع حرية الخارجية أدى إلى عسكرة الدولة في غرب إفريقيا ووسطها خلال مرحلة حرية عبر الصحراء، وقد تجلّى هذا التغيير في ظهور الجيوش التي زاد عددها بها بشكل واضح، وكان عماد هذه الجيوش الأرقاء العبيد، لذلك خلقت رغبة محسومة في الحصول على الرقيق في سياق تسليح ظلت مهيمنة في تلك الفترة. - أبواب مفتوحة للحراك الاجتماعي، ومن ثم فإن بعض الأفراد كانوا أصلاً من رقيق ووصلوا إلى مراكز، مثل رؤساء الجيوش وأصبح بعضهم من كبار تجار حكام المقاطعات والوزراء ورؤساء البيروتوكول الملكي ومديري الخزائن ونظام ضريبة، وفيما عدا منصب الملك نفسه - الذي كان الوصول إليه يتم طبقاً لقواعد محددة - فقد كانت جميع وظائف الدولة مفتوحة للمنافسة، بل إنه بالنسبة لمنصب - فقد تمكن اثنان من كبار الرقيق في إمبراطورية مالي من الاستيلاء على السلطة - خلال القرن الرابع عشر في أعقاب انقلاب عسكري، أحدهما ساكوري وهو رقيق معتق - والثاني ساموري أحد قادة الجيش الأرقاء حارب السلطان وهزمه وأسره عرض عليه حسن الإقامة ورقيماً وإمارة إذا عاش فرداً عادياً. وفي مملكة صنغاي - حظ أنه من بين ١٥ ملكاً تولوا الحكم خلال القرن السادس عشر كانوا جميعاً من أبناء (الإماء) الجوارى فيما عدا مؤسس الأسرة أسكيا محمد^(١).



نخلص مما سبق إلى الآتي:

• إن عمل الرقيق كان موجوداً في إفريقيا الغربية قبل نشأة التجارة عبر الأطلنطي - فنت طويل، فقد كانت الثروة تتحقق عن طريق عمل الرقيق - وكانت التركيزات الرئيسية للرقيق في المناطق التي أدى تطور أنشطة التبادل المحلية إلى خلق فرص عمل - يمكن محتملاً أن يلبسها الأحرار المحليون، ففى الدول الكبرى مثل مالي والصنغاي

(١) الحكم والسياسة في إفريقيا - الجزء الأول - أكودييانو (الجلسة الأعلى للثقافة - المشروع القومي) ص ٤٨.

وقبلهم غانة القديمة كانوا في أمس الحاجة إلى الرقيق ويحصلون عليه إما بالشراء أو الأسر. والرقيق كانوا عادة عمالاً وقلة من المحظوظين شغلت مناصب مدنية وعسكرية رفيعة، وهؤلاء كانوا أيضاً يمتلكون رقيقاً خاصاً بهم. وآخرون كانوا يوجدون في وظائف تحتاج إلى مهارة، مثل الصناعات الخرفية، غير أن الأغلبية كانت تؤدي عادة أعمالاً يدوية مرهقة، كما كانوا يستخدمون خدماً في المنازل ويعملون كحمالين ويغلحون الواحات ويقطعون الملح الصخري من الصحراء ويوجدون في جميع أنواع العمل الزراعي. ولم يكن رقيق المزارع يستخدمون. كما هو الحال في أجزاء العالم الأخرى. في إنتاج قطن للتصدير، بل لتوفير المواد الغذائية الأساسية للحكام وللمستولين وللناترة المحيطة بهم من الأتباع وللجيش^(١).

❖ كان الرقيق في إفريقيا الغربية يؤدون وظيفة سياسية مهمة؛ فالأفارقة كانوا يقيسون الثروة والسلطة بالرجال أكثر مما يقيسونها بالأفدنة، كما كانوا ممن يمارسون السلطة ملاك رجال أكثر من كونهم ملاك أراض. وكان هناك اتجاه لاستيعاب الرقيق في المجتمع بمنحهم حقوقاً معينة مقابل الولاء، وكان في القرن الحادي عشر تجار كان الواحد منهم يملك أكثر من ألف رقيق. وفي القرون التالية كان يوجد أصحاب رقيق يسلكون أعداداً أكبر.

❖ إن تجارة الرق كان يتم تصديرها من إفريقيا الغربية إلى الشمال قبل نشأة التجارة عبر الأطلنطي في أواخر القرن الخامس عشر، بل إن هذه التجارة عبر الصحراء سبقت انتشار الإسلام في القرن السابع، وفي أيام القرطاجيين والرومان كان الطلب عليها متواضعاً لأن مصادر العرض الأخرى كانت معروفة. وقد أدى توسع قوة العرب إلى طلب متزايد على الرقيق في شمال إفريقيا والشرق الأوسط لاستخدامهم كجنود وعمال وخدم، وكان معظم الرقيق يجيئون عن طريق الجزائر وطرابلس [يقدر ما كان يصدر من الرقيق شمالاً عبر الصحراء قرابة عشرة آلاف سنوياً في مقابل ٧٠ ألفاً يشحنون غرباً عبر المحيط الأطلسي].

❖ من الآراء الشائعة أن التجارة كان يسيطر عليها التجار العرب، وكان يطلق لفظ عرب على كل المسلمين، في حين أن كان للبربر واليهود والنوج الأفارقة أيضاً دور

(١) التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية - تأليف أ.ج. هوبكنز، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة - القاهرة ١٩٩٨م. ص ٤٦.

رئيسى فى التجارة، كما كان الأوروبيون موجودين فى الساحل الشمالى وكان لهم امتيازات خاصة قبل مجيئهم إلى الساحل الغربى . وكانت قبائل الطوارق متخصصة فى التجارة عبر الصحراء^(١) .

✽ إن الرقيق كانوا يشكلون نسبة ضخمة من الأيدى العاملة والقوة العسكرية فى مناطق معينة .

✽ كان نقص الأيدى العاملة يعالج عن طريق الرق، وكان العنصر النادر فى الإنتاج الأيدى العاملة وليست الأرض . وقد واجه المسئولون الإداريون فى إفريقيا الغربية البريطانية والفرنسية نقصاً فى الأيدى العاملة فلجأوا إلى استخدام السخرة على رغم ادعائهم إلغاء الرق، وقد تفتقت العقلية الاستعمارية على حل لهذا التناقض بإعلان أن الرق عمل غير منحصر وأن السخرة ضرورية لإرشاد الشعوب البدائية إلى مزايا العصرية .

✽ مثلما أدت التجارة عبر الصحراء إلى جذب إفريقيا إلى التجارة الدولية فى القرون الوسطى، فإن تطور التجارة عبر البحار منذ أواخر القرن الخامس عشر خلق علاقة تجارية مع العالم الجديد وأوروبا، وانتقلت بؤرة التجارة الدولية من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلنطى، وبدأت الحسولات البشرية من إفريقيا الغربية تتجه إلى هناك على مدى أربعة قرون . وفى البداية كان الهدف الأساسى للتجارة الأوروبية هو إحكام السيطرة على موارد الذهب، ثم أصبح المطلب هو الرقيق .

✽ إن تجارة الرق كان لها أثرها على التطور الإفريقى، على أن الخسائر المباشرة الأشد قسوة كانت هى المعاناة الشخصية التى كابدها الملايين من أبناء إفريقيا الغربية الذين شحنوا قسراً وكرهاً عبر المحيط الأطلنطى، مثلما كابدها من قبل الرقيق الذين تم تصديرهم عبر الصحراء الكبرى، وهؤلاء الذين قتلوا أو أصيبوا فى شمار عمليات جمع الرقيق .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما بدأ الاقتصاد ترمع بسرعة كبيرة كان يوجد نقص خطير فى الأيدى العاملة فى أجزاء كثيرة من إفريقيا، ولاشك أن سرعة التقدم كان يمكن أن تكون أكبر لو أن تجارة الرقيق لم تعطل نمو السكان .

(١) التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية - المراجع السابق - ص ١٦٩ .

• القرن التاسع عشر:

قرن الصحوة والحروب في السودان الغربي والأوسط

أدى توسع الدول الغربية واحتكاكها بالإسلام في القرن الثامن عشر إلى انتشار موجة من الصحوة الإسلامية، ظهرت في الجزيرة العربية الحركة الوهابية ضد الحكم العثماني، وفي الهند حركة المقاومة ضد الإنجليز، وحدث الشيء نفسه أيضًا في غرب السودان ووسعه إذ جرت سلسلة من الحروب المقدسة غيرت الخريطة السياسية لإفريقيا.

ففي خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر فإن شعب الفولاني القادم أصلاً من الإقليم الأدنى للسنگال واستقروا في بلاد الهوسا وصاروا مسلمين ظهر من بينهم الشيخ عثمان دان فوديو الذي قاد حركة التجديد الإسلامي في غرب إفريقيا، وهو قيادة سياسية دينية قام بثورة ضد ملوك الهوسا لتصحیح إسلامهم الذي كان يمتزج بالتقاليد الوثنية.

في سنة ١٨١٠م صارت ثورته جهاداً انتشرت في بلاد الهوسا. ويرجع هذا النجاح الكبير إلى عناصر عدة منها قائدان عسكريان هما شقيقه الأصغر عبد الله الذي تولى قيادة الجبهات الغربية، والثاني ابنه محمد بلو الذي كان قائد الجبهات الشرقية، وكان متعلمين وعلى معرفة جيدة بالعسكرية الإسلامية وبخاصة ابنه محمد بلو الذي أثبت أنه تكتيكي ماهر استطاع أن ينسق بين الفرسان الذين تحت قيادته وبين رماة السهام المهرة من الفولاني. وعلى كل حال فإن قدرات القادة الإبداعية لم تكن تنجز ما أنجزت بغير التأييد الشعبي الذي حصلوا عليه اقتناعاً من الشعب بدعوة الجهاد التي واجهت الاستبداد والفساد وبخاصة ما يتعلق بموضوع العبودية.

ورغم أن كثيراً من الجهاديين كانوا أنفسهم ملاحاً للعبيد، وأن القادة العسكريين حصلوا على خبرتهم في القتال ومهارتهم من خلال غارات العبيد، فإن حركة الجهاد كانت تقوم على أساس المنع القرآني لاستعباد المسلمين. وكان هذا على تناقض حاد مع الممارسات التي كان يصادق عليها حكام الهوسا؛ لأن الإغارات من أجل صيد العبيد

كانت مهمة جداً لاقتصاديات الهوسا، مهعة إلى حد أنهم كانوا يعضون النظر عما إذا كان هؤلاء المأسورون مسلمين أو غير مسلمين، وزاد من عدم التمييز في الاسترقاق ما بين المسلم وغير المسلم الرغبة في الحصول على الأسلحة، وكانت الأسلحة تطلب لإثبات القوة والسلطة لدى الملوك، وكانت الإغارات أيضاً مما يزيد ويسهل الحصول على العبيد، وكان ما يحصلون عليه من عبيد يعطونه ثمناً لتجار العبيد ويحصلون مقابلته على السلاح، لذلك لم يكن مفاجأة أن المسلمين تجمعوا للمجاهد الذي كان نجاحه يقدم لهم ضماناً لتطبيق القانون الإسلامى، فى حين أن غير المسلمين كان يجذبهم انخسوح إلى التسرع بالأمن نفسه. فقد كانت حركة عثمان دان فوديو حركة جهاد لجميع الناس من أجل تطبيق القانون الإسلامى الذى يمنع استرقاق المسلمين وكان دخول الأفارقة الإسلام ضماناً لهم بالأسترقوا.

وفى سنة ١٨١٢م تأسست إمبراطورية الفولانى على نهج الدستور الإسلامى وعلى مبدأ الخلافة، وصار عثمان دان فوديو خليفة ولكن ابتعد هو عن الحكم من أجل التفرغ لدراس والوعظ وتأليف الكتب الدينية التى رتب على مائة مؤلف، وانقسمت إمبراطورية بين شقيقه عبد الله الذى حكم النصف الغربى وابنه محمد بلو الذى حكم النصف الشرقى. ومع وفاة الشيخ عثمان سنة ١٨١٧م خلفه محمد بلو كخليفة لكل البلاد وشرع فى دعم الإمبراطورية. ولم يكن الطموح للتوسع مما يمكن وقفه، فقد تحركت جيوش الفولانى فى اتجاه الجنوب إلى يوروبالاند (أرض اليوروبا)، حيث سيطروا على الأقاليم الشمالية من الإمارة الجنوبية أويو وأخضعوها وأسروا إمارة يورين - Ilorin وكانت هذه هى القاعدة التى انتشر فيها الإسلام بين اليوروبا.

وتاريخياً فإن جيوش الفولانى تحركوا شرقاً وصارت إمبراطوريتهم فى حالة حرب مع مملكة بورنو، وقد غزت جيوش الفولانى إقليم بورنو فوجدوا خصماً شديداً فى حاكم بورنو هو محمد الأمين الكانانى وكان مسلماً صادق الإيمان ولكن اتخذ أسلوباً براجماتياً بالدفاع عما سعى بالإسلام المختلط أى الحكم الإسلامى الذى يحتمل رعايا ذوى عقائد أخرى، ولا شك أن كان هذا هو ما أسهم فى نجاحه وفى أن يرتقى بنظام دفاعى شعبى.

وفى الغرب فى المناطق الشاسعة التى تصل إلى أنهار النيجر والسنگال كان الرعاة غولانيون يستقرون، وكان الرؤساء التقليديون المحليون مسلمين اسماً يمارسون ما

يعرف بالإسلام المختلط، وبعد العقد الثاني من القرن التاسع عشر ظهر محمد بن أحمد وهو واحد من القولاني الذين درسوا على الشيخ عثمان دان فوديو وحارب في صفوف مجاهديه وبدأ يخوض جهاداً خاصاً به.

هذا الجهاد كان موجهاً ضد الرؤساء القولاني الذين أسماهم بالوثنيين، وكان نجاح عظيمًا إلى حد أنه سيطر على المنطقة، ونتج عن ذلك تأسيس إمبراطورية كانت عاصمتها مدينة حمد الله بقيت تحت حكم محمد ثم ابنه ثم حفيده حتى عام ١٨٦٢م. وفي ذلك العام ظهر جهاد جديد يقوده عمر بن سعيد قسم الإقليم وساد شعب «التوك لور - Tuku Lor» وبقي حتى عام ١٨٩٣م حيث أسقطه الغزو الاستعماري الفرنسي.

إن الصورة المثالية للجهاد في التاريخ الإسلامي^(١)، كانت أحياناً يشوبها الغزو ومرتتلوه، وإن حالات الجهاد في القرن التاسع عشر في غرب إفريقيا لم تكن استثناء وقد كان الحصول على العبيد هدفًا لبعض من حملوا في البداية لواء الجهاد وصار ذلك سائدًا في الحروب سواء الدفاعية أو الهجومية وما يتبعها من إنشاء ممالك وإمبراطوريات، وأحد العناصر هو تطوير الملكيات الكبيرة الحجم المعتمدة على العبيد العبودي باعتبارها شكلاً بديلاً للضرائب من الفلاحين التي كان عثمان دان فوديو يدينها، في حين كان الخلفاء والأمراء وكبار موظفي الدولة وغيرهم مثل التجار كما يتربحون من هذا العمل العبودي في المزارع المملوكة لهم وأكثر من ذلك كان العبيد يحققون دخلاً لملاكهم بما يقومون به من أعمال في بناء المنازل أو أعمال الحديد - أعمال النسيج.

وفي الإسلام كما في غيره استخدم العبيد في الجيش وفي أنواع الحروب والإغارات المختلفة، ووصل بعض الجنود الذين هم من أصل عبودي إلى جنرالات في الجيوش كما كان العبيد يستخدمون في أعمال الخدمة المنزلية وخاصة في القصور وبجانب الحكام، كما كانوا يستخدمون في الإصطبلات والأعمال المنزلية ويوظفون في أعمال الترفيه عن الحكام والنبلاء والأغنياء، مثل الموسيقيين وقصاصي الحكايات، وفي الاحتفالات الملكية في بورنو كان يستخدم العبيد في حملات العراك التي كانت يمكن أن تؤدي إلى الموت.

(١) المرجع السابق P 162 Islam's Black Slaves.

كان الأفراد من النخب الحاكمة السودانية يملك الواحد منهم ما بين ألفين وثلاثة آلاف من العبيد، وكانت أسواق العبيد شائعة في الإقليم، وقد قدر أحد المكتشفين البريطانيين أن كل رجل حر في مدينة كانو كان يوجد متبale نحو ثلاثين من العبيد، وقطعاً في هذا التقدير مبالغة إلا أنه يوضح أن العبيد كانوا هم المكون الأكبر في الشعب.

ومع تصاعد الطلب على العبيد في ممالك السودان وإماراته الإسلامية فإن الجماعات غير المسلحة أو الشعوب بداخلها أو على حدود الدول التي أنشأها الجهاد كانت مجالا للإغارات التي لا ترحم، وحتى «الكنامي» - Al kanmi الذي واجه الجهاد ببديل من لإسلام المختلط ليزيد مقاومة الشعب ويحتفظ بمملكة بورنو، هذا الكنامي قام بصنقات وإغارات لاسترقاق العبيد ضد شعب «الباد» - Bado على أساس أنهم من الوثنيين. وفي الحقيقة فإن في بورنو كغيرها في المنطقة كلها لم يشجع الحكام رعاياهم غير المسلمين على التحول إلى الإسلام؛ لأن ذلك كان يسبب صعوبات نظرية تعوق من استرقاقهم. وأكثر من ذلك فإن بعض المناطق الإسلامية مثل «كانو» فإن الحكام كانوا يفسرون أية مقاومة ضد الظلم أو أية مقاومة ضد الانحرافات كانوا يعتبرونها تمرداً وهي تعنى نوعاً من الردة يبيع لهم استرقاق هؤلاء المتمردين.

وقد قدر عدد العبيد الذين يتقلون سنوياً عبر الصحراء خلال القرن التاسع عشر بشدراً إجمالى يبلغ مليون فرد، وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر قيل إن حركة التجارة عبر الصحراء من بلاد اليوسا وبورنو ما كانت تكون موجودة أصلاً بغير تصدير عبيد، وفي أواخر الخمسينيات من القرن نفسه كانت تجارة العبيد تستوعب نحو ثلثي قيمة القوافل كلها واستمرت كذلك حتى نهاية القرن (١).

كان حجم الطلب مشيراً لحساس التجار الذين جعلوا من العبيد العملة الأساسية لشراء الخيول التي يطلبها حكام السودان للأغراض المتعلقة بالحرب أو الفخامة، وكان أغلب تجار شمال إفريقيا يقبلون العبيد فقط كمقابل للخيول، وما لبث تجار شمال إفريقيا أنفسهم أن اشتروا مباشرة في الإغارات الخاصة بجلب العبيد، وقد كان سكانهم يبحثون عن حلفاء يساعدونه لزيادة سيطرته في «بورنو» واستعان بأحد كبار

(١) ملحوظة: إن الأرقام التي ذكرها سيجال والاستنتاجات السابقة يشك في صحتها أو على الأقل يجب أن تؤخذ بحذر فقد أعدها عن كتابات الأوروبيين الذين أفادوا وبالعوا تشويه صورة الإسلام والممالك الإسلامية ليبروا استعمارهم لها.

التجار يوسف باشا الطرابلسي في هذه الإغارات، وخاصة ضد الحاكم المسلم المنافس في دولة «الباجرمي» في الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد. وفي سنة ١٨٢١م؛ فإن حملة واحدة قادتها قوات الباشا حملت أكثر من عشرة آلاف أسير من أربع مدن فقط، وعدد لا يحصى من الرجال ذهبوا ليس فقط في عملية الإغارة ولكن لأن كثيراً منهم اقتنصوا من أجل تأمين النقل وأن الكانامي نفسه في حروبه ضد سلطان الباجرمي استرق أكثر من ٣٠ ألفاً من شعبها.

إن التعاون بين الكانامي ويوسف باشا والتجار الآتين من شمال إفريقيا قد أثبت نجاحهم الذي توسع لدى أكثر من باجرمي التي صارت مجرد دويلة في بورنو، وكان التجار هم من يادروا صراحة باستشارة الكانامي والحكام الآخرين للقيام بمشروعاتهم وأقنعوهم بتنظيم إغاراتهم ضد المدن والقرى، ومن فزان عبر الصحراء قامت طرق التجارة وفيها كانت تخفي الإغارات شمال السودان ووسطها ووجهوا انتباههم نحو الغرب مستهدفين إمبراطورية الفولاني من أجل عمليات الإغارة على العبيد مصحوبة بالقوات المسلحة للدول في الشمال.

دور التجار

كانت التجارة مربحة إلى حد أن تجار شمال إفريقيا كانوا يصيرون أغنياء برحلة واحدة قصيرة في وسط السودان، وما لبثوا أن انتشروا في الإقليم الواسع وبعضهم استقر في مناطق بعيدة مثل غدامس في جنوب تونس وجنوب غرب طرابلس، حيث كانت مركزاً لتمويل التجارة عبر الصحراء، وشاركهم تجار المدن الأخرى في وسط الصحراء الذين استثمروا أموالهم في التجارة وأنشأوا وكالات من أعضاء أسرهم، وكثير منهم سافر إلى وسط السودان ليتمكنوا مدداً أطول ويشاركوا في الإغارات أو يصاحبوا المغيرين، واتصلوا ببلاط حكام هذه البلاد، حيث حصلوا على مراكز اجتماعية وامتيازات تمتعوا بها، وبعضهم عين في مجالس الدولة وتولى مناصب مهمة مثل الخزنة، وبعضهم كان يزيد من نفوذه الاجتماعي باعتباره من سلالة الرسول الكريم ﷺ، وبعضهم كان من الفقهاء ممن يستشارون في الفقه، وكانوا

يغترون في مواضيع متعلقة بالعبيد، وكانوا لا يبالون بالأخطاء التي يرتكبها الحكام ضد رعاياهم بل كانوا يشجعون هذه الأخطاء إذا كان ذلك يخدم مصالحهم، لذلك لم يكونوا محل حب الناس ولا ثقتهم.

إن الخيول كانت غالية الثمن يتكلف الواحد منها نحو ١٢ عبداً، وكان الأهالي خاضعون للإغارات يستخدمون السهام المسمومة ضد الخيل، ومع ذلك فقد كان ثمة احتياج متزايد لاقتنائها وإحلالها محل العبيد، فقد كانت مظهرًا للفخامة والأبهة، بحيث إن أقل الموظفين شأنًا كان يرى أنه من الضروري أن يمتلك منها العدد الذي يستطيعه، وكذلك بالنسبة للأسلحة وغيرها من السلع التي كانت تستورد إذ كانوا يشعرون بالفخر في امتلاك هذه الأشياء، ويقال إن أحد الموظفين في بورنو توفي في بداية السبعينيات من القرن التاسع عشر وترك بضعة آلاف من العبيد ونحو ألف من محول الخيول وعدد من إناث الخيل ونحو ٢٧ مخزنًا مملوءة بالثياب والسلع التي يجلبها لشجار، ومن الأسلحة نحو ألف سيف وغيرها و١٢ ألف دولار ماري تريزا ونحو ألف رأس من الماشية^(١).

إن تجار شمال إفريقيا كانوا متجهين إلى الإغراء الذي يثيره التوطن في حواضر السودان وقدموا القروض التي تستحق الوفاء بعد مدد تصل إلى ثلاث سنوات، وقد وقع هذا الأمر الحكام وموظفيهم الإقليميين في ديون ضخمة، وكان لذلك تأثيره الكبير في زيادة الرغبة في تكثيف حملات وإغارات جمع الرقيق. وأن رئيس «الزندر Zinder» وهي إمارة مستقلة تقع شمال خلافة الفولاني استدان في الأربعينات من القرن التاسع عشر دينًا ثقيلاً إلى حد اضطره إلى تكثيف الإغارات المتلاحقة باعتبار أن ذلك وسيلة الوحيدة لتسوية ديونه. وأن حكام الزندر كان يمكن أن يجردوا المنطقة كلها من سكان بهذه الإغارات إلا أنهم تبنا سياسة استبقاء بعض الأحياء بالعدد الكافي لتوليد صحايا جدد^(٢).

وعندما كانت الإغارات على الشعوب الأخرى تصل إلى حدها الأقصى الذي لا زيادة بعده لسبب أو لآخر كان الحكام والموظفون يفترون شعوبهم بصرف النظر عن

(١) المراجع السابق P 169. Islam's Black slaves

(٢) المراجع السابق P 170. Islam's Black slaves

تعاليم الإسلام وأحكامه. وفي الزندر مثلاً كان الصبي الذي يسرق أى شيء يستعبد هو وجميع أفراد أسرته ويباع كعقاب له على جرمه. وكان الموظفون يعاقبون بأن يقدموا عبيداً كنوع من الغرامة. إن الأحكام بدعوا يتقاضون الضرائب المتزايدة متمثلة في العبيد يأخذونها من حكومات الأقاليم والإقطاعيات التابعة لهم مما يستوجب ذلك من زيادة حملات الاسترقاق. والجماعات المحلية التي كانت تخشى أن تقتنص من إغارات العبيد كانت تلجأ إلى أن تعتدي على جماعات أخرى للحصول على عبيد منهم تقدمهم رشوة للموظفين الذين يتهددونهم، وكان الآباء يقدمون واحداً من أطفالهم على أمل أن يحموا الباقين. والقليلون جداً ما كانوا يكسبون بذلك أمانهم، وكان موظفو الحكومة يتجاهلون القانون ويتبصون على الناس لاستعبادهم دون أن يتدخل حكام الأقاليم خوفاً من أن يكون هذا الاستعباد بأمر الحاكم.

إن الطلب على العبيد سواء الطلب الداخلي أو الأجنبي زاد إلى حد أن صار من الصعب الاستجابة إليه وتوفيته كاملة، وكان المتعاملون في العبيد يضطرون إلى الانتظار شهوراً وأحياناً سنين للحصول على ما يطلبونه، وأحد أسباب هذا النقص هو انخفاض عدد السكان المحليين الذي نتج عن كثافة الإغارات، وأن المستهدفين نادراً ما كانوا يقبلون هذا المصير بغير مقاومة. وكانت المقاومة تعنى الموت بضعف العدد الذي يؤسر. وفضلاً عن ذلك المصير فتد كان من الممارسات السائدة قتل الذكور البالغين الذين يصابون ولا يستطيعون تحمل أعباء الثقل مع استبقاء الإناث وخاصة الشابات منهن والصبية؛ لأن الطلب كان عليهم أكثر من غيرهم. وقد كان المطلب مستمراً على الصبية الصغار لتحويلهم إلى خصيان. وفي حساب كيف كانت تجري هذه العملية يندهش الإنسان من أن هناك من ظل من هؤلاء على قيد الحياة.

كان الطريق إلى أسواق التصدير يمر عبر الصحراء بما فيه من صعوبات وكان الكثير من المأسورين يموت في الطريق. وقد أغلق التوسع الإمبريالي الأوروبي وخاصة التوسع الإنجليزي والفرنسي في إفريقيا، أغلق العديد من المناطق وطرق النقل أمام التجار وهدد الآخرين، كما أن الأسواق التقليدية للإمبراطورية العثمانية بدأت تقل بسبب ظهور مبدأ محاربة تجارة الرق.

كانت المخاطر المحيطة برحلة العبيد مخاطر كثيرة، فإن إمدادات الطعام والماء لم تكن بالقدر المناسب، وكان النساء والصبيان والأطفال يعانون كثيراً من المعاملة القاسية ويسببون على الأقدام مسافات طويلة ويشجعون على المشي بالضرب، وبعضهم كان يمرض لاختلاف الظروف المناخية. كانت نسبة الوفيات تصل إلى نحو ٢٠٪، لذلك لم يكن غريباً أن الطلب على الرقيق كان أكثر من المعروض.

وفي غرب السودان في المناطق الخاصة بتجارة الأطنطى فإن هبوط حجم التجارة لم يكن مصحوباً بهبوط في نسبة الاسترقاق. على العكس زادت النسبة لمدة العالم الإسلامي والطلب الأجنبي، وصارت قرى العبيد تحيط بعواصم دول المسلمين الإفريقية لتمدد الحكم والموظفين والجيش بالطعام. وفي المدن على طريق الصحراء كان العمل العبودي هو ما يتيح الغلال والمنسوجات للتجار المغاربة والطوارق، وحتى المرابطون والزهاد والصوفية المعروفون بمكانتهم الاجتماعية الكبيرة بدعمهم لأشكال الجهاد المختلفة، حتى هؤلاء اعتمدوا على العمل العبودي في المناطق الزراعية. وفي الحقيقة فإنه في وسط السودان الجهاد الذي بدأ كاحتجاج على المخالفات والتجاوزات الخاصة بتجارة الرقيق انتهى إلى الاعتماد على العمل العبودي لدورة الإنتاج.

وأتى استخدام البنادق سريعة الطلقات كوسيلة فعالة جعلت إغارات العبيد أكثر سهولة وجعلتها أكثر ربحية، وأن مجرد حيازة هذه الأسلحة قد حقق ميزة لمن يحوزها حتى الدول التي لم تكن تحوزها عملت على حيازتها لتطوير إمكاناتها للدفاع عن نفسها. وإن القائد السنغالي الكبير «مابا - Maba» الذي ترعّم الإصلاح الإسلامي في تسعينيات من القرن التاسع عشر أطبع به من مساعديه عندما حاول منعهم من إغارات الاسترقاق التي دخلوا فيها بحمية شديدة.

إن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة في عام سنة ١٨٧٩ م كتبوا أنها كانت عامرة بالسكان وبالرخاء، وفي عام ١٨٨٨ م وصفها أحدهم بأنها جرداء، فيها نحو ٣٦ قرية مهجورة على مدى ٤٠٠ كيلومتر، وبعد ست سنوات عندما أنشأ الفرنسيون إدارة لهم في «بوجوني - Bougouni»، وأعدوا إحصاءً، وجدوا أن بها أقل من خمسة آلاف ساكن^(١).

(١) المرجع السابق P. 173 Islam's Black Slaves.

كان الصبية يباعون عدة مرات قبل أن يصلوا إلى مصيرهم النهائي ويسافرون مسافات شاسعة، وهناك قوافل كانت تضم ستة آلاف من العبيد وكان التجار الصغار يرحلون بعبدين أو ثلاثة وأوجد هذا أسواقاً عديدة ووسطاء.

وعلى رغم كل الدعاوى الرسمية وعلى النقيض معها فإن الجيش المتقدم للإمبراطورية الفرنسية كان يتقاضى الضرائب على هذه التجارة، بل كانت قوات الأهالي التابعة للفرنسيين يسمح لها بأن تصطاد الأسرى حسبما تستطيع، وهذا شكل واردات جديدة لهذه التجارة، وقد أخذت أعداد كبيرة من الأسرى إلى أسواق الشبجر وكسب من ذلك الوكلاء الفرنسيون نحو ٢٠ عبداً لكل منهم وهو مكسب طائل. وفي عام ١٩٠١م أصدرت الحكومة الفرنسية قرارات ضد هذه التجارة، ومع ذلك استمر العبيد يصلون إلى الأسواق واستمر الأطفال يخطفون ويباعون.



ثانياً: السودان الشرقى «سودان وادى النيل»

• الممالك القديمة

أحصر الحديث عن السودان وادى النيل من عام ١٥٠٠م عصر التكوين والتشكيل وتأسيس دولة الفونج ثم سلطنة دارفور ثم السودان الموحد. كانت سلطنات السودان وممالك القديمة والوسيطة (الفونج والفور) تعتمد على الرقيق واستعملوهم فى الجيوش مما زاد من عدد المقاتلين فى القبيلة وأسهم هؤلاء فى الدفاع عن السلطنات وتوسيع رفعتها، ويقال إن مجتمع الفونج سنة ١٧٧٣م كان يعد رقيق جيش السلطان فيه ١٤ ألفاً من الأرقاء^(١).

كانت مدينة سنار عاصمة الفونج تحوى أعداداً كبيرة من أرقاء النوبة الذين أسروا فى حملات الفونج العسكرية على كردفان، وقد استخدمهم سلاطين الفونج فيما يشبه لحرس الخاص، وكان الرقيق هم القوى المتجة والعاملة فى مجتمع الفونج، ويوصف مجتمع الفونج بكثافة الأرقاء، فى قصر السلطان وسوق سنار وموسم عرض حصاد الغزوات فى سوق التخاسة، إذ كانت غزوات الرقيق وتجارته نشاطاً اقتصادياً أشبه بحمى التكالب على مناجم الذهب والفضة لاستزافه حتى يجف المنيع وينضب.

وفى سلطنة الفور أو دارفور، فإن مجتمعها يعد من النمط السودانى الإفريقى للاسترقاق كعنصر أساسى للنظام الاجتماعى؛ فالرقيق قطاع اقتصادى متميز مكمل تهيئة الاجتماعية الاقتصادية مع الزراعة والرعى، ولم يحتل الرقيق والاسترقاق مكانته وفعاليتها مع توحيد السلطنة فى القرن السادس عشر فقد كانت أعراق الفور يسترق بعضها بعضاً فى ممالكها وبعد استقرار السلطنة استقرت كلها السلالات الإفريقية مجاورة لها جنوباً وغرباً^(٢).

وقد اشتهرت سلطنة الفور بكثافة الرقيق ونسبة الصادر منها، ويمكن استنتاج ذلك من رسالة السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور إلى نابليون بونابرت، فقد رحب بسخول بونابرت مصر تكاية فى السلطة المملوكية فى مصر التى كانت تمارس ضغوطاً

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - النشأة - السمات - الأضمحلال - توثيق وتعليق وتأليف محمد إبراهيم نقد - دار الثقافة الجديدة - ط ١ ١٩٩٥م ص ٦٨.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق - ص ٧٤.

على قوافل دارفور، وردت بالرسالة من سلطان دارفور إلى المعظم سلطان جيوش
الفرنساوية، أما بعد فنعلمكم أن خبر انتصاركم على الممالك وصل إلينا وتلقيناه
بغاية السرور، وقد أخبرنا أحد الفرنج بحسن معاملتكم للأجانب فأرسلنا كتابنا هذا مع
خبير القافلة يوسف الجلابي وكلفناه أن يؤكد لكم صدق مودتنا التي نسأل الله دوامها،
ونحن نوصيكم بالخبير خيراً لتحملوه هو وأتباعه وعبيده^(١). وقد رد عليه بونايرت
برسالة إلى السلطان عبد الرحمن سلطان دارفور، تناولت خطابكم وفهمت فحواه،
واعلموا أن قافلتكم قد وصلت حين كنت متغيّباً في بلاد الشام أعاقب أعداءنا
وأدبرهم، والآن طلبى إليكم أن ترسلوا لي مع أول قافلة ألفى عبد من العبيد الأشداء
المتجاوزين السادسة عشرة من العمر إذ مرادى أن أبتاعهم لنفسي والأمل أن نوزعوا إلى
القافلة بسرعة القيام ومواصلة السير الخفيف، وها أنا أمرت من يلزم بحمايتها ووقايتها
حيث تكون^(٢). الإمضاء بونايرت القائد العام للجيش الفرنسي^(٣).

إن الأعراف والضوابط التي حكمت الاسترقاق في سلطنة دارفور من الغزو أو
الأسر أو الاختطاف أو الإتاوة أو المقايضة لا تختلف من تلك الأعراف والضوابط في
جوهرها عن ممارسة عمالك حزام الساكالا الإفريقية المتجاورة. ولكن كانت الغزوات البية
فاعلة بين الآليات الأخرى إذ كانت غزوة الرقيق ضرورية للسلطان وكبار الأعيان
والرعايا والتجار، ولحياة الدولة الاقتصادية، وكانت تتجلى في تنظيم الغزوة عوامل
النفوذ العكري والخبرة السياسية فكانت الغزوة في واقع الأمر دولة سودانية
متحركة^(٤). وكانت أكبر الغزوات تلك التي يأذن بها السلطان فكان يحدد الطرق التي
تسلكها الغزوة والمنطقة التي يصطاد فيها الرقيق تحسباً للتنافس والتصادم بين
مجموعات الغازين، وأحياناً حماية للمبائل والأقوام المتعاقدة مع السلطان على إتاوة
سنوية من الأرقام، وكثيراً ما كان يبادر شيوخ القبيلة المعتدى عليها للتوصل إلى اتفاق
مع أمير الغزوة، ويقدمون له عدداً من الرقيق حقناً لدعاء أفراد القبيلة وحفاظاً على كيان
القرى والعشائر التي تعصف الغزوة باستقرارها. ومن حصيلة الغزوة المأذونة ينال
السلطان الخمس وينال العشر من حصاد الغزوات التي ينظمها الغزاة.

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٧٨.

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٨٦.

وفى المرتبة الثانية من حيث الحجم والمدى تأتي الغزوات التى ينظمها سلاطين الغزوات ويمولها التجار، وعندما يشتهر سلطان الغزوة بالمهارة ووفرة الصيد كان التجار يغدقون عليه كميات أكبر من المؤن والبضائع مقابل تصيب فى الحصاد، وينال التاجر الممول نصيباً أكبر إذا سار مع الغزاة ويقل إلى السدس إذا انتظر عودتهم ولم يرافقتهم^(١).

كان الرقيق فى حرس وجيش السلطان سمة ملازمة ومتوارثة فى سلاطين القور، من حملة الخراب حتى حملة الأسلحة النارية (بعد الحصول على البنادق والبارود فى عصر لاحق). كذلك كان الرقيق هم الحفر على مداخيل قصر السلطان وأمناء مخازنه وهم من يسيطرون ويبخرون مخدع السلطان. وقد وصل بعض الرقيق أن يصبح قوة ذات وزن فى حاشية السلطان وجهازه الإدارى وجيشه، وتشوذ فى سياسة السلطنة والصراع على السلطة نتيجة سياسة توسع الدولة^(٢).

باختصار كانت سلطنة دارفور بحكم الموقع والتاريخ مركز تقاطع طرق التجارة العابرة وقوافلها شرقاً وغرباً وجنوباً من المحيط الأطلنطى إلى البحر الأحمر والحجاز، ومن خط الاستواء إلى شواطئ البحر الأبيض فبى متجع المسيرة الطويلة لمسلمى غرب إفريقيا ووسطها نحو الأراضي المتقدمة، وكانت تنطلق منها فى كل عام قافلتان: الأولى قافلة المحمل لكسوة الكعبة الشريفة تصدقاً وتباركاً تتبعها كوكبة من الأرقاء والخصيان لخدمة الحجيج، والثانية قافلة إتاوة سلطان دارفور لسلطان المسلمين فى الباب العالى قوامها رؤوس من الرقيق ذكوراً وإناثاً وصبايا وصبياناً^(٣).

● السودان الموحد

فى القرن العاشر الميلادى عندما أتى الفاطميون إلى مصر وما تلاهم من دول الأيوبيين والمماليك تحولت مصر من ولاية فى الدولة العباسية إلى دولة مستقلة ولها قوة ذات بأس فى المنظمة الإسلامية من العالم، وامتدت جنوباً إلى النوبة؛ حيث كانت تقوم

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق ص ٧٧.

(٢) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق ص ٨١.

(٣) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق ص ٧٥.

مملكتان مسيحيتان ورثتا الحضارة الإفريقية، واستقر تجار مسلمون هناك في أحياء منفصلة وكانوا يتاجرون مع مصر ويصدرون إليها الماشية والعاج وجلود التماسيح وفوق ذلك كله كانوا يصدرون العبيد، هؤلاء العبيد كان يستخدم منهم النساء مريضات والرجال يستخدمون جنوداً أو خدام منازل.

وكانو يستوردون لا من النوبيا فقط ولكنهم يردون إليها من مناطق شاسعة تمتد من أثيوبيا إلى دارفور. ومع نهاية الدولة الفاطمية هبط الطلب على الجنود العبيد هبوطاً شديداً، وكان أحد أسباب ذلك هو ولاؤهم للدولة الفاطمية ولأه جعلهم يتمردون دفاعاً عنها، وعلى أي حال فإن هؤلاء العبيد النوبيين بنى الطلب عليهم من أجل الخدمات المنزلية، وغيرها، وبقيت الأسواق في مصر وغيرها.

وفي أواخر القرن الرابع عشر فإن غارات العرب في إفريقيا كانت تمتد الأسواق المصرية بعبيد مجلوين من بحيرة تشاد وبعضهم كان قوياً لمملكة بورنو الإسلامية.

وكان التجار المصريون نشطين في أثيوبيا يتاجرون مع المملكة المسيحية المستقلة هناك ومع الدول المسلمة الموجودة جنوبها، وكانت تجارتهم في الكتان والقطن والمنسوجات الحريرية والأسلحة والعاج والبيهارات والعبيد على وجه الخصوص.

وكان العبيد في هذه المناطق ذوى قيمة عالية لسمعتهم الطبية وأمانتهم وإمكان الاعتماد عليهم، وكان منهم الخصيان الذين يجلبون من جنوب غرب أثيوبيا^(١).

ولما فتح العثمانيون مصر وأزالوا دولة المماليك منها في أوائل القرن السادس عشر وقتل بشكل حاد استيراد العبيد من جورجيا وبلاد القوقاز، زاد الطلب على عبيد السودان من مصادره الوفيرة الآتية من أعالي النيل، حيث كانوا يجمعون في الفاشر وواحات أخرى وينقلون في طريق صحراوي إلى سوق كبير في أسبوط على بعد حوالي ٢٥٠ ميلاً جنوب القاهرة. وكان الوارد السنوي عبر هذا الطريق يقدر بما يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف من الرقيق أغلبهم من النساء. ثم في سنة ١٨٢٠م حين فتح محمد علي شمال السودان تحت على يديه مدينة الخرطوم من قرية

(١) المرجع السابق، P. 94-95. Islam's Black Slaves

صغيرة يعمل أهلها بصيد السمك إلى أن تكون العاصمة الإدارية والتجارية، وصارت الخرطوم مركزاً لتجميع العبيد وترويعهم ومنهم من كان يجمعهم الجلابه عبر الحدود مع أثيوبيا^(١).

كانت الحكومة المصرية تشد جمع الرقيق من أجل الجيش، وفي سنة ١٨٣٨م كان الوارد إلى مصر سنوياً ما بين ١٠ و ١٢ ألف من العبيد، وكان الرجال منهم يردون أساساً من أجل الخدمة العسكرية، أما النساء فكان يردن من أجل الاحتياجات المنزلية. وقد زار محمد علي السودان في ذلك الوقت وانزعج جداً من حملات اصطياد العبيد وأمر بوقفها على الفور، وحرر نحو خمسة آلاف من العبيد المقتنصين ومع ذلك بقيت حملات اصطياد العبيد وزادت ووصلت إلى الجنوب والجنوب الغربي، وفي الستينيات من القرن التاسع عشر كتب القنصل البريطاني في الخرطوم الذي كان يعمل في تجارة العاج كتب عن آلاف العبيد الذين بيعوا في أسواق الأبيض وكردفان.

وخارج سيطرة الحكومة المصرية كان العرب الأفارقة لهم مجالهم الخاص، كان هناك الجعليون جنوب النوبة الذين يقولون إنهم عرب ينتمون إلى سلالة العباس عم الرسول، ولكنهم كانوا نوبيين أكثر منهم عرباً، وفي بداية القرن التاسع عشر ارتبط الجعليون بهذه التجارة عبر طريق الجنوب الموصل إلى أثيوبيا والطريق المتجه شرقاً إلى سواكن على البحر الأحمر والمتجه غرباً إلى كردفان وسلطنة الفور.

ثم جاء الفتح المصري للنوبة فلم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للعمليات التي يقوم بها التجار الجعليون وتوطنوا في الخرطوم مع عناصر من أقباط مصر والشام وامتد عمل تجار الرقيق إلى بحر الغزال ثم جنوباً إلى إفريقيا الاستوائية. ولأن الحكومة المصرية لم تكن تريد أن تهد نفوذها بعيداً إلى هذه المناطق فإن التجار أنشأوا سلطتهم الخاصة بهم بمعسكرات مسلحة تحمل بواسطة الجنود انعييد المسنحين بالبنادق، وكان أغلب التجار يتمركزون في الخرطوم ويجندون المساعدين لهم من الجعليين المقيمين فيها وسموا خراطوميين^(٢).

وإن جعلياً من هؤلاء يسمى الزبير وحسة منصور وكان تاجراً في بحر الغزال في خمسينيات في القرن التاسع عشر قد أقام قيادته العسكرية والسياسية على جعليين

(١) المرجع السابق، P. 150. Islam's Black Slaves.

(٢) المرجع السابق، P151. Islam's Black Slaves.

آخرين، وفي عام ١٨٦٩م، استطاع أن يخضع بحر الغزال ويسيطر عليه، وفي سنة ١٨٧٤م كان من القوة بما مكنه من غزو سلطان دارفور، الأمر الذي استفز الحكومة المصرية فأرسلت حامية عسكرية قبضت عليه وسيطرت على المنطقة التي كان يحكمها.

كان الزبير يؤسس حكمه باعتباره جزءاً من دولة الخلافة الإسلامية، ويظهر ذلك من خطاباته التي كان يرسلها إلى مصر وإلى حكام دارفور الذين كان يطلب منهم الانصياع لسلطة الدولة الإسلامية، غير أن الزبير وقع في خلاف بينه وبين المسئولين الأوروبيين التابعين لخدّيو مصر أمثال غوردون البريطاني وجسي الألماني، فاستدعى الزبير إلى القاهرة ليسأل أمام الخديو ولم يسمح له بالعودة إلى السودان مرة أخرى. وكان أشد ما أشيع ضد الزبير من اتهامات هي تجارة الرقيق وكان مصدرها الإداريون الغربيون في جنوب السودان، ونفى الزبير عن نفسه هذه التهمة بقوله «أجزم بكل صدق أنني لم أبع في حياتي عبداً واحداً، ولم يكن لي دخل أو صلة بما يجري من تجارة الرقيق سوى أنني كنت أشتري عبيداً للتجنيد، وأن القوافل كانت تمر فعلاً في أراضى إقليمى وأنها كانت تستعمل اسمى لحمايتها، أما ما يقال من إننى كنت أملك ثلاثين محطة للرقيق فإنه محض هراء وليس بصحيح إطلاقاً، إننى لم أبعث برأس رقيق واحد إلى القاهرة أو إلى إسطنبول في كل حياتى»^(١).

عندما غادر الزبير عاصمته (ديم زبير) مستجيباً لدعوة الخديو كلف ابنه سليمان ليحل محله في إدارة الحكم حتى عودته من مصر، ولكن الخديو أمر بحبه وظل حبساً تحت الإقامة الجبرية، أما سليمان فقد واجه ظروفاً عصيبة إذ تكاثفت الضغوط عليه في وقت تزايدت معه الحملات الاستعمارية على المنطقة. وخرج سليمان على رأس أربعة آلاف مقاتل لمواجهة غوردون ودارت معركة هزمت فيها سليمان وفر إلى دارفور ونصحه أبوه الزبير بالتسليم وعارضه في ذلك قائد جيشه رابح فضل الله. ولما أتم سليمان التسليم أوثق هو وأقاربه ورموا بالرصاص.

كان رابح فضل الله من القادة العسكريين في جيش الزبير وصار أشهر تاجر رقيق في منطقة دارفور، وعندما رأى ما حاق بسليمان وجنوده أعد قوة عسكرية من أتباعه

(١) العلاقات السودانية التشادية/ د. كمال محمد عبيد (إصدار جامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم) ص ٦٩.

الجليين والجنود العبيد وتحركت من غرب دارفور إلى منطقة جنوب وداي وعملوا على جلب العبيد حتى سنة ١٨٩٣م، وقد أعدت وداي جيشاً ضده فهزم جيش وداي فتقدم غرباً حتى فتح مملكة بورنو، وأثار ذلك صراعاً بينه وبين التومسغ الإمبريالي الفرنسي، وهناك اشتبك مع القوات الفرنسية وقتل قائدها «لاكى»، وجرح رابع في المعركة ثم قتل بعد ذلك وتولى ابنه فضل الله القيادة فهزم وقبضت عليه القوة العسكرية الفرنسية سنة ١٩٠٠م وعُلقت رأسه على أحد الأعمدة كرمز بظهور مصير كل من يواجه هذه القوة الجديدة التي توغلت بشكل عميق في إفريقيا.

ويذكر رونالد سيجال في كتابه «Islam's Black Slaves» أنه في عام سنة ١٨٦٩م كان الحاكم المصري وعائلته لديه بضع مئات من العبيد يعملون في مزارع السكر الخاصة به في صعيد مصر وكانت الزوجات المتعددات للرجال المياسير لدى كل منهن جارية، وحتى موظفو الحكومة في المستويات الأقل كان لديهم عبيد في منازلهم والمزارعون المالكون لمزارع صغيرة كانوا يملكون عبيداً، واستخدمت أعداد كبيرة من العبيد في مشروعات الري، وكان تسعة أعشار من يعملون في مشروعات الري في إسنا من العبيد، وقد عين شارلز غوردون حاكماً للمديرية الاستوائية في سنة ١٨٧٣م وقال غوردون إنه فيما بين أعوام ١٨٧٥ - ١٨٧٩م فإن عدداً يتراوح ما بين ٨٠ ألفاً و ١٠٠ ألف من العبيد اصطيدوا من منطقة بحر الغزال وصدروا إلى الشمال.

ويقول سيجال ومهما كانت القاهرة تصدر من تصريحات تستنكر وتنكر علاقتها بتجارة العبيد فإن الحكومة المصرية كانت متورطة في هذه التجارة وأنشأت مراكز تجمع للعبيد تفشى في بعضها الأمراض. وإن كبار السن كانوا يذكرون أن لكل عشرة عبيد يصلون إلى القاهرة كان هناك خمسون يموتون في الطريق، وكان بعض كبار الموظفين المصريين يتكسبون من هذه التجارة وكان المديرون والبعض من رؤساء العسكريين يعتبرون شركاء في عملية نقل العبيد. وأنه تحت ضغط بريطاني شديد عقدت الحكومة المصرية معاهدة مع الإنجليز تحرم استيراد وتصدير العبيد السودانيين والأثيوبيين وتمنع السفن البريطانية سلطنة وقف القوارب والزوارق والمراكب وتفتيشها ومعرفة ما إذا كانت تحمل عبيداً على طول البحر الأحمر وخليج عدن والمياه المصرية.

على أنه يجب ملاحظة أن أقوال مسيحيال وغيره من المؤرخين الأوروبيين تستند في الدور المصري في تجارة العبيد إلى كتابات وتقارير لأمثال صمويل بيكي وغوردون وغيرهما من شغلة الاستعماريين الإنجليز، وكانت كتاباتهم هذه جزءاً من الحملات التي شنوها على مصر وغيرها لتبرر ضغوطهم عليها وليقتنعوا منها ومن غيرها المعاهدات والاتفاقات الدولية التي تبيح لهم مراقبة الطرق وحرق تفتيش السفن في المياه الإقليمية.

• رقيق الثورة المهدية

قامت الثورة المهدية في السودان سنة ١٨٨١م وكان أول انتصاراتها على الحكومة المصرية في واقعة أبا في أغسطس سنة ١٨٨١م. واختلقت الأوضاع في السودان، فأتباع الحركة الإسلامية الأصولية تحت قيادة المهدي سيطروا على الأبيض عام ١٨٨٣م وأبادوا الجيش البريطاني هناك في نهاية ذلك العام وسيطروا على بحر الغزال وهو المنطقة التي يسطاد فيها العبيد.

وشغلت ظاهرة الرق والاسترقاق الثورة المهدية، كان الرقيق شأنًا محوريًا في شئون الدولة وفي معاش رعاياها لتغلغله في لحمه للمجتمع. كان الرقيق سلعة إستراتيجية وموردًا إستراتيجي للمجندين في الجيش التركي وفي جيش المهدية واليد العاملة في الإنتاج والخدمات، فأمرت الثورة بمنع التداول في الرقيق ومن يضبط منهم يرسلون إلى بيت المال.

كان إلغاء الرق والاسترقاق، إجراءً اقتضته الإستراتيجية العسكرية للمهدية وهي تجنيد الرقيق في جهادية المهدي، ووعد المهدي الأرقاء بالعقوبة إن التحقوا بالجهادية ووعد الملاك بالتعويض عن أرقائهم المجندين، كما أمر بمركزة بيع الرقيق في الداخل تحت إشراف بيت المال في أم درمان ومنع بيعه في الأقاليم منعاً تاماً حتى لا يصلوا إلى الكفرة (يقصد الجيوش التركية).

وإن اتساع رقعة الحرب والفتن والصراعات وكثافة الرقق المختتم وتقييد الانحياز بالرقيق داخلياً ومركزة التعامل به في بيت المال ومحاصرة الحدود كيلا يتسرب الرقيق للأعداء وتحولوا إلى قوة مقاتلة ضد المهدية وتجنييد الرقيق في الجهادية، كل ذلك

أدى إلى ضائقة مالية على بيت مال المهدي أدت في النهاية إلى بيع الرقيق لفك الضائقة ورفع المعاناة^(١).

الرقيق والجهادية

في مجتمعات الرق والاسترقاق كانت الجندية مسرباً من مسارب الأرقاء نحو الانعقاد الذاتي . فقد أعلن المهدي وعده بعق الأرقاء الذين يلتحقون بالجهادية ، وأردف وعده بخطوات عملية في الإصلاح بتشجيع زواج الجهادية والعناية بأسرهم ، والإقامة المشتركة مع الملازمين في تجمعات ومعسكرات مشتركة بغرض التربية ، مما كان له أثره في إحساسهم بقدر المساواة ، وفي اكتساب قيم معنوية وروحية جديدة بل والأخذ بشهادة الجهادية في المحاكم^(٢).

كانت الجهادية ظاهرة عسكرية أملت فيها الضرورة الاستراتيجية ، ولكن الخليفة المهدي عالج وضعها بحكمة إذ أمر بجمع الجهادية في البقعة في محل واحد لأجل التربية ، وأُنذر بالعقاب لكل من يقف معه جهادي أو عبد ذكر يحمل سلاحاً ، وأن يرسل إلى بيت المال الرقيق الذي مات ماله وليس له وريث وأن الذكور الصالحين لحمل السلاح ينهبون لبيت المال ويضمون للجهادية ، أما الإناث فلا مانع من بيعهن .

رقيق بيت المال

بعد سقوط الخرطوم ومقتل غوردون القائد الإنجليزي في يناير سنة ١٨٨٥م استولى بيت المال على كم هائل من الرقيق ضمن ما استولى عليه من مخلفات الحكم التركي وممتلكاته الحكومية . وكان بيت المال قد اكتسب خبرة في التعامل مع الرقيق كمورد ثابت من موارد إيراداته العينية والتقنية منذ استيلاء المهدي على مدينة الأبيض وما تبعها من حصار سقوط الخرطوم ، وظل بيت المال يفرض رقابته الحازمة على حركة تجارة رقيق حتى نهاية المهدي ، فهو المنظم والمشرع على سوق الرقيق ، وهو الموثق

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٩٦ .

للمبيعات وهو المتصرف فى الرقيق الناجل وهو المالك باسم الدولة للرقيق المسخر فى مؤسساتها ومرافقها. وهذه ظاهرة عامة مشتركة فى كل المجتمعات فى الدول والدويلات التى مارست الرق والاسترقاق.

وقد زاد عدد الرقيق الذى تجمع من غنائم الحروب وتكاثر بحيث أصبح عبثاً، وصرف على معاشه الكثير إلى الحد الذى اقترح على المهدي بيعه أو توزيعه على جهات لتصرفه وانتفاع المسلمين بتوريد ثمنه لبيت المال، ومن يتصفح دفاتر مالية المهديّة يتعرف على الوارد من صنف الرقيق والمتصرف منه لصفوف الجهادية أو المباع أو العامل فى الخدمة أو المسلم لأربابه أو المعطى هدايا وإحساناً، والتافق والهارب والمريض والأطفال والمواليد. يقول محمد إبراهيم نقد فى كتابه «علاقات الرق فى المجتمع السودانى» (السابق الإشارة إليه فى المراجع) إن الرق والاسترقاق لم يكن ظاهرة عابرة، هامشية لاحقة بالجسد الطاهر الثنى للمجتمع السودانى، إنما كان عنصر تكوين أساسى من بين عناصر تركيب المجتمع وإنتاجه وخدماته وتجارته وحربه وسلطه وقيمه النفسية والأخلاقية ومراتب هيكله الاجتماعى وتقسيمه الاجتماعى للعمل والموقف من العمل والخدمة والفعل اليدوى فى منظومة ونسق وسائل كسب العيش وحياة الأسرة^(١). أى أن الرقيق كان من نسيج المجتمع: رقيق فى الزراعة، ورقيق فى المراعى وتربية الماشية، ورقيق فى القوافل ونقل وترحيل البضائع، ورقيق فى خدمات الأسرة، وأطقم السرارى فى الجيش. ونشير وثائق التهديّة إلى أن الرقيق كان السلعة أو الشيء المفضل على غيره بعد الذهب فى هجمات السلب والنهب لقيمته النقدية والعينية كسلعة وكأداة نقل وحراسة لما نهب وسلب، ويقدر ما كان الأنصار القاسم المشترك فى عمليات السلب والنهب لأهله ومعاقبة الجناة، نادراً ما أفلتوا.

والظاهرة فى جيش المهدي أن عدد الإماء كان يفوق عدد الذكور الرقيق المرافق للجيش؛ لأن الإماء زوجات الجهادية كن يفضلن مرافقة أزواجهن ويتحصلن مشاق الحملة ومخاطر القتال على مهانة البقاء بعد رحيلهن فيسوقن سيدها فى سوق النخاسة أو يزوجهن الرقيق آخر.

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المراجع السابق - ص ١٠٥

أما الرقيق الهامل الذى وجده السلطات الخاصة مركزية كانت أو محلية ولم يعرف مالكه، فهى تضعه تحت التحفظ فترة تنتظر أن يفتقده مالكه ويبحث عنه فإن ظهر له مالك رده إليه بعد أن يدفع مصروفات إعاشته فترة احتجازه فى صورة رسوم يؤديها، وإن لم يظهر له مالك فى الفترة المعلومة يبع فى سوق النخاسة ويعلن فى المزاود عن هويته وينص عليها فى عقد البيع، وعادة ما يكون ثمنه أقل من قرنائه؛ لأن حائزه وهو الدولة ليس لديها بائع على أن تساوم لرفع سعره؛ ولأنها تريد أن تتخلص منه تخففاً من أعباء معيشتة وحراسته، وعادة ما يصر الشارى على أن يثبت فى عقد البيع هويته منعاً من أن يظهر بعد ذلك من يناقسه فى هذه الملكية ويدعى أن الرقيق رقيقه.

وقد اشترع المهدي فى حياته إعادة الرقيق الذى دخل بيت المال خطأ إلى أربابه أو استولى عليه بيت المال بغير وجه حق، واسترداد الملاك لأرقائهم إذا انتزعوا منهم عنوة، ولضبط حركة الرقيق ومخاطر السلب والنهب واستعادة الرقيق الهارب كان المهدي أو الخليفة أو أحد عماله بمنح إذن «أمن الطريق» لكل مسافر أو أسرة متقلة من منطقة لأخرى يحوى عدد الأرقاء وأوصافهم وأسماءهم ليسهل البحث والتعرف عليهم فى حالة السلب والنهب، وللسماع لهم بالمرور عبر دوريات الأنصار فى الطريق وللاطمئنان فى توثيق المبايعات إذا اضطر مالك الرقيق إلى بيع جزء منه خلال السفر.

سوق النخاسة

يصف سلاطين باشا سوق النخاسة بقوله: «أنشأ الخليفة السوداني (المهدي) فى أم درمان فى ساحة فسيحة قريبة من بيت المال بيتاً من الطوب تعرف بسوق الرقيق... وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع فى السودان فمن حق الباعة والشارين أن يفحصوا رقيقهم فحصاً دقيقاً من الرأس إلى باطن القدم دون أى قيد كما لو كان هذا الرقيق من فصيلة الحيوانات الوضيعة، فكان الشارى يفتح فم المرأة ليرى حال أسناتها وأضرارها ثم يأمر البائع ليرفع ما عليها من عطاء على النصف الأعلى من جسمها ليفحصها فحصاً دقيقاً.

واستهجان سلاطين لمعارسات «ضبط الجودة» فى سوق النخاسة ينطوى على نفاق خبيث فهو صاحب القناعة بالتحصيل الرديئة الكامنة فى العرق الزنجى يقول: «عبثاً الذى

نسعى للارتقاء به إلى مستوانا فلا تستحق هذه الخنازير التي كتب عليها الشقاء أن تعامل كما لو كانت ذوات حرة^(١). هذا ما سجله سلاطين عندما عين مفوضاً عاماً لشئون الرقيق بعد إعادة فتح السودان في إدارة الحكم الثاني. ولا تختلف صورة سوق الرقيق في المهديّة عن سوق الرقيق في أسواق غرب القارة ووسطها.

امتدت إصلاحات المهديّة إلى الرقيق، وشعر الرقيق بأن معسكرات الجهادية تثقل نوعاً من الملاذ الآمن ولو بعد حين، وأن مرتب الجهادي ومعايشه الشهوي يضمن لقمة عيش تقيم الأود، وأحسن شباب الأرقاء أن الالتحاق بصقوف الجهادية ينقذ من الاسترقاق ولو شكلياً، ومن جانب آخر فرضت الإستراتيجية العسكرية منع تصدير الرقيق وتفادي فتح جبهة غزوات عسكرية لصيد الرقيق في الجنوب والجنوب الغربي، كما فرضت الإشراف المركزي على الاتجار في الرقيق ونوثيق المبيعات. وفي الشق الاجتماعي للإصلاحات حرمت المهديّة الخصى ومنعت تفريق شمل العائلة خاصة الأم والطفل وشجعت على زواج الأرقاء واستقرارهم وأباحّت الأخذ بشهادة الجهادية في المحاكم. ولكن الرقيق ظل رقيقاً برغم الإصلاحات فلم تسقط عنه صنعته ولا استعاد ذاته المسروقة^(٢).

رقيق الحكم الثاني

بنود اتفاقية الحكم الثاني الخاصة بالرق:

عندما سيطر الإنجليز على السودان بعد معركة أم درمان سنة ١٨٩٨م ضعفت آثار الحرب المشرقة، كما ضعفت الإغارات المستمرة سعيًا وراء العبيد في بحر الغزال والتي كانت قد استنزفت شعب الباري حتى أن آثارها امتزجت واضحة في العشريّات من القرن العشرين.

عقدت اتفاقية الحكم الثاني على السودان بين مصر وبريطانيا عام ١٨٩٩م نصت المادة الحادية عشرة من الاتفاقية على أنه ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره. ولكن المعضلة التي واجهت إدارة الحكم الثاني تمثلت في أمرين:

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ١١٥.

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ١١٧.

(١) إن الإدارة لم تتوافر لها موارد لاستيعاب الأرقاء في عمل أو خدمات .

(٢) احتشية من اندلاع مقاومة ملاك الرقيق بعد أن عرفت تلك المقاومة خلال معارك المهديّة ، لذلك ظل موضوع الرقيق في صلب جدول أعمال وتقارير الإدارة لقراءة عقدين وأكثر .

فعند التطبيق فوجئت إدارة الحكم الثنائي بحجم وعمق جذور المشكلة وتعقيداتها ، إذ كيف يعيش الرقيق بعد عتقه ولما يملك وسيلة كسب عيشه؟ كيف يعيش الملاك وقد فُتنت من قبضتهم وسيلة إنتاج وأداة خدمات؟ كيف يتدير المجتمع شئون حياته اليومية ولم نرى بعد آليات التطور الباطني الذاتي لقواه المنتجة وإنتاجية عملها للمستوى الذي يتقد فيه عمل الرقيق جدواه الاقتصادية وإن لم يفقد جدواه الاجتماعية؟ .

ظلت الإدارة أسيرة التناقضات الكامنة في مياستها العامة تجاه تصفية مؤسسة الرق وعلاقات الاسترقاق . وعلى طول عقدين من ١٩٠١ إلى ١٩٢٤م غرقت في مشكلة تزيق المتعددة الأوجه : الرقيق الآبق والرقيق الجند المرحون والجنود الذين يحرضون محارمهم على نزع اليد من ملاكهم والأرقاء الذين هجروا مهد الاسترقاق وهاموا على وجوههم ، فابتدعت إجراءات واستحدثت مناهج كان يصعب تطبيقها وكانت تراجع من فرضها .

ففي عام سنة ١٩١٩م أصدرت مذكرة بعنوان «ضوابط رقيق البيت» من خمسة عشر بنداً تعدل وتبديل في ثوابت السياسة العامة جاء في البند الرابع «ليس من المرغوب فيه أن يلبس في مصلحة المجتمع أن يترك الرقيق البيرت التي نشأوا بها ليجدوا أنفسهم سحليين بلا عمل فيلجؤون للسرقة والدعارة» . وفي البند التاسع «كثيراً ما يحدث أن تقوم وضع الأرقاء الذين عاشوا سنوات طويلة مع عائلة سيدهم أفضل وأسهل إذا سمروا كجزء من عائلة السيد ، وليس المقصود مساعدة الملاك على الاحتفاظ بالأرقاء في حالة استرقاق وإنما المقصود حماية الرقيق نفسه وحماية المجتمع» .

وفي عام ١٩٢٤م أصدرت مذكرة أخرى حول ضوابط رقيق البيت جاء فيها «عندما رغب رقيق في ترك سيده الذي عامله معاملة حسنة فلا مانع من تسوية طوعية بينهما يجوز لمقتضى المراكز التدخل من تلقاء أنفسهم في قضايا الأرقاء القانعين بالإقامة عند سيدهم مع سادتهم على ألا يمنعوا عنهم أوراق الحرية إذا طلبوها» .

وفى عام ١٩٣٦م أى بعد ٣٧ سنة من منع الرقيق فى السودان أصدرت الإدارة البريطانية مذكرة بعنوان «الرق فى السودان»: إن استئصال جميع أغراض هذه المؤسسة (مؤسسة الرق) بضربة واحدة كان سيتسبب فى مصاعب جمّة وكان سيتج عنه خطر عام بتكوين طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين دون فرض عمالة لاستيعابهم وهم فى عجز تام عن كسب العيش بصورة مستقلة، لهذا سمحت حكومة السودان ببعض أغراض الاسترقاق التى لا اعتراض عليها فى أن تبقى طالما أنها لا تضر الرقيق وطالما كان الرقيق قانعاً بها، ولكن لا يمكن التأكيد القاطع أن أساس بقاء تلك الأغراض هو التوافق الطوعى الحري بين الطرفين^(١)، وهكذا اعترفت بريطانيا صراحة بأن سمحت حكومة السودان ببعض مظاهر الرق والاسترقاق، وعدم توافر عماله لاستيعاب الأرقاء، ومخاطر نشوء طبقة كبيرة من الأرقاء السابقين عاجزة عن كسب العيش بصورة مستقلة^(٢).

الأوضاع تختلف

فى مصر: إن الدعوة فى عام ١٨٨٩م لوقف تجارة العبيد واستيرادهم فى مصر، هذه الدعوة تخالف الحقيقة، فإن العبيد وخاصة الجوارى كانوا يأتون إلى مصر من السودان وبعضهم كان يقال إنهم لاجئون فى خلال فترة حكم التعايش خليفة المهدي، واستمر الوارد منهم إلى الشمال ولم تكن القوانين تطبق بصراحة كافية؛ لأن المسلمين كانوا ينظرون إلى قوانين المنع لتجارة الرقيق باعتبارها تعدياً على الدين أو انتقاصاً لحقوقهم الدينية^(٣). وقد كان نظام الحريم يساعد على اختفاء أعداد الجوارى فى البيوت فى المدن والحوضر، أما فى الواحات البعيدة فقد بقي النظام وتجارته بعيداً عن عيون السلطات الرسمية.

وعلى كل حال هناك من العناصر ما ساعد على تقليل تجارة العبيد منها المخاطر الناجمة عن اكتشاف وجود العبيد والجوارى الذى يؤدى إلى المصادرة بغير تعويض وإلى عقاب المالك، جعلت الاستثمار فى العبيد استثماراً خطراً، ثم إن النفوذ الثقافى

(١) علاقات الرق فى المجتمع السودانى - المرجع السابق - ص ١٢٧ -

(٢) المرجع السابق P. 153 Islam's Black Slaves.

لغربي بما يتضمنه من إدانة خاصة لنظام العبودية صار له تأثير فضلاً عن غو سوق العمل
آخر لاقتصاديات المدن المتوسعة، وقضلاً عن كل ذلك فقد كان غزو الإنجليز للسودان
هو ما قطع السبيل أمام هذه التجارة. وطبقاً لما ذكره اللورد كرومر سنة ١٩٠٤م لم تعد
هناك تجارة للعبيد في مصر، وكان ذلك بسبب أن سياسة الاستعمار الإنجليزي للسودان
كانت قد استعاضت عن بيع العبيد الإفريقيين خارج أراضيهم، استعاضت عن ذلك
باحتلال أرض السودان والاستيلاء على ما بها من ثروات، وكان ذلك يحتاج إلى
سحب العمالة السودانية في أرضها ليقوموا بهذا العمل.

في كردفان: كانت الإغارات تقوم بها قبائل البقارة والكبابيش، وكانت مهور
العرائس تدفع رهوساً من العبيد إلى آبائهن، وأن تجنيد العرب المحليين في فرق الشرطة
في الأبيض سنة ١٩٠٢م، له بعض الأثر، وبما كان له بعض الأثر أيضاً الحكم على تجار
العبيد بالسجن خمس سنوات، وكذلك إنشاء مراكز عسكرية سنة ١٩٠٨م على الحدود
بين بحر الغزال وإفريقيا الاستوائية الفرنسية (إفريقيا الوسطى حالياً)، مما مكن من
السيطرة على هذه المنطقة التي كانت مصدراً للعبيد.

في النوبة: كانت جبال النوبة مصدراً للرقيق وموقعاً للاسترقاق، لم تنحصر
المشكلة في عتق الأرقاء من القبائل العربية وإنما امتدت لعتق الأرقاء في بعض قبائل
النوبة التي استقرت بعضها البعض، وتشجيع الرقيق المعتق على العودة إلى قراه التي
أفزعها تجارة الرقيق، وبذلت جهود لإقناع الأرقاء السابقين الذين أصبحوا أحراراً
للعودة إلى قراهم كرجال أحرار وتأكيد الضمانات اللازمة كي تصبح حرثهم حقيقة،
خاصة أن عدداً كبيراً ممن يسمون بالأرقاء تزوجوا في عائلات ملاكهم، وعادة ما
يهربون نتيجة نزوة أو استياء.

في دارفور: بعد هزيمة علي دينار في مايو سنة ١٩١٦م، وضم دارفور للحكم
الثاني وضعت الإدارة خطة للتعامل مع الرقيق، وشرعت في تشجيع الأرقاء والملوك
على أسلوب الفدية للمعتق، ولكن الرقيق عجز عن دفعها، وكان لهزيمة علي دينار
أثرها في هروب ونزوح آلاف الأرقاء غرباً وجنوباً خاصة أن جيش السلطان كان قوامه
من المشاة وأغلبهم من الأرقاء، إضافة إلى أعداد كبيرة منهم في الأسلحة والتشكيلات

العسكرية الأخرى وأرقاء الحاشية والتصرف وأرقاء الأعيان في أنحاء السلطنة، وكان السلطان بحكم تقاليد المنصب الكبير أكبر مالئ للرق، وانتهيار حكمه أحدث فوضى صعب معها إحكام مقاومة الرق.

المناطق الشرقية من السودان: أما التجارة في المناطق الشرقية من السودان على طول البحر الأحمر التي كان يصدر منها العبيد بالسفن إلى أسواق الجزيرة العربية فقد كانت مقاومة التجارة أكثر صعوبة في هذا المكان، وكان القبض على ٥٨ تاجراً والحكم عليهم بالسجن سنة والنصف في يناير سنة ١٩٠٥م مما قلل حجم التجارة في الشرق.

أثيوبيا: كان سوق الطلب التقليدي يتعلق بالعبيد الأثيوبيين وعلى الأخص من الأورومو الذين كانوا يعرفون باسم «الجالا» وهو تعبير عدواني مثل النجرو والكافر أطلق عليهم من سادتهم الأمهرة. وكان ذلك بسبب بشرتهم الفاتحة الأقل سواداً، وكانوا يطلبون من أجل أجسامهم النحيلة وملامحهم المتناسقة وعيونهم الجميلة وطولهم واستقامتهم وشعرهم الأقل تجعيدا، والمتبع في السوق أن كان ينسب الجمال إلى فتيات الأورومو وينسب الذكاء إلى فتيان الأورومو.

وفي القرن التاسع عشر كان العبيد الأورومو يكثرون في أسواق التصدير في جوندار وجالابات شمال غرب أثيوبيا، وكانوا هم الفريسة المفضلة ويقدمون إلى التجار المسلمين بواسطة رؤساء الأورومو في المناطق الغربية لأثيوبيا، ورغم أن إمبراطور أثيوبيا تيودور أصدر مراسيم ضد تجارة العبيد فقد كان هو نفسه يرسل قوافل من العبيد عبر طرق تجارة مأمونة. وفي سنة ١٨٦٦م فإن ألفاً من المسيحيين وخاصة من الأورومو كانوا يبيعون كل سنة، وقد بيع نحو ٥٠٠ في أيام قليلة في سوق جالابات وحدها. وكان التجار المسلمون يجمعون العبيد في زيلع وتاجورا ثم ينقلونهم بالسفن إلى أسواق مصر والجزيرة العربية وتركيا، وكانت دعواهم أنهم مسيحيون أو وثنيون.

وفي سنة ١٨٨٤م، فإن تقريراً عن مكافحة العبيد بلندن قدر أن نحو ٨ آلاف من العبيد لا يزالون يصدرون كل سنة من أثيوبيا. وأن الملك متليك ملك أثيوبيا كان يستولى على عبد من كل عشرة يصدرون نظير تعاضيه عن ذلك. وفي سنة ١٩٠٣م

صدر الملك منليك مرسوماً يمنع تجارة الرقيق في كل أنحاء أثيوبيا، ومع ذلك كانت ثمة شكوك من أن التجارة منعت تماماً. وفي سنة ١٩١٠م ذكر أحد زوار مدينة تاجورا أن تجارة المصادر من العبيد لا تزال قائمة وأنها تشمل نسبة من النسيئة الصغار.

إن البحر الأحمر الذي كانت تخضع موانئه اسمياً للسيادة العثمانية كان يعتبر طريقاً أساسياً لتصدير غالبية العبيد من شرق إفريقيا على مدى القرن التاسع عشر، وفي ستينيات ذلك القرن، فإن السفن التي كانت ترفع العلم العثماني كانت تحمل نحو ١٥ ألفاً من العبيد سنوياً في موسم الحج، وبعضهم كان يباع بالمزاد في جدة ومكة، وبعضهم كان يستبدل بالأسلحة الحديثة في دمشق، وبالسجاجيد والأحجار الكريمة في فارس وبالحرير والجواهر في أقصى الشرق. وأن استجابات العثمانيين ضد تجارة الرقيق خضوعاً للضغط الإنجليزى كانت ضعيفة الأثر. وقدر التقرير الذى نشر عن مكافحة العبودية من مراقبين فى الإسكندرية عام ١٨٧٠م أن عدد من يباعون أو يستبدلون من العبيد بلغ فى مكة والمدينة نحو ٢٥ ألفاً^(١).



(١) المرجع السابق، P. 154-155. Islam's Black Slaves.

الفصل الرابع

شرق إفريقيا

أولاً،

(أ) الأوضاع في شرق إفريقيا

(ب) التجارة العربية، التباين الجوهري - تدمير
القرى

(ج) قرن الرعب، قسوة المعاناة والدمار

ثانياً،

(أ) العرب والكونغو

(ب) مملكة تيبوتيب العربية

(ج) سياسة القضاء على العرب

أولاً: (أ) الأوضاع في شرق إفريقيا

منذ أقدم العصور هاجر العرب من الجزيرة العربية إلى ساحل إفريقيا الشرقي الذي لا يفصله عنهم سوى بحر ضيق هادئ سهل العبور هو البحر الأحمر، وبقوا هكذا قبل الإسلام وبعده، قرونًا طويلة تنتقل التجارة والأفراد بسلام بين الشاطئين، ولم يقتصر الانتقال على العرب بل انتقل الإفريقيون بسفن العرب إلى الجزيرة العربية، ولم يرحلوا في هذه الفترة قسراً من إفريقيا عن طريق تجارة الرقيق بل كانوا يذهبون بإرادتهم إلا في بعض الحالات، والدليل أننا لم نسمع عن عداوة قام بين العرب والأفارقة بسبب ما يسمونه بتجارة الرقيق بل كان الأفارقة أحياناً يلجؤون إلى الموسرين من العرب ليجدوا طعام والكساء وحياة أفضل مما كانوا عليه، وبقوا كذلك حتى جاء البرتغاليون إلى شرق إفريقيا في القرن الخامس عشر^(١).

كان المحيط الهندي سحيقاً للأوروبيين في الوقت الذي كان العرب والهنود يسكنون سواحلهم ويتاجرون بين مناطقه المختلفة منذ فجر التاريخ. في القرن السابع كان هناك مستوطنون عرب في إفريقيا قد اندمجوا مع المسلمين. ومع القرن التاسع كان الإسلام قد ضرب بجذوره المناطق الساحلية في شرق إفريقيا، وظهرت المستوطنات المسلمة وشتت بواسطة التجار من الجزيرة العربية والأقطار المحيطة بالخليج الفارسي، وقد تزوجوا واختلطوا بالأهالي الإفريقيين في القرن الإفريقي وسموا أحياناً بالبربر، وكان الجغرافيون العرب يميزونهم عن بوير شمال إفريقيا بعبارة البربر السود^(٢).

وفي اتجاه الشمال على طول الساحل الإفريقي وعبر الخليج من عدن كانت المدينة صومالية ذيلع مركز تجارة الإقليم كله، وكانت الجماعات المسلمة على طول طرق التجارة في وسط أثيوبيا وشمالها الشرقي كانت في القرن الرابع عشر تعرف في سوريا

^(١) إفريقيا دراسة عامة إقليمية - د. أحمد تيم الدين خليجة ص ٢٩.

^(٢) المرجع السابق P. ٩5 Islam's Black Slaves.

ومصر باسم بلاد زيلع ، وكتب عنها المؤرخ المراكشي الإدريسي يصف زيلع بأنها مدينة صغيرة المساحة مكتظة بالسكان تصدر العبيد والقضة .

إن الجغرافيين العرب يقسمون الساحل الشرقي لإفريقيا إلى أربع مناطق : بلاد البربر التي تقع حول القرن الإفريقي وتنتهى شمالاً عند مقديشو ، وبلاد الزنج التي تمتد جنوباً إلى بيا حتى زنجبار ، وبلاد سوفالا التي تنتهى عند نهر الليمبوبو ، والرابعة هى منطقة ليست معروفة جيداً تعرف باسم بلاد الواق الواق^(١) .

وقد امتد الإسلام فى هذه المناطق على طول الساحل الإفريقي الشرقى وعلى عمق ازداد عبر القرون امتد إلى أريتريا والصومال ، ولكن المستوطنات الساحلية لم تترك فى سلام ولا ترك ذووها ليستمتعوا بما لديهم من رخاء ، فقد أتهم الضغوط عليهم من جانبين : أولهما تهديد العرب الشماليين وكذلك تهديد البرتغاليين الذين جاءوا فجأة من البحر وبدءوا يصطادون الرجال لاسترقاقهم . والتهديد الثانى أتى من الداخل عندما هاجم بعض الأهالى الجماعات الزراعية السواحلية على طول الساحل ، وكتب أحد المعلقين البرتغاليين عن المدن الساحلية أنها كانت فى حروب دائمة ولم تهدأ للسلام إلا قليلاً ، وكانت هذه المدن محاطة بأسوار . وأحد أسباب الحروب أن كثيراً من المستوطنات الساحلية مارست تجارة الرقيق لذلك لها أعداء من الداخل .

وفى القرن السادس عشر وقعت سواحل شرق إفريقيا تحت حكم البرتغال ، وقد لاحظ البرتغاليون فخامة الملابس الحريرية والفضية والمجوهرات والذهب الذى يلبسه أهل الطبقات العالية فى المدن الساحلية ، ولاحظوا أن العبيد كانوا وقتها يلبسون ثياباً تختلف فى نوعيتها عن ثياب الأسياد . وقد زار ابن بطوطة هذه المنطقة قبل ذلك ووصف كلوة بأنها مدينة على الساحل أغلبية سكانها من الزنوج ولونهم أسود وهم يشتركون فى الحملات العسكرية ، وكانت العبودية أحد شئون المجتمع .

ولكن بعد أقل من قرن ونصف القرن تمكن العرب من الحصول على استقلالهم ، وساعدهم فى هذه الحروب أئمة مسقط الذين كانوا يعتمدون على رجال بحر مدربين خبروا مياه المحيط الهندي ، وهذا مما جعل أئمة مسقط يصبحون سادة شرق إفريقيا .

(١) انرجع السابق P. 96 Islam's Black Slaves.

في فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأ العرب العمانيون يفدون إلى الساحل الشرقي ويكونون مجتمعاتهم هناك، وكان الإنجليز يساعدونهم في ذلك لمواجهة قوة البرتغاليين في المنطقة. ومع منتصف القرن الثامن عشر استطاعت أسرة بوسعيد العمانية أن تسيطر لا على عمان في الجزيرة العربية فقط ولكن على زنجبار على الساحل الإفريقي أيضاً. وفي سنة ١٨٠٠م وما بعدها بسنوات قليلة أمكن للحاكم البوسعيدي السيد سعيد أن يضع قدمه في الساحل الإفريقي، وعقد معاهدات مع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة، وكان هو وعدد من أسرته متورطين في تجارة الرقيق، وكانت معاهداته مع الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا تحده بـ ٥٪ رسوماً على البضائع التي يجلبها المواطنون إلى الموانئ الساحلية ولكن تجارته مع الرقيق كانت مربحة له وتمده بمورد للعمل في مشاريعه الخاصة^(١).

والخلاصة أن كانت هناك تجارة رقيق على الساحل الشرقي لإفريقيا وأنها كانت تصل إلى جنوب العراق، وأن الرقيق كانوا يعملون في المزارع هناك وتبين ذلك الثورة المعروفة في التاريخ الإسلامي باسم ثورة الزنج، وأن تجارة الرقيق استمرت في هذه المنطقة، وقال بعض المؤرخين الغربيين إنه في الوقت الذي كان فيه العرب المسلمون مسيطرين فيه على المحيط الهندي كانت التجارة عبر هذا المحيط إلى الصين تتعلق بالعاج، أما التجارة إلى العراق بلاد الرافدين فكانت تتعلق بالرقيق.

تمكّن السلطان سعيد سلطان مقط بالياسة وبالقوة أن يخضع ساحل إفريقيا الشرقية ويتخذ زنجبار مقراً لحكمه، ومع مضي الزمن امتد نفوذه إلى داخل إفريقيا بإسطة التجار العرب وحمايته لهم عند عودتهم إلى الساحل. وبفضل التجارة لإفريقية ثمت زنجبار وأصبحت أكبر ميناء على سواحل المحيط الهندي وأكبر مستودع لتجارة الإفريقية الآسيوية، والمورد الرئيسي لتزويد العالم بالقرنفل والعاج والرقيق.

وقد وصلت قوافل العرب في هذه الفترة إلى منطقة البحيرات العظمى (نياسا وتنجانيقا وفكتوريا)، بل سارت حتى وصلت الكونغو، وهكذا نجح السلطان سعيد في بسط نفوذه على كل تلك المنطقة^(٢).

(١) المرجع السابق P. ٧٩ Islam's Black Slaves.

(٢) التنافس الدولي في شرق إفريقيا - د. جلال يحيى ص ٢٢.

كان النشاط التجاري العربى فى شرق إفريقيا يعتمد على الترتل والعاج والرقيق، وتشير تقديرات الرقيق الذى كانت تقوم به العناصر العربية ومعظمها من شرق إفريقيا (لم يشترك العرب فى تجارة رقيق غرب إفريقيا على الإطلاق) إلى أن أعداد ما كان يخرج من زنجبار المركز الرئيسى لهذه التجارة فى شرق إفريقيا يقدر بنحو ١٥ ألفاً سنوياً، وأن أعداد ما كانوا يصلون بطريق البر عبر الصحراء أقل بكثير فلم يكن يقدر على شراء الرقيق إلا السلاطين والأثرياء وهم قلة محدودة وكانوا يستخدمون الرقيق فى الجيش أو حرس السلطان ومنهم من استخدم فى الفلاحة أو فى حراسة حريم السلطان. وكان الأطفال الأرقاء يستخدمون فى بعض الأحيان كرفقاء لأولاد الأمراء. كتب ديوارت بربروسا سنة ١٥١٨م عن تجارة الرقيق يقول: «حال الرقيق فى عبسة تدل على ما لأسيادهم العرب من إنسانية، ويعجز الواحد أحياناً أن يميزهم عن أسيادهم إذ يبيع هؤلاء لهم أن يقلدوهم فى اللباس وفى غيره من شؤون العيش»^(١).

وتحدث المصادر العربية أن الرقيق المصدر من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية أو بلاد فارس أو الهند كان يستخدم فى الصيد أو فى الغوص للحصول على اللؤلؤ أو الجندي أو لأغراض فى الحراسة أو الخدمة المنزلية أو الرعى.

ومع ذلك بالغ المبشرون والرحالة الأوروبيون فى وصف بشاعة تجارة العرب للرقيق الإفريقى، مسخروا صورة العرب ووصفوهم وهو يسوقون الرقيق أمامهم فى شكل قطار حزين إلى الساحل الشرقى مكبلين فى أضفاد من حديد، ودأبت كتابات المؤرخين الأوروبيين على الحديث عن الدمار والتخريب وإحراق القرى الناجم من عمليات صيد الرقيق داخل شرق إفريقيا، وعن آلاف الجثث التى وجدت ملقاة فى الطريق وعن عمليات جبر الرقيق الذى يتم صيده وربطه بالسلاسل أثناء الرحلة من الداخل إلى الساحل، وعن وفاة الأعداد الكبيرة من الرقيق أثناء الرحلة نتيجة الإنهاك وقلة الغذاء والاعتداء بالسياط، وبلغت المبالغة مثلاً فى كتابات المستكشف البريطانى برتون Burton إلى حد قوله إنه لكى يحصل العرب على خمسين امرأة من الرقيق فإنهم كانوا يقومون بالإغارة بالسلاح على عشر قرى إفريقية ويقتل فى كل قرية نحو مائتى إفريقى، وللحصول على هذا العدد كان الداخل يتعرض لتزيف بشرى، يفوق كل

(١) قضايا إفريقية - د. محمد عبد الغنى سعودى ص ٩٢ - ١٠٢.

خيال . ويذكر القنصل اليريطاني رجبى أنه عند عودته من بحيرة نياسا شاهد على الطبيعة مئات القرى الخربة وأن منطقة بأكملها كانت مجرد أطلال وبقايا مراكز كانت من قبل عامرة بسكانها بسبب صيد الرقيق^(١) .



عندما وصل البرتغاليون إلى ساحل إفريقيا الشرقى اندهشوا للتجربة الغنية للساحل البحرى لشرق إفريقيا . فقد وجدوا أن هذه المنطقة الإفريقية المطلّة على المحيط الهندى من سواحل موزمبيق وتنزانيا وكينيا إلى الصومال - وهى أطول من المسافة بين نيروفاوندلاند وفلوريدا - ذات اتصالات حضارية ناضجة مع الشرق وخاصة الهند ، ووجدوا أناساً فى البحار الشرقية يتقنون الملاحة أكثر منهم ووجدوا دولاً ومدناً وحكومات غنية ذات تنظيمات مركبة لا تقل عما يوجد فى أوروبا . وذكر أحد رجال فاسكودى جاما أنهم بعد يومين أو ثلاثة من وجودهم فى هذه المنطقة فإن اثنين من سادة هذه البلاد أتوا ليرؤهم ولم يقاجأ بأى شىء أعطوه لهما ولا بحجم السفن الكبيرة التى كانت لدى فاسكودى جاما . وفى الحقيقة فإن الرحالة الشرقى كان لديه سفن أكثر بكثير يبحر بها إلى الهند وسيلان ، وكان يعرف المحيط الذى يصل إلى الصين^(٢) .

وثمة زائر بحرئ آخر أعطى الانطباع ذاته قبل ذلك بسنوات قليلة عن ميناء كلوة وقال إنه يبدو أنه كان عميقاً بسع السفن الكبيرة وأنه كان متسعاً إلى حد يستطيع على وجه التقريب أن يحتوى أسطولاً .

إن مدن الساحل الإفريقى القديمة وما عثر من بقايا حضارتها قبل وصول البرتغاليين كانت تقدر بنحو ١٤١ مدينة وميناء منها ٦٥ فى تنجانيقا و ٢٠ فى كينيا و ١٤ فى الصومال و ٢٨ فى جزيرة تنجا و ١٤ فى جزيرة زنجبار . وتظهر الشواهد الثقافية والاجتماعية وخاصة فى المناطق القريبة من كلوة وجزيرة «جوانى» - Juani - التداخل الذى كان حاصلأ فى الثقافة الإفريقية بينها وبين الثقافات غير الإفريقية ، وكذلك الملاحة المصرية الإفريقية من نحو ألفين من السنوات ، والملاحة التى كانت قائمة بعد ذلك مع جنوب الجزيرة العربية . وبين عامى ٨٠٠ - ٩٠٠ م كتب الكتاب العرب يصفون

(١) فضايا إفريقية - المرجع السابق - ص ٩٢ - ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق P. 175-176 The African slave Trade .

طبيعة التجارة التي كانت قائمة، ولم تكن تجارة العبيد هي السائدة في التجارة الإفريقية، وقتها كان الطلب الهندي والصيني على العاج وكانت هذه الأصناف ذات الأهمية القصوى. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر كانت الموانئ الجنوبية للصين تتعامل بالتقدي الصيني مع مدن الصومال وتنزانيا وظلت كذلك حتى القرن الخامس عشر، وقد أسهم ذلك في تأسيس وغو الدول المدن على طول الساحل، ولكن البرتغاليين في القرن السادس عشر لم يراعوا الأوضاع الإفريقية ووجدوا بين العقيدة وبين الجنس ونظروا إلى شعوب كلوة ومبسة ومالندي باعتبارهم مراكشيين ولم يهتموا بدراسة اللغات ولم يعرفوا اللغة السواحيلية، وتصوروا أن المدن الشرقية هي مجرد مستعمرات عربية رغم أن المدن الدول على ساحل إفريقية الشرقية كانت مدنًا إفريقية ذات حضارة إفريقية تحمل تأثيراً عربياً وتأثيراً بالعقيدة الإسلامية. وأن أحد الأسباب القوية لهذا القول يبدو في الحضارة التي تظهر في الأدب السواحيلي والتقاليد السواحيلية^(١).

وحسب أقوال البرتغاليين فإن عبودية الساحل الشرقي من موزمبيق إلى البرازيل صارت تجرى ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف عبد في السنة، وبمقارنة ذلك بتجارة الرقيق من غرب إفريقيا يبدو الرقم متواضعاً، ورغم أنها زادت بعد ذلك إلى ٢٥ ألفاً في السنة، ثم تضاعفت تقريباً في السنوات التي أعقبت سنة ١٨٥٠م؛ فإنها تشير إلى قدر صغير نسبياً هذا الذي لعبته تجارة الرقيق بواسطة الأوروبيين من الساحل الشرقي^(٢).

(ب) التجارة العربية

انقسمت تجارة الرقيق إلى قسمين: قسم محلي ويشمل الاتجار في الرقيق بين أصحاب القوافل العربية أو السواحيلية وبين سكان المدن الساحلية وأصحاب المزارع العرب، كما يشمل تبادل الرقيق الذي تجمع القوافل مع قبائل إفريقية أخرى. وقسم خارجي يشمل الرقيق الذي يصدر إلى الخارج والذي كان يشحن إلى مسقط وجزر

(١) المرجع السابق P. 178 The African slave Trade.

(٢) المرجع السابق P. 196 The African slave Trade.

المحيط الهندي وقارس وأصفهان وبغداد والبصرة والبحرين والهند، وقد مورس نوع آخر من تجارة الرقيق وهو مبادلة رقيق شرق إفريقيا بالهندوس في الهند.

كان العرب والسواحليون لا يحصلون على الرقيق دائماً من خلال شن الغارات على الإفريقيين وصيد الأسرى؛ لأن عدد العرب كان قليلاً في الداخل، كما كان حجم القوافل لا يكفي للإغارة على القبائل الثوية، وكانت أيضاً حالات الإغارة نادرة من جانب العرب لأنهم كانوا يفضلون استخدام ما لديهم من سلاح في صيد القبيلة لارتفاع أسعار العاج مقارنة بأسعار الرقيق، هذا فضلاً عن تهافت الإفريقيين على السلاح واستعدادهم لدفع أثمان باهظة للحصول عليه، ومن ثم فإنهم كانوا يقومون بصيد إخوانهم من الإفريقيين من القبائل الأخرى وبيعهم للعرب.

ووصلت قوافل جمع الرقيق غرباً إلى البحيرات الاستوائية، وبحيرتي نياسا وتنجانيقا وحوض الكونغو، ووصل العرب إلى مملكة الباجندة (أو غندا حالياً) وأقاموا بينهم، ولم يكن الباجندة يعرفون اقتناء الرقيق، ولكنهم حصلوا عليه بصيده من القبائل المجاورة وأمدوا العرب به، ثم تكتن أراضي بوجندة أو البنيورو (جزء من أوغندا الحالية) مجالاً لصيد الرقيق لقوة ملوكها وإنما مورست عمليات الصيد خارجها^(١).

كانت كلوة تستقبل رقيقها من بحيرة نياسا أو من جنوب تنزانيا، وكانت أكبر سوق يصدر الرقيق بعد زنجبار، وكان حكامها العرب يتعاملون مع تجار الرقيق الفرنسيين الذين كانوا يشترون الرقيق ويحملونه على سفنهم الخاصة إلى جزر ريونيون والكمور.

أما أسعار الرقيق فكانت تختلف حسب السن والنوع ودرجة الوسامة والجمال، كما كان السعر يتباين من منطقة لأخرى، وفقاً لقربها أو بعدها من الساحل والضرية التي تحصل على الرأس تزداد وتنخفض حسب منطقة التصدير وحجم المخاطر واحتمالات مصادره من جانب سفن التفتيش بعدما ألغى الرق، وكان التجار يفضلون شراء رقيق من النساء أو الأطفال دون الذكور البالغين فكان سعر المرأة يصل إلى ٣٥ دولاراً والصبي ما بين ٧ - ١٥ دولاراً، وكان يتم تبادل الرقيق بالأقمشة ويقال إن ثمن الرأس

(١) العرب في إفريقيا (مستار قسم التاريخ) كلية الآداب جامعة القاهرة (إشراف د. وعوف عباس حامد - دار الثقافة العربية - القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م) د. محيى الدين محمد مصيلحي ص ١٨٦ - ١٨٧.

الواحد من الرقيق كان يعادل ثمن ثلاث قطع من القماش وأحياناً ثمن بندقية واحدة وخمس قطع من القماش بينما كانت الأنثى تباع بيندقتين وعشر قطع من القماش .

ورغم اختلاف أسعار الرقيق فإن هذه الأسعار قد انخفضت مع زيادات إمدادات الرقيق من الداخل ، كما أدت عمليات حظر تجارة الرقيق إلى مزيد من خفض الأسعار لحرص تجار الرقيق على التخلص من الرقيق الذي يجلبونه قبل مصادره . وكان الرقيق سلعة تباع مقابل الحصول على الغذاء في الداخل لدى بعض القبائل أو مقابل الحصول على بعض البضائع الأجنبية ، كما كان العرب يحصلون عليهم من بعض الزعماء بطريق الهدايا أو مقابل الاعتذار عن أضرار أصابت قوافلهم من جراء الحروب الأهلية الداخلية أو الهجمات القبلية عليهم .

وكان الرقيق يعتبر سلعة تتسم بارتفاع نسبة الفاقد ؛ لأن جزءاً كبيراً من الرقيق كان يقع فريسة المرض كالدومستاريا أو الجدري أو الحمى ، كما كان عناء الرحلة وسوء الغذاء وقسوة المناخ يزيد من عامل الفقد ، هذا فضلاً عما كان يحدث أحياناً من هروب بعض الرقيق من القوافل التجارية ، ومن ثم كان سعر الرقيق في الداخل منخفضاً للغاية ، وكلما تقدمت القوافل نحو الساحل ارتفع سعر الرقيق .

كان الرقيق يشحن علانية من الموانئ الكبيرة على ساحل شرق إفريقيا ، وبعد أن شددت حملات مصادرة الرقيق وحظر الاتجار لجأت التجارة إلى الموانئ الصغيرة ومصبات الأنهار غير المعروفة ، ولم تفلح عمليات حظر الاتجار في الرقيق في منع تهريب الرقيق حتى إلى المستعمرات البريطانية نفسها التي قادت حملات حظر الرقيق ، ولا شك أن استمرار التجارة كان مبعث أرباحها العالية ، مما دفع المسؤولين الاستعماريين إلى التورط في هذه التجارة مع التجار العرب والهنود .

و تمثل جزيرة مدغشقر نموذجاً لتصدير الرقيق واستيراده في وقت واحد ، وكان لتجار الرقيق العرب مركز دائم على الساحل الشرقي للجزيرة ، وكان ملك مدغشقر يفرض ضريبة على كل رأس من الرقيق المصدر تصل إلى دولارين والنصف ، وكانت بـمدغشقر جالية هندية تمول عمليات صيد الرقيق من الداخل ، وكان متوسط ما يصدر من الجزيرة من الرقيق سنوياً يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف رأس . وكان رقيق مدغشقر يصدر إلى شبه الجزيرة العربية والخليج العربي والأمريكتين والهند .

أخذت مدغشقر تستورد الرقيق رسمياً لمشروعاتها الزراعية التي تركزت وسط الجزيرة؛ لأن التجار العرب تواطؤوا مع الهنود وبعض أفراد البيت الحاكم وبدءوا يصدرون الرقيق من مناطقها الجنوبية والغربية والشرقية وعملوا على تهريبه خارج الجزيرة للحصول على أرباحه العالية، الأمر الذي أدى إلى نقص العمالة اللازمة لزراع جزيرة مدغشقر. ولم يستطع حكام هذه الجزيرة الإفريقيون السيطرة على عمليات التهريب، وكان الرقيق المستورد في مدغشقر يأتي أساساً من موزمبيق وزنجبار.

لعب العرب في مدغشقر دور المستورد والمصدر للرقيق، حيث كانوا يشحنون الرقيق من مدغشقر إلى الخارج، ثم تعود سفنهم بعد بيع شحناتها إلى موانئ مدغشقر حاملة الأقمشة أو البضائع الآسيوية الأخرى، ثم تبحر في المحيط الهندي.

وكان التجار العرب في مدغشقر والذين أطلق عليهم لفظ الأنتالا أو ترا Antala هم من يقومون بتصدير الرقيق واستيراده، ويرجع ذلك إلى أنهم استخدموا القوارب العربية Dhows محل السفن، وظلت السلطات البريطانية لفترة كبيرة تعتقد أن هذه القوارب لا تحمل الرقيق، كما أن كثيراً من السفن الخاصة بالرقيق كانت ترفع الأعلام الفرنسية، ثم استخدمت هذه السفن الأعلام الأمريكية، وعلاوة على هذا كان للخبرة العربية بالرياح والتيارات الممر الموزمبيقى البحرية أثر كبير في قدرتهم على الإفلات من التفتيش البريطانى، وكانت الأرباح المتزايدة من تجارة الرقيق التى كانت تفوق المائة فى المائة دافعا للعرب للتخصص فى تجارة الرقيق الساحلية فى الممر الموزمبيقى، كما دفعت بأفراد البيت الحاكم فى مدغشقر إلى التورط فيها، بالإضافة إلى الهنود الذين عملوا على إقراض الأموال للتجار العرب لمواصلة الاتجار فى الرقيق.

ويتهى بحث د. محيى الدين محمد مصيلحى حول تجارة الرقيق العربية فى شرق إفريقيا إلى هذه الملاحظات:

١- إن القلة من العرب هى التى خرجت فى صحبة قوافل التجارة المتجهة إلى الداخل، وإنها كانت تمثل الشريحة الدنيا من العرب فى ساحل شرق إفريقيا، وإن العرب لم يزد عددهم على عدة مئات بالداخل، بالإضافة إلى ألف أو ألفين من نسواحيليين، ورغم تسليح القوافل العربية بالأسلحة النارية فإن قوة العرب فى الداخل لم تصبح قوة مؤثرة حتى بعد استقرارهم وتأسيسهم لبعض المراكز التجارية

والمستوطنات، من ثم كانت جهودهم فى صيد الرقيق محدودة للغاية، وكان الإفريقيون هم الذين يقومون بعبء جمع الرقيق للعرب ويقايضونهم عليه، ومن ثم فإن ما ارتبط من فظائع حول صيد الرقيق فى الداخل كان مبالغاً فيه؛ لأن جمع الرقيق وصيده وأسره والإغارة على القرى كان مقترناً بنشاط القبائل الإفريقية القوية واعتدائها على المقاطعة للجاورة غالباً.

٢- إن استقرار العرب بالداخل لم يكن ناجماً عن السيطرة وفرض القوة على الإفريقيين فى الداخل إلا نادراً، ولكنه ارتبط باستمرار علاقات الود والتعاون بين العرب والإفريقيين التى ربط عامل الرغبة فى الربح وتبادل المصالح بينهم حتى أدت إلى تخصيص بعض الزعماء الإفريقيين أجنحة خاصة فى مناطقهم للتجار العرب.

٣- إن العرب كانوا يحرصون على عدم استخدام الأسلحة النارية فى صيد الرقيق رغبة منهم فى توفيره لصيد العاج وفى الدفاع عن أنفسهم؛ لأن سعر العاج أو السلاح كان أعلى قيمة من الرقيق، كما كانت تجارة الرقيق تتسم بارتفاع نسبة الفاقد فيها إذا ما قورنت بالتجارة فى العاج والسلاح.

٤- إن معظم الرقيق الذى كان يشتريه العرب من الداخل كان من الصبية والنسوة لأن الطلب الخارجى عليهم كان كبيراً وكان سعرهم مرتفعاً، ولم يكن الطلب على البالغين من الذكور من الرقيق عالياً إلا فى المشروعات الزراعية فى الساحل الشرقى الإفريقى أو بعض جزر المحيط الهندى، وكان نطاق هذه المزارع محدوداً ولا تبرر الحاجة إلى العمالة فى جمع الأعداد الكبيرة من الرقيق فى الداخل.

٥- إن ارتباط تجارة الرقيق بتجارة العاج كان من خلال الحصول على الرقيق لشراء الأراضى فى الساحل وتحويلها إلى مزارع للمحاصيل النقدية مثل القرنفل وجوز الهند، ثم تدوير المال من التجارة فى هذه المحاصيل لجمع العاج والاتجار فيه.

٦- إن تجارة الرقيق العربية تواطأ فيها الهنود والأوروبيون والأمريكيون والأفارقة كما حدث فى جزيرة مدغشقر مع العرب، وإن اقتصر دور الهنود كممولين ودور الأفارقة كجامعين وصيادين للرقيق.

٧- إن أرقام الرقيق وأرباح التجارة ذات سمة تقديرية، ويرجع السبب في عدم وجود أرقام حقيقية حول هذه التجارة إلى سرية هذه التجارة وعدم مشروعيتها وإلى عدم أمانة الهنود القائمين على إدارة الجمارك، وإلى تورط أطراف كثيرة فيها كان يهمها إخفاء حجم نشاطها الحقيقي.

٨- إن بعض المناطق الإفريقية خلت من صيد الرقيق لقوة ملوكها وقبائلها.

٩- صاحبت حركة القوافل العربية هجرات كبيرة من رقيق الداخل إلى الشرق لالتحامهم بالخدمة في المزارع العربية في الساحل، كما أدى امتداد حدود تجارة القوافل العربية إلى مسافات بعيدة نحو الغرب إلى ضعف قدرة الزعماء الإفريقيين عن الدفاع عن مناطقهم أو إحكام الرقابة على عمليات صيد الرقيق.

١٠- لم يكن العرب هم وحدهم من مارسوا النشاط التجاري في الرق فقد كان للهند نشاط مواز في هذه التجارة وكانوا يقومون بالوساطة التجارية وتمويل قوافل الرق^(١).



التباين الجوهري

كان ثمة اختلاف جوهري بين تجارة الأطلنطي في الغرب الإفريقي وتجارة المحيط الهندي في الشرق الإفريقي في العصر قبل الغزو الأوروبي، وهذا الفارق الواضح في الطبيعة ولد أثراً مختلفاً مما يوجد في السبب الدافع إلى هذين النوعين من نظم التجارة عبر المحيطات. لم تكن تجارة المحيط الهندي أساساً تجارة جلب العبيد لا في العصور القديمة ولا في العصور الوسطى ولا في أي وقت قبل القرن الثامن عشر. وكما هو شأن في معظم مناطق العالم القديم كان ثمة قدر من التعامل العبودي عبر البحار في هذه المنطقة في الأزمان الأولى. كانت مصر تشتري المقتنصين من أرض بونت وأرض برنت تشكل الآن الساحل الشمالي للصومال الحديث، وكانت الجزيرة العربية تصنع مثل وكان العبيد الإفريقيون معروفين في فارس وما حولها واليعض منهم كان يؤخذ إلى ممالك الهند. وفي القرن التاسع كان يستخدم بعيداً في الصين.

(١) سمنار قسم التاريخ «العرب وتجارة شرق إفريقيا» ص ١٦٤ - المرجع السابق ص ١٩٤.

وهناك وثيقة صينية ترجع إلى عام ١١٨٧ م تشير إلى مدغشقر وتذكر أن هناك جزيرة في البحر يسكنها العديد من البدائين أجسامهم سوداء وشعرهم مجعد، وكان يجرى إغراؤهم بالطعام ثم يقتصون وياعون عبيداً في البلاد العربية وكانت أسعارهم عالية ويستخدمون حراساً ويقال إنهم لم يكونوا يحنون إلى أقربائهم.

بالنسبة لحضارات الشرق كان العبيد يأتون من كل حدود المحيط الهندي وليس من شرق إفريقيا فقط، كانوا يوردون إلى الصين لمدة طويلة، وأن التقرير الصيني السابق الإشارة إليه يذكر أن العبيد الذكور والإناث كانوا يباعون، وكانت السفن تحملهم كما تحمل البضائع. وأن مراقباً صينياً للجمارك البحرية كتب بعد ذلك بخمسين سنة أن طقلاً عبداً قدر ثمنه بثلاث قطع من الذهب أو ما يماثلها من الخشب (يقال إنهم كانوا يستخدمون لسد ثقوب السفن سواء من داخل السفينة أو من خارجها) وأن كثيراً من هذه الضحايا البائسة كانت تأتي من إفريقيا^(١).

ولكن لا يوجد دليل يظهر أن العبودية كانت هي التجارة السائدة في الشرق أو أنها صارت كذلك. لقد كانت بالفعل بنداً صغيراً من بنود التجارة. إن الشواهد المتاحة رغم قلتها تقول شيئاً آخر: إن عبيداً من أفضل نوع كان يمكن شراؤهم في القرن الثاني الميلادي من «أوبن - Open» وهي رأس هافون في أقصى شمال القرن الإفريقي، ومن موانئ شرق إفريقيا إلى رأس هافون لا توجد إشارة إلى العبيد في ذلك الوقت. ولا توجد إشارة إليها لدى الكتاب العرب في العصور الوسطى، ولم يذكر هؤلاء الكتاب حالة واحدة يركز عليها بالنسبة للعبودية في شرق إفريقيا على العكس كانوا يؤكدون فقط أهمية شرق إفريقيا باعتبارها مصدراً للعاج والذهب والمواد الخام الأخرى.

يقتطف من الجغرافى العربى المسعودى الحديث عن أهم أنواع التجارة والصادرات وهو الذهب دون الإشارة لتجارة الصادر من العبيد في شرق إفريقيا ويتكلم أيضاً عن المدن السواحيلية وعن تجارة كلوة في هذه الأزمنة بالطريقة نفسها.

ولكن للإنسان أن يصل إلى النتيجة نفسها بطريق آخر هل كان الشرق يحتوى على مزارع واسعة ومناجم عميقة مما يتطلب جيوشاً كبيرة من العمل العبودى؟ ببساطة لم

(١) المرجع السابق P. 188-189 The African slave Trade.

يكن يوجد ذلك، كما أنها لم تكن توجد في الغرب الإفريقي قبل عبور الأطلنطي. هل كانت توجد أقليات إفريقية كثيفة في الشرق تقارن بالأقليات الإفريقية في أمريكا؟. لم يكن يوجد ذلك. وإن القول إن التجارات القديمة في المحيط الهندي كانت تتعامل في العبيد بالنطاق نفسه التي تعاملت به تجارة الأطلنطي هذا قول وهم محض نشأ من الضمير الأوروبي، إن ما كان قد حدث هو وجود العبودية بشكلها المعروف ولكن على نطاق ضيق بين عدد من الدول في عالم العصر الوسيط. كانت تجارة ثانوية ونادراً ما كانت مهمة في التوازنات العامة للثروة وللمشروعات الاقتصادية.

الاختلاف حاد جداً بين هذا الوضع وبين التجارة عبر الأطلنطي، فالاحتكاك والتبادل عبر المحيط الهندي على مدى ألف سنة لم تكن العبودية فيه ذات أهمية، وهذه الاحتكاكات والعلاقات عبر المحيط الهندي سميت بالشعوب على الساحل الشرقي إلى العضوية الكاملة في مجتمع الحضارة الشرقية وأنى ذلك بعائده على البلاد الأصلية، ولكن على مدى أقل من خمسمائة سنة من العلاقات عبر الأطلنطي كانت العبودية ذات الأهمية القصوى في هذه العلاقات ولم يكن يمكن الادعاء بأنها أنتجت عضوية كاملة في مجتمع الحضارة الشرقية أو الغربية، إن العكس من ذلك تماماً هو ما حدث.

وهذه المدن التي كانت قائمة على الساحل الشرقي قد اختفت وزالت بغير خطأ يعود إلى أهلها، دمرها البرتغاليون وكانت السرققة هي المفتاح في طموح هؤلاء المكتشفين الأوروبيين. وقد سيطر البرتغاليون على الساحل الشرقي لإفريقيا بعد رحلة فاسكو دي جاما وكانت سفنهم تأتي متتابعة على مدى كبير من السنين، وكانت تحمل أوامر خاصة بالسيطرة على المحيط الهندي وتحويل المدن الشرقية الإفريقية إلى مجرد موانئ لهم وتحصيل الضرائب منهم بالذهب وتأسيس السيطرة البرتغالية. وقد ووجه البرتغاليون بالمقاومة، ولكن المدن الساحلية الإفريقية لم يكن لديها المدافع. وكانت المدافع لدى البرتغاليين مصحوبة بنوع من القسوة والتصميم لم تعرفه هذه الشواطئ من قبل. كان غزواً دمورياً استسلمت بعده كلوة وعمبة وزنجبار وغيرها.

وأحياناً كان البرتغاليون يتلقون المساعدة والمعونة من واحد أو آخر من الحكام الإفريقيين ضد حاكم أو آخر من الإفريقيين، وأدى هذا على سبيل المثال إلى سقوط

حاكم جزر «كريمبا - Kerimba» في شمال موزمبيق . ففي عام ١٥٢٢م فإن البرتغاليين الموجودين في موزمبيق التي كانت القاعدة الأساسية لهم في الساحل الشرقي جاء إليهم رسل من زنجبار وبجا من أقصى الشمال وذكر هؤلاء الرسل أن حكامهم سيدفعون الجزية للبرتغاليين بدلاً من كريمبا وكانوا في ذلك يطمحون حماية البرتغاليين وقد تسبب هذا الوضع في حرب مع كريمبا انتهت بقطوعها^(١).



تدمير القرى

سقط عن شرق إفريقيا التاريخ المكتوب لقرون من الزمان منذ أن وطئها البرتغاليون ، كانت المعلومات التاريخية عن النشاط تزد قليلًا جدًا حتى ظهر الأسطول التركي في البحر الأحمر في القرن السادس عشر وأوقف الزحف البرتغالي .

لم تكن السلطنة العثمانية تميل إلى اتخاذ قرار حاسم ضد تجارة الرقيق ؛ لأن الأناضول وهي قلب الإمبراطورية تشمل أسواقًا للعبيد السود ، وأن شركة العزيزية وهي من خطوط الملاحة التي يسهم بها خديو مصر بأسهم كثيرة كانت تنقل العبيد السود من الإسكندرية إلى موانئ الأناضول ثم تحملهم سفن صغيرة إلى المناطق المختلفة . وقد استوردت الأناضول وحدها نحو ثلاثة آلاف من العبيد السود أتوا بالبواخر من مصر أو بطريق البر عبر بغداد أو مع الحجيج العائد من مكة والمدينة . وكان الشباب المخصي يباعون في الجزيرة العربية ليقوموا بأعمال الإشراف على الأماكن المقدسة ، وكذلك حراسة الحرمين وأمكن نزول الحجاج . وكانت الأناضول تشكل سوقًا واسعًا للمخصيان ، وبقيت كذلك على مدى القرن التاسع عشر . وفي الأناضول كما في غيره من بلاد المسلمين كان المخصيان يعاملون باحترام شديد وقد سجل أحد تقارير مكافحة العبودية ما يلي : «أن أي خصي سواء كان من خصيان السلطان أو من خصيان الحرمين الخاص كان عندما يدخل أية مركبة عامة في إسطنبول كان الأتراك جميعًا في المركبة يقفون له ويؤدون السلام باحترام ويقفون واقفين حتى يجد المخصي مكانًا فيجلس فيه»^(٢).

(١) المرجع السابق P. 190-192 The African slave Trade.

(٢) المرجع السابق P. 155 The African slave Trade.

ولكن نظام العبيد في الإمبراطورية العثمانية كان مختلفاً بالنسبة للنظر إليه وإلى طريقة التعامل معه . وطبقاً لتعاليم الإسلام وللشريعة الإسلامية كان العبيد أناساً لهم حقوق . وفي الواقع فإن كثيراً من الجنود ومن رجال الدولة كانوا من عبيد السلطان وترقوا حتى صاروا جنرالات في الجيش وحكاماً للأقاليم وغيرها . وكان من المسلمين من ولدوا أحراراً ولديهم بذلك متعة من أن يسترقوا استطاعوا أن يتسللوا حتى يصيروا عبيداً للسلطان ومكنهم ذلك من الوصول إلى أن يكونوا ذوي وظائف عالية في الدولة . إن الجارية المحظية للسلطان كان ابنها يصير سلطاناً وكانت ذات وضع متميز ، طبعاً كان هناك عدد لا يحصى من العبيد يعاملون معاملة قاسية وكان منهم من يعملون في مزارع أصحاب الملكيات الكبيرة ، ولكن يظل أن أعدادهم لم تكن بالقدر الذي يجعلهم مصدراً لتراكم الرأسمالي وكانوا يشكلون الطابع الغالب للعمالة في مجالات الإنتاج .

وفي الأساس فإن الفرق بين النظام العبودي الغربي والنظام العبودي العثماني وهو نظام إسلامي يخضع إلى حد ما لضوابط الفقه الإسلامي ، الفرق هو ما بين الاستغلال التجاري في مجالات الإنتاج والاستخدام المنزلي ، هذا لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون في المنازل في المستعمرات الغربية ، كما لا يجعلنا نتجاهل العبيد الذين يعملون في الأنشطة التجارية والإنتاجية ويوصفهم عمالاً في الإمبراطورية العثمانية ، ولكن قاعدة الرق في الغرب كانت تقوم على الاستغلال الاقتصادي للعمل العبودي في حين أنه كان في الإمبراطورية العثمانية يقوم على أساس الخدمات الشخصية ، وكان العبيد في الغرب يوجهون إلى الإنتاج الاقتصادي ، بينما كانوا في الإمبراطورية العثمانية شكلاً من أشكال الاستهلاك^(١) .

أوقف تواجد الأسطول التركي في البحر الأحمر توغل النفوذ البرتغالي في شرق إفريقيا ولكن السلطة العثمانية لم تستطع أن تحور المنطقة من الغزو الخارجي ولم تسلم السواحل الشرقية من تهديد الدول الاستعمارية الأوروبية الأخرى ، وسرعان ما جاء الإنجليز والفرنسيون والهولنديون يعملون في المحيط الهندي وتحول شرق إفريقيا إلى بؤرة صراع وتنافس دولي ، وبنات تجارة الرقيق محور نشاط هذه الدول وهدف دول

(١) المرجع السابق P. 103-117 The African slave Trade.

الساحل ، ويمكن للمرء أن يدرك ذلك من تقرير فرنسي عن كلوة يذكر أنه على الرغم من أن الفرنسيين أبحروا تجاه الشرق حول رأس الرجاء الصالح قبل الإنجليز والهولنديين بكثير ، فإنهم لم يهتموا قط بالشاطئ ولم يتركوا أثراً . وفي بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر بدءوا يتبعون الساحل بحثاً عن العبيد الذين يطلبونهم في مزارعهم في جزر المحيط الهندي البريون *bourbon* وموريشيوس . وكان الرائد في هذه التجارة فرنسياً يسمى «موريس» هرب بعد أن تحطمت سفينة إلى كلوة وتقرّب من السلطان الذي أقطعه قطعة أرض في كلوة بأربعة آلاف قرش . واستغلّ هذا النجاح بعقد اتفاقية مع السلطان منحتة امتياز احتكار تصدير العبيد ، إن هذه الاتفاقية التي عقدت في سنة ١٧٧٦م كان لها صدى بعيداً في التطبيق ، لقد وعد السلطان بأن يسلم ألف عبد كل سنة مقابل عشرين قرشاً للواحد منهم ويأخذ «موريس» قرشين عن كل عبد ، ولم يسمح لتاجر عبيد آخر أن يعمل حتى يكتفى موريس ويعلن اكتفائه .

انتعشت التجارة نوعاً ما وثمة تقرير فرنسي آخر عن الفترة نفسها هو خطاب موجه إلى وزير البحرية الفرنسية يتضمن ملاحظات عن قبطان في تجارة العبيد يسمى «جوزيف كراسون» ذهب مرتين إلى كلوة في شئون تتعلق بتجارة العبيد وذلك في السبعينيات من القرن الثامن عشر . وقد وجدها مكاناً بكرّاً وفي حالة من الفقر وقال إن كلوة تستطيع أن تصدر التيل والقطن وقصب السكر والصمغ بوفرة . وقد نجح في أن يعقد صداقة مع السلطان وحصل بها على عدد من العبيد المعتازين في الوقت الذي كان فيه السلطان يطلب حماية الفرنسيين له من أعدائه المجاورين بمن فيهم البرتغاليون . وقد بقيت التجارة في العبيد قليلة الشأن . وذكر «كراسون» أن السفن الفرنسية استلمت نحو ٤١٩٣ عبداً من كلوة في السنوات الثلاث السابقة وأن نصيبه منهم كان ٣٨٣ عبداً ، وكان تكلفة كل واحد منهم ٤٠ قرشاً ضعف الثمن الذي وافق عليه «موريس» من قبل وقد حملوا إلى موريشيوس وبوربون وبعضهم حمل إلى جزر الهند الفرنسية . وقد بلغ ما أخذ من العبيد إلى الجزر الفرنسية من موانئ شرق إفريقيا الأخرى نحو ١٧٩٩ عبداً .

ولكن تجارة العبيد الأوروبية في الساحل الشرقي لم تكن هي نهاية القصة الحزينة لشعوب هذه المنطقة ، فقد تدخلت مدن ساحلية أخرى في هذه الأعمال كانت زنجبار

أهمهم . ذكر بحار بريطاني كاتب «سمى - Smee» في سنة ١٨١١م أن حاكم زنجبار يسمى «ياقوت» كان يتقاضى عشرة دولارات على كل رأس من العبيد يسلم إلى الفرنسيين لمزارعهم في موريشيوس والبريون . وكما كان «ياقوت» يبيع للفرنسيين كان يسلم للأسواق الشرقية الأخرى ، بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف من العبيد سنوياً ، وإن كان ذلك بحرى بطريقة غير منتظمة وليس في كل سنة ، كما أن الإجماليات الحقيقية تظل غامضة .

هؤلاء العبيد المصدرون كانوا يوجدون على نطاق صغير نسبياً مقارناً بما يصدر من غرب إفريقيا إلى أمريكا ، ففي الغرب كانت البرازيل تتسلم أكثر من خمسة أضعاف هذه الأعداد . وأما ما كانت الشرور الخاصة بتجارة العبيد فلم تكن شعوب الساحل الشرقى يعانون كثيراً من تجارة العبيد ، ولا جيرانهم في الداخل ، وإن كان بعض تجار العبيد من عمان ومسقط قد اندفعوا إلى هذه التجارة . وفي عام ١٨١٩م عندما كان لزنجبار نصيب الأسد في تجارة العبيد ذكر أحد المراقبين البريطانيين أن ما يبيع من العبيد قد بلغ عدداً يتراوح ما بين ٤٠ و ٤٥ ألفاً . وأن نصف هؤلاء تقريباً كان يذهب شمالاً إلى الجزيرة العربية والخليج الفارسي ومصر ، وأغلب الباقي كان يهرب في اتجاه الجنوب للبرتغاليين في موزمبيق ، وكان هؤلاء يرسلونهم إلى البرازيل في سفن العبيد الأمريكية التي تحملهم من هذا المصدر .

وفي عام ١٨٤٠م فإن عملية استخراج العبيد من شرق إفريقيا صارت على قلتها النسبية عربية ، وفي ذلك العام فإن سلطان عمان نقل عاصمة مسقط إلى الجزيرة التابعة له زنجبار . وكان حاكماً ذا مواهب تجارية فائقة فنظم تجارة زنجبار وفي جزء كبير من الساحل على أسس جديدة . وبدأ ينشئ الصادرات من المنتجات الطبيعية المستخرجة من الأراضي الإفريقية (القرنفل بالذات) الذي زرعه على نطاق واسع وأرسل مبعوثين للبلدان الشرقية ليكسب أسواقاً جديدة وينشئ الأسواق القديمة أيضاً ، وبدأ التجار العرب يتعشون ويستعيدون ماضيهم في العصور الوسطى ويتعاملون مع الشاطئ الجنوبي للصين ، وبدأت جهود كبيرة لإعادة بناء التجارة المزدهرة عبر المحيط الهندي بين شرق إفريقيا والتعاملين القدامى معه ، ولكن كان هناك اختلاف فقد صارت العبودية جزءاً مهماً من هذه التجارة .

إن السنوات السابقة على سنة ١٨٤٠م والسنوات اللاحقة لها بشكل خاص هي ما حدث فيها تغلغل عرب الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية في داخل شرق إفريقيا. لقد ذهب هؤلاء ووكلاؤهم السواحليون عبر طريق التجارة القديمة من بجامويو وكلوة وطنجة، وأسسوا سريعاً مراكز للتجارة عند البحيرات الكبرى في وسط إفريقيا وأماكن مناسبة بينها. وكانوا مسلحين ببنادق قديمة واندفعوا إلى الداخل، وكما يصف أحد البريطانيين أن عرب زنجبار بلغوا منتصف القارة تقريباً وأنهم في سنوات قليلة يمكن أن يلتقوا بالشعوب الآتية من لواندا (أنجولا) من الشاطئ الغربي، وأن أرشيفات أنجولا سنة ١٨٥٢م تتحدث عن الاتصال المباشر للمرة الأولى بالتجار العرب، وأن ستة منهم عبروا القارة فعلاً من الشرق إلى الغرب في هذه السنة.

كان هذا التغلغل العربي إلى الداخل يحمل هدف تصدير العبيد للمزارع الجديدة في زنجبار والحيازات الجديدة هناك، وهذا أدى إلى التدمير الذي لاحظته المستكشفون لقد كان هذا التدمير حديثاً في المناطق التي يؤخذ منها العبيد. والنقطة هنا إن هذا التدمير الذي لاحظته المستكشفون لم يكن خاصاً بشرق إفريقيا وحدها ولا بتاريخها وحده لا في وسط إفريقيا ولا على السواحل. وبعد مجيء سلطان عمان وتجاره لوحظ أن هذا النظام جميعه للتجارة الداخلية قد توسع وانتعش أكثر كثيراً من العمليات التي كان العرب يرتبطون بها لمصور طويلة في الماضي. ولكن حقيقة الدمار الذي حدث في الداخل كان دماراً حديثاً لا يقاس بما فعله التجار البرتغاليون في الجنوب من وادي الزمبيزي، ومع ذلك فإن هذا البؤس العبودي ألحق بالعرب وحدهم.

من هذه الحالة وبواسطة الطرق ذات الاتصال المباشر أو غير المباشر ظهرت المشروعات الإمبريالية ووقائع الغزو. وهذا الغزو الإمبريالي للداخل الإفريقي كان يبرر دائماً بأغراض إنسانية أساسها قمع تجارة العبيد العربية. ومن المؤكد أن هذا الهدف كان يحتاج إلى من يفعله، وقد فعله مورس فعلاً بواسطة البريطانيين والبلجيكيين، ولكن في مقابل إخضاع جديد للإفريقيين الذين صاروا يعانون من أشكال جديدة من العبودية. وهنا يمكن للإنسان أن يلاحظ بوضوح كيف أن عجز المؤسسات الإفريقية عن مقاومة العبودية كان هو السبب الرئيسي للإطاحة بها. وأن الصادرات التقليدية والعبودية الداخلية قد تحولت بشكل كارثي إلى التنافس على تجارة

العبيد من أجل التصدير، وكان هذا الدمار كبيراً في هذه الأقاليم وخاصة في شرق إفريقيا، حيث لم تكن الأشكال الأخرى لتجارة العبيد العابرة للمسافات الطويلة، مزدهرة قط.

من المهم فهم هذه العملية، أن أيديولوجية الفتح الاستعماري التي نمت بقوة في أوروبا قد أنعشت مفهوم أن الإفريقيين غير قادرين على حماية ثقافتهم وتطويرها ولم يكن ذلك حقيقة، ولكن تجارة العبيد جعلته حقيقة، إن الأوروبيين قدموا صورة لداخل القارة الإفريقية، صورة متوحشة بشكل كامل وغير قابل للإصلاح وتعتمد على القسوة وإراقة الدماء وعدم القدرة على حماية نفسها، وأن كل أقصوصة شريرة - وكان يوجد منها الكثير - كانت تقوى هذا الانطباع، وبقي بعد ذلك حقيقة واحدة لهذه المشكلة وهي الحق في الإلحاق^(١).

هذه الأيديولوجية تأكدت، وأن الإنسان ليجد كتاباً بعد كتاب في الفترة الإمبريالية يحتوي على ذكريات عما تحمله عبء الرجل الأبيض أو ما يبرر حملته لهذا العبء، مثل ما كتبه «كوبلاند - Coupland» وهو مؤلف كتب إنجليزية مرجعية عن تاريخ شرق إفريقيا، كتب في سنة ١٩٢٨م يقول: «إن فعلاً جديداً من تاريخ إفريقيا بدأ مع الرحالة ديفيد ليفنجستون ويجب القول إن إفريقيا الحقيقية لم يكن لها تاريخ وإن الجسم الأساسي للإفريقيين بقي غير محكى عنه موغلاً في البربرية!! وهكذا بقي راكداً... إن قلب إفريقيا نادراً ما كان ينبض»، وبهذه الطريقة كتب كوبلاند عن مدن السواحيلى قائلاً إنها كانت مستعمرات عربية من العصور الأولى وبقيت كذلك.

يقول بازيل ديفيد سون: «نحن نرى الآن أن كوبلاند مخطئ بلا شك، كان مخطئاً بالنسبة للمدن الساحلية؛ لأنه تجاهل طبيعتها الساحلية، وأنه أخطأ بالنسبة لشعوب الداخل فلم يكونوا منغمسين في البربرية كما قال. كان ثمة نوع من البربرية بالمعنى المعجمي الضيق ما داموا غير متعلمين ولبسوا في الحضر ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا برابرة بالمعنى الذي كان يؤكده كوبلاند، بمعنى أنهم لا يحوزون قيماً أخلاقية ولا قواتين ولا حكومات ولا حضارة خاصة بهم، وهم أيضاً لم يكونوا باقين على الركود لقد

(١) المرجع السابق The African slave Trade, P. 198-201

تحركوا خلال حقبة كثيرة من التطور الاجتماعى ، بحيث كانوا عادين مع الفروع الأخرى للمجنس البشرى . إن ما وجدته أوروبا الغازية لم يكن فقداً أو اضطراباً كما تصور الكثيرون ولكن كان كوارث نتجت عن أزمت اجتماعية مفاجئة وكانت هذه الأزمت هي ما فتح الطريق للاحتلال الاستعماري . ولا شك أن النتيجة الكبرى لذلك كانت هي تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر التي شاهدها شرق إفريقيا .

(ج) ١ - قرن العرب

في كل قرون تجارة الرق يعتبر القرن التاسع عشر هو الأكثر في عدد من استرقوا أو استعبدوا من الإفريقيين رجالاً ونساء وأطفالاً وهو أيضاً أكثر عدداً بالنسبة لمن قتلوا في هذه العمليات . وقد أدى ذبوع الجريمة البشرية على نطاق واسع إلى ضغوط من العالم الغربى ضد هذه التجارة ، وتزعمت بريطانيا حملة تحريم الاتجار فى الرق بحجة انتهاك هذه التجارة للمبادئ الإنسانية ، والواقع أن بريطانيا سعت إلى إلغاء الرق بعد أن فقدت مستعمراتها فى أمريكا الشمالية وقلت حاجتها إلى الرقيق هناك ولم يعد الرق الذى يذهب من إفريقيا إلى أمريكا مما يعود بالربح على بريطانيا بعد أن فقدت سيطرتها فى أمريكا .

ورغم محاولات إلغاء تجارة الرق فإنها استمرت فى شرق إفريقيا نتيجة عدة عوامل منها التوسع الزراعى فى زنجبار وفى الساحل الشرقى الإفريقى خاصة فى مجال زراعة القرنفل وجوز الهند والمطاط والحبوب وحاجة المزارع المتزايدة لليد العاملة من الرقيق ، كما كانت قسوة ظروف العمل فى المزارع الساحلية تدفع الرقيق المحلى إلى الهرب ، وكانت نسبة الوفيات تصل إلى ٢٢٪ من قوة العمالة فى المزارع تؤدى إلى نقص العمالة وتستدعى وصول أعداد جديدة منها من الداخل . وكانت القروض التى يقدمها الهنود لأصحاب المزارع العربية لتسيير قوافل تجارية من أجل الحصول على الرقيق والعاج تسهل لهم ذلك ، بالإضافة إلى الحاجة إلى الرقيق لمزارع قصب السكر فى جزر موريشيوس ومدغشقر ، فضلاً عن الارتباط الوثيق بزيادة الطلب العالمى على عاج شرق إفريقيا^(١) .

(١) سمارقم التاريخ - المرجع السابق - د . محى الدين مصيلحى ص ١٨٤ .

وتعددت أسواق الرقيق، وكان سوق زنجبار كما سيقت الإشارة هو السوق الرئيسي يليه سوق كلوة، كما وجدت أسواق صغيرة في ممبسة ومالندى ومقديشيو. وحين اشتدت عمليات التفتيش عن الرقيق ونشطت الدوريات البريطانية الساحلية حرصت السفن العربية التي كانت تحمل الرقيق على تجنب زنجبار والاتجاه شرقاً بعيداً عنها رافعة أعلاماً أجنبية فرنسية أو فارسية، كما كان الرقيق يشحن في قوارب صغيرة لا تتسع لأكثر من عشرة أشخاص ويقدم أصحابها إقرارات بأن ما عليها بحارة. وكان الرقيق يجمع من أسواق الصومال الداخلية ومن قلب الهضبة الحبشية واشتهرت الجزيرة العربية بالرقيق الأسود الذي يعمل في خدمة المنازل، وكانت السفن العربية تأتي من الجزيرة حاملة التمر أو الأسماك، حيث تقوم ببيعها ثم تشتري بها رقيقاً أو سلاحاً من سواحل إفريقيا الشرقية خاصة جيبوتي. وكان استخدام بعض السفن للأعلام الأجنبية يتم بناء على اتفاق بين السلطات الأجنبية والعربية تبادلاً للمصالح^(١).

كان العمانيون العرب يتاجرون في الرقيق على طول ساحل إفريقيا الشرقية لقرون عديدة. وقد كتب أحد الأطباء الإيطاليين الذين كانوا يعملون في مسقط سنة ١٨٠٩م - ١٨١٤م يقول إن أغلب دخل هذه المنطقة كان يأتي من استيراد العبيد^(٢)، وأنه بالنسبة للسكان العمانيين البالغ عددهم حوالي ٨٠٠ ألف كان السود يمثلون واحداً من كل ثلاثة في عمان، وكان يرد إلى عمان كل ستة نحو ألفين من العبيد تقريباً غير ما كان يباع على طول الساحل.

وخلال القرن الثامن عشر صارت كلوة الميناء الأساسي لإفريقيا الشرقية بالنسبة لتصدير العبيد الذين كانوا يجلبون من الجنوب الشرقي من تنجانيقا وكذلك من منطقة بحيرة نياسا، وكان العمانيون على الساحل يتمركزون في زنجبار، وعندما سيطروا على كلوة في منتصف سنة ١٧٨٠م حولوا هذه الجزيرة إلى تجارة العبيد. وفي سنة ١٨٣٤م كان تصدير العبيد بلغ عدداً سنوياً يقدر بـ ٦٥٠٠، وفي الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان العدد السنوي يتراوح ما بين ١٤ ألفاً و ١٥ ألفاً، وقسم من هؤلاء العبيد كان يوجه إلى أسواق الشرق الأوسط، وبعضها كان يستخدم في الزراعة في زنجبار، حيث تمت زراعة القرنفل بعد سنة ١٨١٠م وازداد الطلب العالمي عليه. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر فإن سكان الجزيرة كانوا يضمون ما لا يقل عن ٦٠ ألفاً من العبيد.

(١) سمنار قسم التاريخ - المرجع السابق - ص ١٨٦.

(٢) يجب التحفظ على هذا القول لأنه في ذلك الحين كانت بها تجارة متنوعة تجوب حتى الهند والصين.

إن حاكم عمان السلطان سعيد نقل مقره إلى زنجبار سنة ١٨٤٠م وتحولت الجزيرة بفضل سياساته إلى أن تكون أهم إقليم خاضع لحكمه، وأن تكون الميناء الدائم على الجانب الغربي للمحيط الهندي، والمصدر الأساسي الذي يمد العالم بالقرنفل والعاج، والذي يحتوى على أهم سوق للرقيق في الشرق. وعلى هذه القاعدة من السلطة والغنى وسع السلطان سعيد سلطانه في داخل إفريقيا. ازدهرت باجنامويو بزراعتها وبقرنها من زنجبار فصارت مركزاً مهماً لتجارة الرقيق. وكانت تجارتها تمول في الأساس من الآسيويين الآتين من الهند واستقروا في المدن الساحلية وخاصة زنجبار.

وكان من يباشرون التجارة منهم عرباً يسمون عرب الشمال أو العمانيين، وفي الحقيقة ربما يكون أكثر من مارس تجارة العبيد هم العرب الأفارقة، وقد صارت التجارة زنجبارية أكثر منها عمانية مع الوقت. ومن المؤكد أن الكثير من تجار العبيد الأساسيين مع العديد من المتعاملين في العبيد في ذات الأقاليم كانوا من السود مثلهم في ذلك مثل ضحاياهم. وكانت القوافل العربية تواجه مصاعب كثيرة منها الحاجة إلى إمدادات الغذاء وإلى الحمالين من الإفريقيين ومواجهة قبائل الداخل مما اضطرهم إلى مهادة زعمائها الإفريقيين ومدّهم بالسلاح والأقمشة ودفع رسوم مرور عبر أراضيهم طلباً للحماية. وكانت الحروب القبلية الداخلية وارتفاع تكاليف نقل التجارة بين الساحل والداخل ونشاط بعض الإفريقيين في أعمال اللصوصية وقطع الطريق في الداخل من أهم أسباب فشل كثير من قوافل التجارة العربية وإفلاسها مع ملاحظة أن القوافل التجارية كانت زعمائها عربية أو سواحيلية ولكنها كانت تتألف من الإفريقيين أساساً^(١).

بدأ السلطان سعيد حكمه في عام ١٨٠٦م في الوقت الذي بدأ فيه الصراع الإنجليزي الفرنسي يدخل مرحلته الخامسة في المحيط الهندي وشرق إفريقيا، وأدرك سعيد أن إنجلترا باستطاعتها أن تتوسع في سواحل إفريقيا دون أن تقوى فرنسا أو أية دولة أخرى على معارضتها، واختار سعيد الانحياز إلى جانب تلك الدولة التي ادعت أنها تحافظ له على أملاكه.

(١) معيار قسم التاريخ - للرجع السابق ص ١٧٩.

كان الثمن الذي دفعه سعيد لصداقة إنجلترا للمحافظة على بلاده أمام قوة إنجلترا البحرية في المحيط الهندي هو قبوله للسياسة الإنجليزية الخاصة بحاربة تجارة الرقيق، واستخدمت بريطانيا هذا الادعاء الإنساني لخلق المتاعب أمام الدول التي تعتمد على الأيدي العاملة المستترة وهم العبيد في إنتاجها الزراعي وإضعاف إنتاج من يعتمد على العبيد لافتقاره إلى الأيدي العاملة من ناحية ومصادرة الأسطول البريطاني لشحنات العبيد المستوردة إليه. وإذا لاحظنا أن إنجلترا كانت تهتم بتحويل الحركات التجارية أكثر من اهتمامها بالإنتاج الزراعي، لهذا فإن إلغاء الرق لم يكن يتضارب مع أرباح أصحاب رؤوس الأموال البريطانيين الذين حصلوا عليها من مصادرة الأسطول البريطاني لشحنات العبيد حيث كان يأمر السفن التي تقع تحت قبضته^(١).

كان سعيد يعتمد على البريطانيين في حمايته من منافسيه العرب بالنسبة لمجال حكمه الغني، وكذلك كان البريطانيون يحمونه من مخاطر القوى الإمبريالية الأخرى الضخمة التي كانت تأتيه من تجارة الرقيق، وكان هو شخصيًا وبعض أفراد أسرته يمارسون هذه التجارة، ورغم أن الحكومة البريطانية كانت سياستها في هذا الوقت ضد تجارة الرقيق فإنها أثرت الابتعاد عن أن تشير خلافًا مع حليف لها يمكن من نفوذها في المنطقة. وكانت النتيجة هي نوعًا من التناقض الدبلوماسي الذي يتراوح بين الضغوط والمقاومات والتنازلات والتفاهات حتى كان عام ١٨٤٥ م، حيث وافق سعيد على معاهدة تمنع التجارة البحرية بين موانئ لامو في الشمال وكلوة في الجنوب فيما عدا نقل العبيد بين أقسام ما يسيطر عليه السلطان من أقاليم إفريقيا. ومن ثم انتقلت تجارة المصادر الصريحة إلى كلوة، وكان العبيد الذين يجلبون إلى زنجبار لأغراض الاحتياجات الداخلية يهربون من الأسطول البريطاني إلى مختلف الأسواق في بلاد المسلمين.

توفي سعيد سنة ١٨٥٦ م عندما صارت زنجبار مستقلة عن عمان وقوى العرش ابنه ماجد الذي كان أقل انصياعًا للضغوط البريطانية. وفي عام ١٨٥٩ م وحدها وصل إلى زنجبار نحو ١٩ ألفًا من الرقيق، ويعتمد هذا الرقم على الرسوم التي حصلت، ومن ثم لا يحسب فيه من تهربوا من دفع الرسوم أو المعفون منها مثل السلطان وأفراد أسرته من يهربون الرقيق.

(١) التناقض الدولي في شرق إفريقيا - د. جلال يحيى - ص ٢٢ و ٢٧.

وفي عام ١٨٦٨م ذكر القنصل البريطاني هناك أن نحو ٣٠ ألفاً من الرقيق الذين جلبوا كانوا يردون سنوياً من منطقة بحيرة نياسا إلى كلوة وأن ثلثيهم كانوا يشحنون بالسفن إلى زنجبار، أما الباقي فكانوا يرسلون إلى الموانئ الشمالية في عمان أو غيرها. وذكر تقرير القنصل البريطاني أيضاً أنه في مقابل كل عبد يصل إلى كلوة كان هناك آخر يقتل في عمليات الخطف والنقل^(١).

وفي زنجبار كان العبيد يفرعون من السفن ومن يموت منهم يلقى في الماء ومن يكون ضعيفاً أو مريضاً يترك على الشاطئ توفيراً للرسم التي تحصل عليه إذا مات قبل أن يباع، والباقي يعطى من الطعام والماء حتى يتمثل للنشوء، ثم يعطى من الملابس ووسائل الإظهار ما يتناسب مع إعداده لسوق الرقيق حتى يباع، وكتب الكابتن كولومب وهو من الأسطول الملكي الإنجليزي في عام ١٨٦٨م يصف واحدة من سوق الرقيق، وكان هو ممن يتعقبون تجار العبيد في المحيط الهندي، كتب يقول: «كان هناك من أسواق المزادات التي يجرى فيها بيع الرقيق نحو عشرين، ثم وصف أحد هذه المزادات كانت المجموعة المعروضة فيما يبدو حديثة الورد. وكلهم صبية وصبايا وبضعهم أطفال. وبين هؤلاء يبدو القسم المؤلم والمرعب من النظام العبودي وأقصد بذلك الحالة البائسة والجوع الذي يعاني منه الكثيرون. . . كان المنظر مرعباً وبعضهم كان عليهم أمراض جلدية وأمراض في العيون». ومع مراقبين آخرين ممن يعادون تجارة الرقيق وضع كولومب تمييزاً بين الفظائع التي يتضمنها استيراد العبيد وبين ما يتبع ذلك من معاملة بواسطة ملاكهم العرب، وكولومب يميز بين الفظائع التي تجرى في عملية النقل والاتجار وبين المعاملة التي يلقاها العبد بعد ذلك من ملاكهم العرب، ويعترف كولومب بأنه لم يستطع أن يكتشف ما إذا كان الرجل الحر الأسود في زنجبار أحسن حالاً من العبد في أي من المجالات «إن المالك للأرض يتطلب من عبده عملاً خمسة أيام في الأسبوع وفي مقابل ذلك يعطيه من الأرض بالقدر الذي يستطيع أن يزرعه، والمالك للرقيق في المدينة يعطى الرقيق المسكن والمأكل والملبس ويعطيه مبلغاً من المال أيضاً. وفي كل الحالات فإن التمييز العربي هو رئيس إقطاعي لمن يتبعونه وهو يقدم لهم الحماية بمعنى الكلمة وبالمعنى الذي تفهمه نحن»^(٢).

(١) المرجع السابق P. 147 Islam's Black Slaves.

(٢) المرجع السابق P. 149 Islam's Black Slaves.

ليس من المؤكد أن حياة العبيد في زنجبار كانت بالنسبة لهم جميعاً على هذا المثال الذي ذكره كولومب، ولكن القدر المتيقن من الشواهد الحاصلة أن معاملة العبيد بواسطة ملاكهم كانت أكثر إنسانية بشكل ملحوظ من معاملة التجار لهم عند نقلهم وبيعهم.

٢ - قصوة المعاناة والتعاقب

شاعت الفظائع التي كانت تصاحب اقتناص العبيد ونقلهم وخاصة من الساحل الشرقي لإفريقيا على مدى القرن التاسع عشر، وشكلت لجنة مختارة من البرلمان البريطاني سنة ١٨٧١م للبحث في هذا الموضوع وتعقب تجارة العبيد في الساحل الشرقي لإفريقيا ولوضع نهاية لهذه التجارة ونقلها عبر البحر، وسجلت شهادتها في هذا الأمر.

يذكر أنه في سنة ١٨٦٠م فإن الأهالي من الهند ممن كانوا يقيمون لسنوات عديدة في كلوة قالوا إن مناطق بالقرب من كلوة تمتد مسيرة عشرة أيام أو اثني عشر يوماً كانت لسنوات قليلة تعج بالسكان وصارت بعد ذلك خالية منهم تماماً، وإن عربياً عاد من منطقة بحيرة نياسا ذكر أنه ارتحل لمدة ١٧ يوماً ولم ير إلا قرى مدمرة وكانت قبل سنوات قليلة تعج بقبائل «الميجانا والميجان - Migana - Migan» ولم يعد فيها شخص واحد على قيد الحياة، وفي تقديرات أخرى معاصرة ترد من المبشرين والرحالة والمكتشفين والديبلوماسيين تؤكد هذه المقولة التي وردت في تقرير لجنة البرلمان البريطاني^(١).

وفي إقليم «أونيام ويزي - Ungam wezi» بين بحيرة تانجانيقا والساحل، فإن تجاراً عربياً أو إفريقيين عربياً أنشئوا مركزين في تابورا وعلى الساحل الشرقي للبحيرة عند أوجيجي Ujiji، وكتب أحد المبشرين «سوان»: إن النظام العربي امتد إلى مناطق واسعة وسيطر على كل الجماعات القروية غير المحمية وجعل البلاد كلها ميدان معركة ولم يعد أحد آمناً خارج الأسوار المنيعة!! وذكر مبشر كاثوليكي آخر زار سوق العبيد في أوجيجي سنة ١٨٨٨م أنه وجد أكواخاً من الطين ممتدة بمكان واسع ومزدحمة بالعبيد مقيدون بالسلاسل في خطوط طويلة يظهر عليهم الجوع ويجوارهم مدفن وبعض الموتى يتركون للضياع.

(١) هذه المبالغات كانت تطلق لتبرير لبريطانيا حق التدخل والتفتيش عن تجار الرقيق وهي التي مهدت للتقوى الأجنبية استعمار القارة والإحراق والتوسع الأوروبي.

وبالإضافة إلى أعداد العبيد الذين كانوا يموتون في عمليات الإغارة كانت هناك أعداد أخرى تموت في الرحلة إلى الشاطئ وأن المبشر «سوران» في طريقه إلى بحيرة تنجانيقا وجد قافلة من العبيد ساروا ألف ميل عن دعائى الكونغو وكان عليهم أن يسيروا ٢٥٠ ميلاً آخر، كانوا مقبدين بالسلاسل في أعناقهم في طوابير كبيرة ومنهم نساء يحصلن أطفالهن على ظهورهن^(١).

كان العبيد الذين لا يطيعون الاستمرار في الرحلة مع القافلة يتركون للموت جوعاً وأحياناً يقتلون بالرصاص، وذكر أحد المبشرين أنه كان أربعة أو خمسة يفقدون حياتهم لقاء كل واحد يبقى حياً يصل إلى زنجبار، وكان مكسب التجار كبيراً إلى حد يهون معه هذا الفقد ويقولون إنه «كما لو أنك أرسلت إلى لندن كتلة ضخمة من الثلج في الصيف وأنت تعلم أن جزءاً منها سيذوب في الطريق قبل أن تصل، ولكن الباقي سيكون كافياً لتحقيق أغراضك».

ويذكر البعض أن ثمن العبد الواحد، حتى كان يكافئ ثمن عشرة من الموتى، وكان عادة تجارة الرقيق يشرق أي مواعيد دينية يمكن أن تعوق التجار والمستفيدين من هذه التجارة. وبالنسبة لشجار الرقيق يقدر الربح بنحو ٦٠٪ وهي نسبة ربح تزيد كثيراً على نسبة الربح التي تدرها تجارة العاج، وفي الحقيقة كانت تجارة الرقيق وتجارة العاج مرتبطتين وكان الرقيق يحملون العاج إلى الشاطئ، وهذا قد لا يعرفه الكثيرون من البريطانيين في العصر الفيكتوري الذين يستخدمون العاج في أصابع البيانو وكرة البليارد ومقابل أدوات الطحمان. وإن التجار ورجان البيوت النينود هم من المسلمين أساساً في شرق إفريقيا كانوا يمولون هذه القوافل، ووجدوا هذا العمل مربحاً رغم مخاطره الاستثمار فيه. وتذكر التقديرات البريطانية سنة ١٨٧١م أن سلطان زنجبار حصل على نحو ٢٠ ألف جنيه إسترليني من تجارة الرقيق وهو مبلغ يساوي ربع دخله السنوي^(٢).

(١) المرجع السابق P 157

(٢) المرجع السابق P 199

إن القسوة في اقتناص العبيد ونقلهم زادت مع الضغط الذي كانت تمارسه بريطانيا في البر والبحر ضد هذه التجارة، وبالتالي زادت القسوة من الضغوط البريطانية التي كانت تتلاءم مع مقتضيات التوسع الإمبريالي وأعطت لهذا التوسع حجماً أخلاقياً.

وفي «أوغندا» فإن تجاراً عربياً أو إفريقيين عرباً وصلوا إلى عمالك «بوجندا» و«بونيورو»، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وجد التجار هناك مورداً خصباً للعبيد من أسرى هذه الممالك المتجاورة نتيجة الغزوات والحروب وكانوا ينقلونهم سريعاً بما يقدر بأربعة آلاف فرد في العام إلى الشاطئ. وقال الأسقف «توكر» إنه واجه أعداداً من تجار العبيد كانوا يرشون الرؤساء المحليين ليساعدوهم في الإغارات. وفي عام ١٨٩٢م عقدت بريطانيا مع بوجندا اتفاقية تمنع الإغارات لاصطياد العبيد والاتجار فيها كما تمنع استيرادهم أو تصديرهم. ومع إعلان الحماية البريطانية مع هذه المملكة سنة ١٨٩٤م انتهت تجارة العبيد. وفي بونيورو في الشمال الغربي زادت تجارة العبيد من أجل الحصول على السلاح والذخيرة مع التجار العرب والعرب الإفريقيين، ولم تستطع الحملة العسكرية البريطانية على عاصمة المملكة أن تنهى هذا الأمر.

وفي المناطق البعيدة من كينيا بالقرب من بحيرة رودلف فإن تجارة العبيد نشطت في التسعينيات من القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٩٠م اشترك التجار في حملات امتدت نحو سنة وكونوا شراكة بينهم وكانوا يتعاملون مع التجار الهنود. وفي نهاية الحملة كانت الأرباح توزع بين الشركاء حسب مساهماتهم، ويفترض أن إعلان الحماية البريطانية في شرق إفريقيا سنة ١٨٩٥م قد أنهت تجارة العبيد في هذا الإقليم رغم أنها استمرت في الشمال الشرقي إلى ساحل الصومال حتى القرن العشرين^(١).

وعلى الشاطئ الغربي من بحيرة نياسا فإن مغيرين من العرب والعرب الأفارقة عملوا وتوسعوا في ذلك حتى أعالي الزمبيزي وكانوا يصطادون القنبيات والشباب ويتاجرون في العبيد مع الرؤساء المحليين. ويظهر في شمال غرب بحيرة نياسا مدى الدمار الذي سببته هذه التجارة، حتى أن وادياً خصباً يمتد نحو ٢٥ ميلاً كان معروفاً بإنتاجه الغني ومنطقة أخرى تمتد من شرق البحيرة لم تعد موجودة وقد أحرقت القرى وما بقي من الأهالي هرب في الكهوف والجبال.

(١) المرجع السابق P. 161 Islam's Black Slaves.

في عام ١٨٩٠م عين هاري جونسون مبعوثاً ملكياً وقنصلاً عاماً في الأراضي التي
تحت النفوذ البريطاني شمال الزميرى وكانت مهمته هي إنهاء تجارة العبيد واستغرق
ذلك عدداً من السنين ليظهر المنطقة من التجار وعملائهم.

وفي زنجبار ساعد بريطاني كل من ألمانيا والبرتغال، ثم صدر مرسوم بتحريم تجارة
العبيد في زنجبار ووقعه السلطان سنة ١٨٩٧م وامتد ذلك إلى داخل البلاد، وقد حاول
التجار العرب جميع رقيقتهم والنسير بهم شمالاً في طريق برى حتى موانئ الصومالي
ولكن السلطات البريطانية اتخذت هذا ذريعة لاحتلال ميناء ممبسة واتخاذها قاعدة لقطع
طريق التجارة العربية بين الشمال والجنوب، وقد حاول الأهالي القيام بثورات متعددة
ضد السلطان وضد تغلغل النفوذ البريطاني في سواحل شرق إفريقيا ولكنها قمع
بعنف^(١).



(١) التنافس الدولي في شرق إفريقيا - المرجع السابق - د. جلال يحيى ص ٦٧.

ثانياً (أ) العرب والكونغو

عندما بلغ الأوروبيون الأول الكونغو عام ١٤٨٢م وكانوا من البرتغاليين واجهوا مملكة إفريقية قوية عفية، ورغم الازدهار الذي كان يشعر به البرتغاليون تجاه ثقافة الكونغو فإنهم ما لبثوا أن اعترفوا بالنظام والتقدم الذي تبني عليه المملكة هناك، وهي المملكة التي كانت تتولى قيادة الساحل الغربي لوسط إفريقيا، كانت إمبراطورية مثرامية الاتساع والسكان، وجزء منها يقع الآن في عدد من الأقطار الأخرى بعد أن تحكم الأوروبيون في رسم الحدود الاستعمارية عام ١٨٨٤ - ١٨٨٥م. لقد كانت الكونغو هي الجوهرة التي من أجلها مارس الاستعمار عمليات القتل والإبادة.

إن ما حدث في الكونغو من أكبر الجرائم التي ارتكبتها الأوروبيون في إفريقيا ولا يمكن أن يقارن بما فعله العرب هناك، فمع الاعتراف بظلم ووحشية تجارة الرقيق العربية فإنه يصعب مقارنتها بما فعله ملك بلجيكا ليوبولد الثاني من مذابح وقتل وإبادة.

ومع ذلك تحمل العرب وزر تفشى تجارة الرقيق رغم مشاركة الدول الأوروبية لهم فيها، وشهد المتكشف كامبيرون في تقريره الذي قدمه عام ١٨٧٣م للجمعية الجغرافية في بروكسل أن ظاهرة تجارة الرق كانت تسبق الوجود العربي في أواسط القارة، وأن الرؤساء الإفريقيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للتجار فيها، والبرتغاليون هم من كانوا وكلاء لتصديرهم، وأن العرب اشتروهم لخدمة المنازل أو فلاحه الأرض وقد أسهموا في هذه التجارة أمام بريق الكسب الكبير الذي أبرزه لهم الأوروبيون الذين عادوا ونددوا بهم^(١).

عرف العرب القادمون من عمال عبر زنجبار طريقهم إلى الكونغو منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن مروا بأرض تنجانيقا (تنزانيا حالياً) التي أسسوا فيها مدنًا ومحطات تجارية ابتداء من ساحل المحيط الهندي عند مدينة دار السلام وحتى شواطئ بحيرة تنجانيقا في أقصى غرب تنزانيا عند الحدود الحالية مع الكونغو، ومن أشهر تلك المحطات والمراكز التجارية التي أقامها العرب في طريق رحلتهم إلى الكونغو ووسط إفريقيا تابورا وسط تنجانيقا وأوجيجي على ضفة بحيرة تنجانيقا، وكان التجار العرب

(١) مسمار قسم التاريخ - المرجع السابق - بحث د. يواكيم رزق مرفعي ص ٢٣٤.

فى طريقهم إلى الكونغو يستمدون قوتهم وقوتهم ويؤمنون حماية قوافلهم من سلطان زنجبار^(١).

ومن العوامل التى دفعت العرب إلى دخول الكونغو من جهة الشرق عدم توقعهم أن يواجهوا مقاومة جادة من السكان الأصليين لتعرفهم على عاداتهم واحترامهم لها وإجادتهم الملاحة فاستغلوا أفرع نهر الكونغو للدخول إلى أغوار الكونغو وغاباته الكثيفة؛ ولأن الكونغو غنى بالعاج وهو سلعة مطلوبة فى أسواق الساحل يأخذها الأجانب الأوروبيون وهو السلعة الوحيدة التى كانت تتحمل النقل لمسافات طويلة على خلاف المحاصيل الأخرى. وكانت رحلتهم إلى الكونغو تنقسم إلى مرحلتين: الأولى تبدأ من الساحل إلى ضفاف بحيرة تنجانيقا، والثانية من بحيرة تنجانيقا إلى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه، ولم تكن هذه الطرق سهلة إذ كانت تجوس داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة بما حوته من أخطار فضلاً عن شدة مراس الزواج^(٢).

عاش العرب فى تلك المناطق داخل إفريقيا بعيداً عن حكومة زنجبار إلا أنهم كانوا على اتصال بها خاضعين لها. وكانت حكومة زنجبار تشاركهم تمويل مشروعاتهم، وكان هؤلاء العرب يعتبرون مسئولين عما يدور فى الداخل لدرجة أن الرحالة الأجانب كانوا يختصمون السلطان فى زنجبار فى دعاوى التعويض عندما يلزم بهم أذى من الزواج.

التمس العرب فى تلك المناطق سياسيتين أساسيتين مسألة الزواج فقام بينهم وبين زعمائهم نظام تأخ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات خاصة من دخل منهم الإسلام، وسياسة اللجوء إلى السلاح إذا لمسوا غيبتهم غدرًا أو خيانة، إلا أن الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى ثقل سلطان زنجبار ضعيفًا كان أم قويًا.

(ب) مملكة تيبوتيب العربية

كان للعرب فى القرن التاسع عشر فضل السبق فى كشف عمق القارة والوصول إلى حوض الكونغو وجلب ثرواته مما لفت أنظار الأجانب والمستكشفين إلى تلك البلاد،

(١) الجماعات العربية فى إفريقيا - دراسة فى أوضاع الجاليات والأقليات العربية فى إفريقيا جنوب الصحراء - د. عبد السلام بغفادى / الناشر مركز دراسات الوحدة العربية ص ٦٢٣.

(٢) سمنار قسم التاريخ - المراجع السابق بحث د. بواقيم رزق مرقص ص ٢٢١.

فاستغلوا العرب في وصولهم إلى الكونغو، وارتبطت جهودهم برجل عربي كان أول من دخل الكونغو وهو حميد المرجبي الملقب بتيپوتيب العربي، كان قد دخل الكونغو بشكل منظم في أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب في شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها. وكان لهذا الرجل فضل الريادة في الدخول العربي المنظم للكونغو وفضل إرشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين إلى تلك البلاد أمثال بيرتون ولفنجستون وستانلي. وهكذا بدأت العلاقة وتحققت خلالها إنجازات علمية كبيرة ما لبثت أن تعكرت عندما تكشفت ميولهم الاستعمارية^(١).

وحميد بن محمد بن جمعة المرجبي الذي اشتهر باسم «تيپوتيب - Tipu Tyip» هو أول من تستطيع القول إنه الزعيم والتاجر الذي أسس الوجود العربي في الكونغو والذي انتهى كثير من هذا الوجود بنهايته.

قام هذا الرجل بثلاث رحلات إلى الكونغو بهدف الاتجار في الرقيق والعاج ومحاصيل وسط القارة، وجرى في ركابه المستكشفون والأجانب، وتمكن من تأمين نفوذ سلطان زنجبار الاقتصادي على المنطقة خلال أعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٦ م، وهذا يعني أنه أسس نظاماً إدارياً وسياسياً وتجارياً متماسكاً على ناصية التجارة في تلك البلاد حتى وصف بأنه «الملك غير المتوج للكونغو»^(٢). وبعد أن استقر وأنشأ وجوداً عربياً داخل تلك البلاد ما لبث أن تعارض مع أطماع هؤلاء الاستعماريين البلجيكيين الذين كان له فضل إرشادهم وتأمين من أرسلوه من المستكشفين والمستعمرين، فقامت الحرب بينه وبينهم انتهت بالقضاء على الوجود العربي وقيام مستعمرة الكونغو ملكاً خاصاً للملك نيوبولد الثاني.

كانت رحلاته الثلاث في سنوات ١٨٥٠ - ١٨٦٢ م، وكانت الرحلة الثالثة هي التي وطدت الوجود العربي في الكونغو، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين الذي انتهى بإبعاد العرب من الكونغو وحل البلجيكي محلهم ولكن كمستعمرين^(٣).

(١) ممتاز قسم التاريخ - المرجع السابق بحث د. يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٥.

(٢) الجماعات العربية في إفريقيا - المرجع السابق - ص ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٣) ممتاز قسم التاريخ - المرجع السابق بحث د. يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٥.

عندما دخل العرب في موجتهم الثالثة مع تيبوتيب عام ١٨٧٧م وكان موفداً من قبل الملك ليوبولد ملك بلجيكا بقصد ظاهري وهو استكمال كشف حوض الكونغو وفتح تجارة الرقيق، أما السبب الحقيقي فكان تهية الكونغو لتكون ملكية خاصة بالملك.

طرح الملك هذا الموضوع في الجمعية الجغرافية في بروكسل عام ١٨٧٦م على الدول الأوروبية الاستعمارية وخاصة فرنسا وإنجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية بينهما في الشرق والوسط من إفريقيا. وتم الاتفاق على أن تترك إنجلترا والدول الأوروبية المستعمرة للشرق الإفريقي، تترك منطقة الكونغو لليوبولد مقابل ترك شرق إفريقيا لهم، واستقر الوضع بمؤتمر برلين الشهير سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥م الذي اعترفت فيه الدول الاستعمارية بقيام مستعمرة الكونغو الحرة وإدارتها بمعرفة الملك ليوبولد.

العلاقات العربية البلجيكية

في بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين العرب والبلجيكيك إنما كانت من خلال المستكشف ستانلي الذي حرص على أن يسلك معهم سلوكاً ودياً حتى ينال تعاونهم وحمايتهم. وكان يوصي الضباط البلجيكيك ألا يظهروا أي غلظة للعرب الأمر الذي جعلهم يركنون إليهم ويحسنون بهم الظنون حتى أنهم اصطحبوا تيبوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أراضي الكونغو.

أنزلت بلجيكا عدة بواخر في فروع نهر الكونغو وظن العرب أنها لتيسير نقل التجارة ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك وأعطت قدرأ يسيراً منه هدايا للعرب الذين ردوا لهم العطاء بالعاج وبيع وخدمات. ولعل العرب كانوا مدفوعين لهذا السلوك بسبب ضعف سلطان زنجبار الذي سيطر عليه الإنجليز فصاعت هيئته وانعكس ذلك على العرب في الكونغو.

وبعد أن استتب الوضع للبلجيكيين في الكونغو من الناحية الأمنية والاقتصادية والسياسية مع الدول الأوروبية بدءوا يتخلصون من العرب. وكان العرب في ذلك الوقت قد خلدوا إلى الهدوء مكثفين بترويج تجارتهم وتسيير قوافلهم، زرعوا الأرض وشاركوا الأجانب بأموالهم في الأنشطة التجارية جاهلين ما بدأ يحيك البلجيكيون لهم

فى الكونغو، وفى المحافل الدولية وأوروبا يهدف تشويه سمعتهم واستنفار القوى ضدهم، تركوا المبشرين والرحالة يكتبون عن بشاعة تجارتهم فى الرقيق فمسحوا صورتهم أمام العالم وهم يسوقون الرقيق فى شكل قطار حزين إلى الساحل مكبلين بالأصفاد الحديدية، واستجابت أوروبا لما كتب فسألت الأقلام والأموال على من يوقف هذا التزييف الأدمى بعد أن أقر الجميع على ضرورة مناهضتهم فى الكونغو^(١).

(ج) سياسة القضاء على العرب

بدأت سياسة الغدر بالعرب بعد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ م، عندما غير ستانلى أسلوب تعامله مع العرب فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ويكره التجار العرب على الاتجهاء بما تبقى لهم من عاج وطلع أخرى إلى الساحل الغربى للكونغو وليس الشرقى بهدف إحلال القطيعة بينهم وبين أهلهم فى زنجبار، واتبعوا سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنج فى غياب تيبوتى فى الساحل الشرقى بالتنازل عن حرياتهم للبلجيكىين والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد.

فلما عاد تيبوتى. خالف ما توقعوه، وبدأ يجمع العرب حوله للدخول فى معركة مع البلجيكىين اقتصادياً بمنع التعامل التجارى معهم. وفى عام ١٨٨٦ م بدأت الحرب وانتهت المعركة بانتصار العرب ومقتل قائد البلجيك. وإزاء هذا النصر اعتزى القوات البلجيكىة الضعف والخوف، وتوجس ليوبولد أن تكون إنجلترا وراء تيبوتى لتستخدمه ضده فى الكونغو لتضيق عليه فرصة ثملكه للكونغو بعدما أنفق من مال، فلجأ إلى مهادنة العرب مرة أخرى وعرض على تيبوتى أن يكون حاكماً من قبله على منطقة ستانلى فيل وقائداً للعرب الموجودين فى المنطقة ومنفذاً لسياسته فى الكونغو مقابل راتب شهري، وأن يرفع العلم الذى اختاره لما أسماه بدولة الكونغو الحرة وكان ذلك عام ١٨٨٧ م. ولكن تعيين تيبوتى لم يأت بالشهرة المطلوبة؛ لأنه أغضب العرب. بسبب تبعيته لليوبولد، وإزاء هذا قامت المعارك من جديد بين البلجيكىين والعرب لثأرين لكرامتهم، واستمرت المعارك بين الطرفين تشدد وتفتت حتى عام ١٨٩٣ م واشتبكاً فى حرب ضروس استمرت عاماً كانت القاضية على الوجود العربى وسالت

(١) سمنار قسم التاريخ - المرجع السابق - بحث د. يواقيم رزق مرقص ص ٢٢٨.

فيها دماء الآلاف منهم، وتشتت الأسر، وسبق قاداته إلى بلجيكا حتى لا يعودوا مرة أخرى للقتال. ومع ذلك فإن العرب بقيادة سيفوين تيبوتيب تمكنوا من جمع مائة ألف مقاتل وظلوا يقاتلون طوال سنتين حتى سقطت آخر معاقلهم في ١٨٩٤م بعد أن استنفدت كل قوتهم^(١). وعاد تيبوتيب مهزوماً مريضاً إلى زنجبار بعد مقتل ابنه وقواده وضياح ماله وعتاده، رجع ليجد الإنجليز متربصين به، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها في السجن إلى أن مات سنة ١٩٠٦م.

خلصت الكونغو لليوبولد وخضع شعب الكونغو لأبشع أنواع الاستعمار الذي راح ضحيته خسائر بشرية قدرت بعشرة ملايين شخص، حيث كان القتل والمجازر الجماعية والعمل بالسخرة والجوع وحرق القرى هو النظام المطبق، وكان هناك نوع من الكراييج يصنع خصيصاً من جلد الخرتيت بعد أن تجف وتقطع بطريقة تجعل أطرافها حادة وجارحة، وكانت تترك أثراً دامية على الأجسام وأن عشرين جلدة منها كانت تنقل المجلود إلى عالم اللاوعي ومائة جلدة كانت قاتلة.

كان استخراج المطاط عملية صعبة استخدم فيها وكلاء ليوبولد إجراءات قاسية لجبروا الأهالي في الكونغو أن يذهبوا إلى الغابات ويجمعوا المطاط. وكان أي رجل يقاوم هذا الأمر يرى بعينه كيف تختطف زوجته وتفيد بالسلاسل ليضطر هو إلى الرضوخ والذهاب لجمع المطاط، وأحياناً كانت تقتل زوجته انتقاماً منه.

وقد قاوم كثير من القرى نظام المطاط، فكان وكلاء ليوبولد يأمرون جيش الطواري بأن يغزو هذه القرى المتمردة ويقتل أهلها، وحتى يتأكد الضابط أن جنوده لم يبددوا الرصاص في اصطیاد الحيوانات كانوا يطلبون من الجنود أن يبتروا اليد اليمنى لكل شخص يقتلونه، وأحياناً كانوا يحصلون على أيدي أناس أحياء لم يقتلوا ليقدموها. وكانت السفن تشحن بالمطاط والعاج وتعود إلى الكونغو حاملة الجنود والبنادق^(٢).

وضع العرب في الكونغو

ترددت الآراء حول وضع العرب في الكونغو فوصفهم البعض بالمستعمرين لأنهم

(١) الجماعات العربية في إفريقيا - المرجع السابق - ص ٦٢٦.

(٢) العبودية في إفريقيا - المرجع السابق ص ٢٣ - ٢٢ [يراجع ما ورد في الفصل السابق عن هذا الأمر].

وصلوا جماعات واستقروا هناك واستولوا على اقتصاد البلاد واشتركوا في تشكيل سياستها وتدخلوا في أمورها. ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك لأنهم لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها إظهارهم أو تأسيس دول وإنما كانوا مجرد مغامرين من الساحل يهدفون مثل الهنود إلى جمع الثروات بسرعة والعودة إلى الساحل، لم يعبروا من طبيعة الأرض أو السكان بل تركوا السكان الأصليين على ما هم عليه. لقد قسوا على الأهالي الوطنيين ولكن كان ذلك لكي يحفظوا لهم مركزاً ويؤمنوا تجارتهم، كما كانوا لا يرغبون الاستقرار بل كانوا دائمي التنقل، وأمنيتهم دائماً العودة إلى مقرهم في الساحل^(١).

أثرى العرب من الكونغو، وكانوا يقيمون فترات طويلة في أرضه حتى تعود إليهم فوافلهم التجارية القادمة من زنجبار، وكانت الرحلة تستغرق عاماً أو أكثر فاتجهوا إلى استثمار هذا الوقت وكانت الزراعة أول ما فكروا فيه فطهروا الأرض وأعدوها للزراعة وتعلم منهم أهالي البلاد الزراعة والاستقرار والرعى والزراعة المتنقلة فأحدثوا بذلك ثورة زراعية هناك، وأدخلوا غلات جديدة - بدل الاعتماد على ثمار الغابات - مثل القطن والقمح وقصب السكر والذرة والأرز وقواكه مثل الليمون والمango والموز. وقد جمع المكتشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعي على أنه بعث عربي للكونغو، واعترفت بذلك حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣ م وأصدرت أوامرها بحفاظ على هذه النظم الزراعية العربية.

كما أسهم العرب في صناعات يدوية كثيرة كصناعة الحبال والسلال والخصير والنسيج وطوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع ونخيل الزيت والصابون الذي لم يكن للزنجوج عهد به، وراجت حياة الحرفيين كالحديد والبنائين والنجارين والخياطين والفخارين وارتفعت أجورهم، وذلك نتيجة لحركة التعمير والبناء والتجارة، وانتعشت صناعة الأسلحة النارية وإصلاحها. ونتيجة لنشاطهم التجاري شقوا الطرق وقطعوا الغابات لتأمين المرور خلالها واستغلوا المجاري المائية في النقل بالمقارب فارتبطت قبائل المناطق وأسواقها. عموماً اكتسب الزنجوج ثقافات ومهارات من العرب.

(١) مسمار قسم تاريخ - المرجع السابق ص ٢٢٢.

لقد ترك العرب في الكونغو آثاراً حضارية يتحاكى بها الكونغوليون والمنصفون من المدارس الغربية : فالعرب لم يعيشوا فيه في عزلة، ولم يكونوا يغمرون استعماراً وهم التجار المحتاجون إلى السلام والأمن في التعامل والتعاون مع الأهالي، ومن ثم كانت هناك علاقات بينهم وبين الأهالي .

في حين أن المرحلة الاستعمارية لم تترك في الكونغو سوى الحكم الاستبدادي والنهب، عندما حصل الكونغو على استقلاله عام ١٩٦٠م لم يكن هناك ضباط ولا مهندسون ولا زراعيون ولا أطباء من الكونغوليين . ثم تصنع الإدارة الاستعمارية شيئاً يمكن للكونغو أن يحكم بواسطته شعبه فمثلاً بين خمسة آلاف وظيفة إدارية في جهاز الإدارة لم يزد عدد الساعين بها من الإفريقيين عن ثلاثة .

وليس أدل على صدق هذا الواقع إلا كلام «جربنتيل» وزير الدولة في أول حكومة استقلال عندما قال : «لقد زور البلجيكيون كل شيء في الكونغو، فليست مدينة ستانلي فيل سوى مدينة نيو تيب التقليدية التي أقامها العرب قبل قدوم الرحالة ستانلي . . ليس العرب كما قلنا تجار رقيق وإنما هم تلك المروجة الإنسانية التي اختلطت بنا وصاهرتنا، وتركوا لنا على أرضنا دمائهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة»^(١).



(١) سمار قم التاريخ - المراجع السابق ص ٢٤٤ .

الفصل الخامس

إلغاء الرق وآثاره

أولاً : التنافس في نقل العبيد

ثانياً : حظر الرق

ثالثاً : الممارسات الاستعمارية للرق في:

شمال نيجيريا - السودان الغربي - موريتانيا

الصومال - زنجبار وشاطئ كينيا

رابعاً : صدد العبيد المختصين

خامساً : خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق:

نهاية وبداية - الهجرات - الشاهد الاقتصادي -

تدهور الصناعات المحلية - الجانب الاجتماعي

أولاً: التنافس في نقل العبيد

بدأ شراء الأوروبيين للرقيق الإفريقي في القرن التاسع عشر في بدء اتصالهم بالساحل الغربي الإفريقي، واستغل البرتغاليون الرقيق قليلاً في العمل بمزارع قصب السكر في بعض جزر ساحل غانا، ولكن الأغلبية كانوا يصدرونها إلى أمريكا اللاتينية للاشتراك في تعدين الفضة عام ١٥٢٠م^(١).

وعندما نزل البرتغاليون سنة ١٥٠٠م في مملكة كلانجا التي تقع في الشرق الإفريقي عند نهر الزمبيزي بقصد الاستيلاء على مواطن الذهب بدءوا يستغيضون تجارة الذهب بتجارة الرقيق. أثارت تجارة الرقيق حفيظة السكان المحليين وأعلن ملك كلانجا عصيانه على الإدارة البرتغالية ونشبت الحرب بينهما، وانتصر البرتغال وأسروا ابن الملك الصغير وأرسلوه إلى جوا في الهند، حيث تعلم وعمد واتخذه الحاكم هناك عبداً له^(٢).

وفي أوائل القرن السادس عشر نزل البرتغاليون في حوض الكونغو مبشرين بالمسيحية في عهد الملك الإفريقي نرنجا (الذي لقب فيما بعد أغونسو الأول) سنة ١٥٠٦ - ١٥٤١م الذي أبدى قبولاً للمسيحية وأرسل مجموعة من أبنائه وذويه إلى البرتغال لدراسة اللاهوت، غير أنهم كانوا يقعون أسرى في قبضة تجار الرقيق الأوروبيين فيأخذونهم أرقاء في سفن الرقيق إلى أوروبا. ونظراً لازدياد عدد الأرقاء المأسورين من مملكة نرنجا ساءت علاقة هذا الملك بالإداريين البرتغاليين واستنجد نرنجا بملك البرتغال فلم يعره انتباهاً.

وفي الفترة ما بين ١٦٤٠ - ١٧٥٠م اشتدت المنافسة على تجارة الرقيق وأسس الأوروبيون عدداً كبيراً من الحصون العسكرية والمراكز التجارية على شاطئ إفريقيا لتواجه الطلب المتزايد على العبيد. وانتهاز القساوسة والمبشرون هذه الفرصة فعملوا

(١) قضايا إفريقية - د. محمد عبد الغني محوفى ص ٩٢.

(٢) مجلة دراسات إفريقية (مجلة بحوث سودانية) المجلد ٢٢ ديسمبر ١٩٩٩م، ص ٩٦.

على التبشير بينهم، وقد لعب هؤلاء الأقارعة المتصرون دوراً بارزاً في نشر المسيحية في إفريقيا فيما بعد^(١).

كان التوسع الكبير في تجارة الرق عبر الأطلنطي في منتصف القرن السابع عشر للتوسع في زراعة قصب السكر في جزر الهند الغربية بأمريكا عندما ثبت أن الإفريقي متفوق في العمل الزراعي لمناخه ضد أمراض المناطق الحارة كالمalaria والحمى الصفراء، فضلاً عن قدرته على العمل في المناخ الحار الرطب أكبر من الأوروبيين. وبلغت تجارة الرق الأوروبية عبر الأطلنطي مداها في القرن الثامن عشر، ويقتدر المصدر منهم ما بين ٣٠ - ٤٠ مليون نسمة، وهذا العدد هو عدد من وصلوا أحياء إلى العالم الجديد غير من هلك بسبب صعوبات النقل والأمراض والذين قتلوا أثناء الإغارات وعمليات القنص البشري، ومن الصعب معرفة نصيب كل جزء من أجزاء إفريقيا في هذه التجارة على وجه الدقة ولكن ربما خرج ثلثا الرقيق من ساحل الذهب وأنجولا والكونغو التي ذاع صيتها في توريد العبيد في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد نقلت بريطانيا والبرتغال نحو ثلث الشحنات ونقلت هولندا نحو ١٨٪ منها وفرنسا ١٢٪ والولايات المتحدة ٥٪^(٢).

وفي عام ١٧٩١م كانت زرائب^(٣) الأوروبيين على شواطئ إفريقيا ٤٠ زريبة منها ١٤ لبريطانيا، و٣ لفرنسا، و١٥ لهولندا، و٤ للبرتغال، و٤ للدانمارك.

وبلغت تجارة الرقيق البريطانية ذروتها عشية حرب الاستقلال الأمريكية سنة ١٨٦٠م وكان عدد سفن تجارة الرقيق البحر من موانئ غرب إفريقيا ١٩٢ سفينة، وأول من مارس تجارة الرقيق في بريطانيا هو السير جون هوبكنز، وكان تجار الرقيق البريطانيون منهمكين في سد احتياجات المستعمرات الفرنسية من الرقيق، حيث لم تكن لبريطانيا مستعمرات مستقرة في أمريكا.

كانت تجارة بريطانيا مع إفريقيا وقفاً على شركات بعينها في البداية، ثم صدر أمر بفتحها لكل رعايا التاج، وكان سد احتياجات المستعمرات الإسبانية من الزنوج حصراً

(١) المرجع السابق - مجلة دراسات إفريقية ص ٩٧.

(٢) قضايا إفريقية - المرجع السابق ص ٩٢ - ١٠٢.

(٣) الزرائب جمع زريبة وهي المكان الذي كان يجمع ويحشد فيه العبيد حتى تقلهم إلى السفن وكانوا يطلقون عليه أحياناً لفظ ورشة.

على الهولنديين ثم الفرنسيين ثم انتقل إلى البريطانيين ، حاولت شركة بريطانية احتكار التعاقد عام ١٧٦٣ م ، إلا أن هذا التعاقد انتهى على أثر تصاعد الشكاوى والاحتكاكات من الشركات البريطانية من جانب وبين الموظفين الإسبان من جانب آخر فارتفعت مشاعر السخط في بريطانيا^(١).

ظلت بريطانيا الناقل العالمي الأول والمعهد الأوفر إمكانيات لضمان شحن وتأمين سفن الرقيق لوصولها لمستعمرات بقية الدول الأوروبية في جزر الهند الغربية والأمريكتين ، أسطول ضخم يحرسه أسطول حربي وتحميه مباركة الملكة الباصابات لدوره في تجارة الرق بعدما كانت مبادرة خاصة بالقراصنة والتجار المغامرين ، وحافظت بريطانيا على مركزها في سوق النخاسة العالمي طيلة قرنين والنصف^(٢).

كما لعبت إسبانيا دوراً مزدوجاً في مأساة الرق والاسترقاق ، إذ سحقت الهنود الحمر في مستعمراتها في جزر الكاريبي وفي الأمريكتين ودمرت حضارتهم واستجلبت أرقاء إفريقيا ليؤدوا ما عجز الهنود عن إنجازه في الزراعة والمناجم . ففي القرن السادس عشر اقترح الأسقف بارتلومي دي لاكاساس على ملك إسبانيا سنة ١٥١٨ م جلب الرقيق من إفريقيا ليحلوا محل الهنود في الزراعة والمناجم . وبحلول الربع الأخير من القرن السادس عشر في عام ١٥٧٥ م كان تعداد الأرقاء الأفارقة في المستعمرات الإسبانية ٤٠ ألفاً ، وأخذت السفن تعبر الأطلنطي وتفرغ حمولتها من الأرقاء . ثلاثة قرون من تجارة الرقيق عبر الأطلنطي استنزفت ٤٠ مليون إنسان ٩٠٪ منهم شباب ، وهذا الاستنزاف سلب إفريقيا مستقبلها^(٣).

لم تكن هناك سلعة مربحة في غرب إفريقيا طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر مثلما كانت سلعة الرقيق ، فلا الذهب ولا العاج ولا البهارات استطاعت أرباحها أن تلحق بأرباح الرقيق ، وكانت شلة الطلب من عوامل رفع سعر الرأس من الرقيق بسبب المنافسة الحامية بين التجار الأوروبيين ، وكانت الشركات التجارية تمثل القوى الأوروبية في غرب إفريقيا ، لذلك كان يتم في بعض الأحيان تعاون بين هذه الشركات لإنشاء

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ١٩٥ .

(٢) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٤٥ .

الحصون والمخازن وتنظيم التجارة لمسافات بعيدة عن الساحل، وكانت هذه الشركات وسيلة وأداة لتنفيذ سياسات الدول الأوروبية. ومثل هذا التنظيم في الاستنزاف لم يكن معروفاً لدى العرب في إفريقيا، فلم تكن هناك شركات وراءها حكومات.

تفاهم اصطياد البشر لاسترقاقهم تفاهماً خطيراً يسبب الطلب المتزايد من المستعمرات الأوروبية. وعلى الجانب الإفريقي مارس ملوك وشيوخ القبائل الغزوات حتى على أبناء قبائلهم أحياناً بهدف مقايضتهم بالسلع الأوروبية، وكثيراً ما كانوا يشعلون النار في القرى لئلا لا يصطاد سكانها وهم يحاولون الفرار والنجاة. كان الملك أو شيخ القبيلة يحدد المنطقة التي سوف يتم الهجوم عليها بغية للقيام بعمليات السطو على الرقيق، فيتم جمع الجنود دون أن يعرفوا السر وراء ذلك، وكان الجيش يسير الليل بطوله وأحياناً أياماً عديدة دون أن يعلم الغرض من المسير، وكان السير محسوباً، بحيث يتم الوصول إلى القرية المقرر تدميرها عند الفجر أو غروب الشمس، حيث يحاط بها بينما الرجال يغطون في سبات والنساء يبدأن دق الذرة، وهنا يدخل الجيش القرية. أما سكانها الذين أخذوا على حين غفلة وقد أصابهم الفزع فلا يكون لديهم من الوقت ما يكفي حتى ليعرف بعضهم بعضاً، فمن يبدى مقاومة يقتل، والباقيون يوضعون في السلاسل حيث يتقاسمهم الملك وأتباعه^(١).



(١) السياسة والحكم في إفريقيا الجزء الأول - المرجع السابق ص ٥٤.

ثانياً: حظر الرق

لا ينس التاريخ ما قام به الإنجليز في تجارة الرقيق منذ القرن السادس عشر، كانت الشركات البريطانية تعمل أولاً: في تجارة الذهب ثم اتجهت إلى تجارة الرقيق لأنها تدر أرباحاً طائلة، وبدءوا يصدرون الرقيق إلى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى في الأمريكتين، وكانت وسائل بريطانيا في هذه التجارة هي القيود والسلاسل الحديدية والأسلحة النارية وغيرها لاصطياد الجنس البشري وجعلت من إفريقيا مسرحاً لصيدها ومن مستعمراتها سوقاً لها، فقد اندفعت إلى حيث يسكن السود كالذئب إلى حظيرة الغنم واشتعلت في القارة النيران حتى تتمكن من الإمساك بأهلها. مارست الوحشية والقسوة التي يصعب حصرها مثال ذلك أن إحدى السفن البريطانية (زويج) أبحرت عام ١٥٨١م وهي محملة بكامل حمولتها من الرقيق، وعندما اكتشفت أن مياه الشرب غير كافية للعدد الذي تحمله السفينة وخوفاً من هلاك كل حمولتها فقد ألقى ١٣٢ عبداً في عرض البحر، وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك وقررت أنه لا تنطبق عليهم أي جريمة من جرائم القتل^(١).

وابتداء من سنة ١٦٦٠م أخذت المستعمرات الإنجليزية في شمال أمريكا في وضع قوانين ولوائح تنظيم التعامل مع الرقيق، فأصدرت ولاية فرجينيا تشريعاً يجعل الأطفال من أم من الرقيق نجسهم وقا بصرف النظر عن وضع الأب، ثم صدر تشريع آخر سنة ١٦٦٧م يبقى الرقيق في حالة عبودية مدى الحياة مما يعني أن الاسترقاق أصبح مؤسسة معترف بها تحكمها قوانين تصدرها الهيئات التشريعية، هذه التشريعات حرمت الإفريقي ليس من حرته فحسب. بل من آدميته وإنسانيته فهو يعامل كمنقول ليس له أي حقوق وأي إشارة احتجاج يرد عليها بعنف قد يصل إلى حد القتل، وإذا قتل السيد رقيقه للتغلب على عناده. لا تعتبر هذه جريمة قتل لأن الإنسان لا يدمر ممتلكاته قصداً، وصدر قانون بهذا يسمى «بقانون الإصلاح». Correction Law^(٢).

(١) المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» نوفمبر ٢٠٠٦م، مطبوعات جامعة إفريقيا العالمية الكتاب الرابع بحث تجارة الرقيق وأثرها على العقل الإفريقي - الدكتورة جلال السيد الحقناوى - وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ص ١٢٥ - ١٢٧.

(٢) المرجع السابق المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب الحادي عشر بحث تجارة الرقيق عبر الأطلنطي د. ميمونة ميرغني حمزة ص ١٢٣.

وقد ظلت هذه القوانين سارية حتى سنة ١٨٠٧م حين أصدر البرلمان البريطاني مرسوماً يحرم تجارة الرق. ولم يكن هذا تابعاً من الضمير الإنساني، وإنما أقدمت بريطانيا على هذا الإجراء لأسباب تجارية صرفة فلم يكن من المستطاع البدء في أي نشاط تجاري بين أوروبا وإفريقيا قبل القضاء على تجارة الرق لينفسح المجال للتجارة العادية. واتخذت بريطانيا من عملية محاربة الرق وسيلة لتفتيش سفن الدول الأخرى وفرض زعامتها على البحار، وتحت ستار محاربة الرق استطاع الإنجليز التوغل في الأنهار الإفريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين وفرضوا حمايتهم وتدخلوا في الأقطار الإفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين إلغاء الرق والنخاسة.

ونص المرسوم البريطاني الذي صدر في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٧م على: تحريم تجارة الرقيق ومنع السفن البريطانية من نقل الرقيق، ومعاقبة السفن التي لا تتقيد بالمرسوم بالمصادرة أو الغرامة ١٠٠ جنيه إسترليني عن كل رأس رقيق، ومصادرة الرقيق وإلحاقه بممتلكات التاج بتجنيد في الجيش أو الأسطول دون حق في معاش بعد الخدمة.

• حوافز لسفن الأسطول البريطاني لمراقبة وضبط السفن البريطانية التي لا تتقيد بالمرسوم، وذلك بمنح ١٣ جنيه إسترليني على كل رأس من الذكور و ١٠ جنيهات على كل رأس من الإناث و ٣ جنيهات على كل طفل، وأصبح الحافز أحد مصادر تمويل الأسطول.

• إلزام ملاك الرقيق تسجيل كل أرقائهم من ١٦ مارس ١٨٠٧م للرقابة على البيع^(١).

وقد هاجم اللورد البريطاني «دارموت - Darnot» الذين دعوا لوضع حد لتجارة الرق بقوله: «إننا لا نسمح بأي حال من الأحوال بعرقلة هذا النشاط التجاري الذي ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا». وكان صارماً في كلامه فإن ليثربول في إنجلترا بنيت كما بنيت لشبونة في البرتغال على عظام الرقيق الإفريقي ودعائه.

في أغسطس عام ١٨٨٣م أصدر البرلمان البريطاني مرسوم عتق الرق، ونص المرسوم على: عتق الرقيق وتعويض ملاكه، ويكون العتق متدرجاً؛ لأن الرقيق غير

(١) علاقات الرق في المجتمع السوداني - المرجع السابق ص ٤٩.

مؤهلاً للحرية، الرقيق المعتق يبقى بلا أجر لدى مالكة لمدة ١٢ سنة للعاملين في الحقول، و٧ سنوات لخدمة المنازل، يخصم جزء من الأجر لتعويض المالك، الرقيق المعتق يعمل ثلاثة أرباع يوم العمل لدى مالكة بأجر، وربع اليوم بغير أجر وأينما شاء، الأطفال تحت سن السادسة أحرار. يبدأ سريان المرسوم في أغسطس ١٨٣٤ م.

حدث إلغاء تجارة الرق جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الإمبريالي، ولم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة في الحقوق، كانت تريد السيادة والسيطرة فقط، وهذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة العبيد في السياسة الأوروبية، أنهم أي الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلتحتل أرضهم ونبقيهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا. وفي الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة في أن يصطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا، بل صارت مصلحتهم في استبقاء الإفريقيين في إفريقيا واستعبادهم فيها واستخراج ثروات القارة وتصديرها لأوروبا.

لقد ألغوا العبودية عن البشر؛ لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض، ولم تمنع قوانين تحرير الرق ثم إلغائه أوروبا من أن تكف عن الرق والاسترقاق، حتى في القرن العشرين، بل وفي النصف الثاني من القرن العشرين أخذ الاسترقاق شكلاً آخر وهو السخرة الوجه الآخر للرق، فكان أصحاب الأعمال البيض في المستعمرات الإفريقية إذا أرادوا الحصول على أيد عاملة تقدموا بطلبهم إلى الحكومة الاستعمارية وترسل الحكومة الطلبات بعد الموافقة عليها إلى المديرين المحليين ويطلب من الزعماء والرؤساء المحليين تجنيد العدد المطلوب، وكان الرؤساء، أو الزعماء، الذين يفشلون في إحضار العدد المطلوب يجلسون بلا شفقة، وكان على عمال السخرة إطعام أنفسهم وأن يحضروا أدواتهم معهم، وإذا رفض أحد منهم العمل يسجن ويجلد، وتجري عملية الجلد بضرب الضحية على راحة يديه ونظراً لقوة الضربة فإن الإفريقي القوي كان يتحمل أربع أو خمس ضربات ثم ينهار بعدها.

آثار الإلغاء

إن إلغاء تجارة الرق كان ذا دلالة كبيرة بالنسبة للإفريقيين والأوروبيين، قلبت

عادات التجارة التي كانت قائمة على مدى ثلاثة قرون، وقوضت نظم الحكم والعادات الاجتماعية وفتحت الطريق للتغلغل الأوروبي وبدأ عصر الاستعمار المباشر لإفريقيا. ولكن كل ذلك جرى في عملية متطاولة ومتنامية على مدى العديد من السنين. إن المشرعين البريطانيين بضربة واحدة أعلنوا إنهاء التجارة في سنة ١٨٠٧م، ولكن ذلك كان محض بداية، وحتى لو كان البريطانيون لم يعودوا مهتمين بالعبيد فقد كان الآخرون ذوي وضع مختلف، وهؤلاء الآخرون التجار والإفريقيون أنفسهم صاروا يجمعون العبيد كما يشاءون وبالأعداد الكبيرة التي يطلبونها، ومضى سبعون أو ثمانون سنة بعد قانون الإلغاء الذي أصدره البريطانيون وما زال تجار العبيد يتمكنون من العمل بالتخفى في موانئ إفريقيا الغربية ويتحدون مخاطر أن يثعروا في أيدي البحرية البريطانية وهم في طريقهم إلى الأمريكتين. وخلال هذه العقود من السنين من القرن التاسع عشر تدهورت المساواة القديمة من الأوروبيين والإفريقيين ببطء أولاً ثم بسرعة متنامية، حتى صار لأوروبا اليد العليا بشكل حاسم.

إن مائتين من سنوات تجارة العبيد أنتجت مجتمعا متلائما مع هذه التجارة فكان إلغاؤها مما أنتج أزمات اجتماعية في كل هذه الدول. ونشج عن ذلك ظواهر من عدم الأمان ومن الاضطراب ومن الغموض استخلص منه الأوروبيون أن الإفريقيين غير قادرين على حكم أنفسهم في سلام، وأنتج هذا الأمر من سوء الفهم مما كان لعنتائج عنيفة، ورفعت أوروبا أعلام الحضارة تبرر بها حكمها للبلاد.

إن المشكل الحقيقي أن الإفريقيين لم يتركوا ليحكموا أنفسهم، لقد استدرجوا إلى المشاركة في الاستغلال، كما أن الهوة بين أوروبا وإفريقيا زادت اتساعاً، وقد تطورت الرأسمالية التجارية الفرنسية والبريطانية إلى أن صارت رأسمالية صناعية، ثم تطورت إلى مستوى الإمبريالية. وهذا جزء من قصة أخرى، لقد كان ذلك تكراراً لازدواجية قديمة في الدوافع حكمت علاقات البرتغال بالكونغو في عهد الملك أفونسو، وهذه الازدواجية هي المسيحية والريخ. إن الملك ليوبولد ملك البلجيك اقتحم الكونغو تحت شعار إنه يخوض حملة صليبية جديدة بعصر التقدم ليزيل الظلومات عن القارة، ولكن كل أفعال البلجيك الأول كانت الإعلان عن أن الأرض كلها وتنتج الأرض كله لهم وهم مالكوها، وفي هذا الوقت كانت شعوب حوض الكونغو كلها كانت لا تدرك

النتائج المخيفة التي تترتب على ذلك، وظهر بعد ذلك مفهوم إفريقيا المتوحشة الذي يبرر الاستعمار كما يرد من قبل تجارة الرق الذي أطلقت طبعات البرجوازية الأوروبية وسعيهم للسيطرة^(١).

ولكن الأمر بين الإفريقيين في إفريقيا كان مختلفاً، ومع الاندحاش الذي سببته المقاجاة البريطانية لمعارضة تجارة الرقيق فإن الرؤساء الإفريقيين وحكام إفريقيا حاولوا في البداية إثراء شريكهم البريطاني عن هذه الخطوة، وعندما فشلوا واجهوا مشاكل جمّة في بلادهم؛ لأن كل شبكات التجارة التي كانوا يعتمدون عليها كانت تتعلق ببيع الرقيق.

ومع مضي الوقت ومع إدراكهم أن القرار كان نهائياً بدءوا يتجهون إلى أشكال أخرى من التجارة ويمارسون أنواعاً من التجارة المشروعة بنجاح سريع، وساعدهم على ذلك الطلب الجديد على الصابون الذي يصنع من زيت النخيل وزيت التشحيم فكان ثمة احتياج ملح للشحوم المستخرجة من النباتات لسداد النقص الناجم عن عدم كفاية الشحم الحيواني، وهذه المادة وجدت في زيت النخيل الذي كان مزروحاً من مدة طويلة في دلتا النيجر، وبدأ عدد من تجار ليقربول بطلبون زيت النخيل خلال سنوات قليلة من انتهاء تجارة الرقيق. وفي سنة ١٨٣٢م فإن أحد تجار الرقيق القدامى في ليقربول صار يستورد نحو أربعة آلاف طن من زيوت النخيل في العام الواحد، ويعد عامين من ذلك صار إجمالي تصدير زيت النخيل من دلتا النيجر يبلغ ثمنه نصف مليون جنيه إسترليني وكلها كانت زيتاً يتجهها حكام الدلتا وما شابههم.

وفي هذا السياق تبدو قصة الملك «چاچا أبوبو - Jaja Obobo» في نيجيريا تشير الاهتمام، ولا يزال شعب الأيجبو ينظر إليه باعتباره أعظم رجل أنتجته قبيلته في القرن التاسع عشر، وهم في ذلك على حق.

عاش الملك چاچا في هذه الحقبة التاريخية في الدلتا عندما حل الطلب على الزيوت محل الطلب على العبيد بشكل واسع، وعندما بدأ تغلغل الاستعمار الأوروبي يقوى. ولد چاچا في العبودية المحلية، وفي سنة ١٨٦٣م كان چاچا في الثانية والأربعين من

(١) المرجع السابق P. 253-255 The African, Slave Trade.

عمره تاجراً ناجحاً، تولى الحكم بعد أن توفي سلفه «آلى - Alali» عن دين كبير يتجاوز ما بين ١٠ و ١٥ ألف جنيه إسترليني للتجار الأوروبيين وخلال عامين استطاع جاجا أن يؤدي الدين كله.

إن نجاح أناس مثل جاجا بالسرعة والمهارة الذين حولوا أسواق الرقيق إلى أسواق لزبوت النخيل يمكن أن يذكر في مواجهة التفكك الاجتماعي الذي كان مرتبطاً بشكل مباشر مع هذا الأمر. إن طاقات كبيرة تبددت وأناساً موهوبين أجبروا على العمل في إطار الإمكانيات التي كانت تعمل بقوة ضد فرض التوسع البناء، ومع زيادة الضغوط الأوروبية اهتز المجتمع من جذوره وانتشر فيه الشعور القاتل بعدم الأمان^(١).



إن التجارة تغيرت طبيعتها مع ظهور الإمبريالية التي مارست نفوذها بإحكام السيطرة السياسية على البلاد الإفريقية بعد فتحها، ويمكن للمرء أن يرسم خطى ثلاثاً لهذه العملية:

أولاً: ظهر التدخل البحري لمنع تجارة الرقيق الإفريقية ولحماية مصالح التجار الأوروبيين وقد صارت أكثر طموحاً واشتباكاً في الصراعات الإفريقية.

ثانياً: استتبع ذلك إنشاء القنصليات بسلطات واسعة للتدخل السياسي في إفريقيا.

ثالثاً: مع الاحتياج المتنامي للإيرادات المحلية ظهر الإعلان الخاص بالحق في الحكم.

إن بريطانيا عندما منعت تجارة الرقيق وصدرت تشريعاتها في هذا الصدد عام ١٨٠٧ م وحركت أسطولها لمنع هذه التجارة. ولضبط تهريب العبيد إلى أمريكا، كل ذلك كان يرجع لعاملين أولهما: أن الرأسمالية في إنجلترا وفي أوروبا كانت قد تحولت من رأسمالية تجارية إلى رأسمالية صناعية وصارت لا تعتمد على التجارة بقدر ما تعتمد على الصناعة وما يلزمها من قوة عاملة، وتحولت إلى النظام الإمبريالي الذي يهدف إلى احتلال البلاد الإفريقية وحكمها واستخراج ثرواتها لصالحها، وكل هذا يحتاج إلى الأيدي العاملة داخل إفريقيا. فعمل على الاحتفاظ بثروات إفريقيا داخلها والأيدي العاملة لشعبها ليعمل في المزارع الإفريقية وفي المناجم الإفريقية التي تديرها الإمبريالية

(١) المرجع السابق P. 262 The African Slave Trade.

الإنجليزية والأوروبية عامة، وثانيهما: أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد استقلت عن بريطانيا بحرب الاستقلال وأعلنت استقلالها عن الحكم الإنجليزي ومن ثم لم يعد لبريطانيا مصلحة في تصدير العبيد إلى أمريكا؛ لأنها لن تستفيد من عملهم هناك، وليس صدفه أن يأتي القرار البريطاني بمنع تجارة العبيد بعد استقلال الولايات المتحدة بنحو ثلاثين سنة.



ثالثاً: الممارسات الاستعمارية للرق

إن الإدارات الاستعمارية كانت تخشى أن يؤدي التدخل الجفري والسريع مع العبودية إلى نتائج كارثية بالنسبة للاقتصاد الذي يعتمد على العمل العبودي، كما كانت تخشى أيضاً من أن هذا التدخل السريع قد يستفز رد فعل عسكرياً من القيادات التقليدية التي كانت تمثل الطبقات المتحالفة مع الأوروبيين وكان التعامل معها حيوياً جداً لتحقيق المصالح الأوروبية وتخفيض نفقات السياسات المتبعة والاعتماد على الحكم غير المباشر لبلاد إفريقيا. لذلك كان قمع تجار الرقيق كان له الأولوية لدى الرأي العام في البلاد المستعمرة قد اتبع أسلوباً نسبياً ومتقطعاً وصار قمع العبودية أمراً يسيراً بعملية متطاولة المدى. شواهد ذلك:

شمال نيجيريا^(١)

سيطر البريطانيون على الكتلة الأساسية من الأراضي الشاسعة التي عرفت بخلافة سوكوتو، وكان سير فردريك «لوجارد - Lugard» الذي صار لوردًا بعد ذلك هو المندوب السامي البريطاني الأول في الإقليم الذي صار من بعد شمال نيجيريا. وفي سنة ١٩٠٦م أصدر هذا الحاكم قراراً بالتعاون والاتفاق مع سلطة سوكوتو مضمونه أن الإلغاء المبسر، أي قبل الأوان للشكل العام لعقد العمل قبل إيجاد نظام أفضل يحل محله لا يكون فقط خطأ إدارياً ولكنه سيكون أيضاً ظلماً للسلادة ما دام أن العبودية في الداخل هي مؤسسة يقربها قنانون الإسلام. وإن نظام العبيد هو شكل آخر من أشكال الملكية عند السكان وإن إلغاءه لن يكون معناه أقل من المصادرة الجماعية.

إن السياسة التي اتبعت تحت نفوذ هذا المندوب السامي كانت تمثل التناقض على هذا النظام، فقمع تجارة الرقيق مع إنهاء الإغارات كان طريقاً لاقتصاد مؤسسة العبودية مصدراً أساسياً لازدهارها، وشمة طريق آخر وهو إصدار قانون يحرر كل الأطفال الذين ولدوا من آباء عبيد بعد نهاية مارس ١٩٠١م وهو ما جرد مؤسسة العبودية من المورد الطبيعي للإسلام «المرجو» Murgau، وعن طريقه يمكن للمعبد أن يشتروا أنفسهم

(١) المرجع السابق P. 178-180 Islam's Black Slaves

وحرياتهم بما يكسبونه من عملهم . وقد اكتسب عشرات من الآلاف حرياتهم بهذه الطريقة وهي طريقة لا تمثل انتهاكاً لمبادئ الإسلام ولا يستعربها السادة الملاك الذين عوضوا فعلاً عن فقدهم لملكيتهم للعبيد . وأكثر من ذلك وفي السنوات الأولى من الغزو البريطاني فإن كثيراً من العبيد يبلغ عددهم نحو مائة ألف وأكثر قد فروا من ساداتهم ، وكانوا أحياناً يفرون بجماعات كبيرة .

أدى ذلك لدى سادة كثيرين إلى تبني هذا الوضع الجديد بدلاً من مقاومته . فإن تحرير العبيد مقابل ثمن معين كان مفضلاً عن أن يحرروا أنفسهم بالفرار بدون مقابل ، وكان الأكثر تفضيلاً هو رغبة العبيد أن يقبلوا هذه الأوضاع الجديدة . إن متطلبات العمل قد قلت من خمسة أيام أو ستة في الأسبوع إلى ثلاثة أو أربعة ، وإن حوافز تكثيف العمل اتخذت شكل المنح والعطايا من مأكّل أو ملابس أو أدخنة أو ملح في المناسبات والأعياد في مزارع الحكام الأرستقراطيين وكبار التجار . وأن عددًا من المحظيات عدن إلى ديارهن الأولى . وفي هذه الأحوال فإن الموظفين الاستعماريين وجدوا أنهم من الضروري أن يتدخلوا ، وفي حين أنه لا يوجد ما يميز بين المحظية والزوجة فقد قالوا إن هؤلاء النسوة ليس لهن الحق في هجران أزواجهن .

إن أحد العناصر الأخرى لمقاومة مؤسسة العبودية كان من خلال السياسات الضريبية التي أدخلها الحكم البريطاني هناك ، كان أساسه هو زيادة إيرادات الحكومة بشكل مباشر ، ودعم النمو الاقتصادي للمصادر الضريبية المتزايدة ، وكان نظاماً مركباً ومن خلال عدة أنواع من الضريبة . . كانت هناك ضريبة نسبية على المحصولات وضريبة على حيازة الأرض وعلى المنازل ، وهناك ضريبة أخرى على العبيد . ومع إعادة تشكيل الاقتصاد فإن العبودية في شمال نيجيريا بقيت متزايدة في شكل خادومات المنازل ونظام المحظيات .

إن المستعمرين البريطانيين استولوا على كثير من الأراضي وأغروا العبيد بأن يعملوا فيها بالأجر ليدفعوا من هذا الأجر ثمن تحررهم من ملاكهم ، وفرضوا الضرائب على العبيد يدفعها ملاكهم فصار بذلك محفزاً للملاك أن يتخلصوا من العبيد أو أن يقبلوا أن يشتر العبيد أنفسهم بالعمل في مزارع البريطانيين ، وما لبث أن انتقلت العمالة بذلك من مزارع الملاك الأرستقراطيين المسلمين إلى مزارع البريطانيين .

في عام ١٨٨٤م ألغت الجمعية الوطنية في فرنسا العبودية في كل مستعمراتها، ولكن الفتوحات الواسعة في إفريقيا أدت إلى أن يكون تطبيق هذا القرار ضعيفاً للغاية، ففي السودان الفرنسي في غرب إفريقيا أقر الجيش هناك نظام العبودية، وذلك بتجنيد العبيد على طول نهر النيجر الأوسط وتحويله مدفوعات عسكرية تدفع مقابلهم لسيادتهم، كما أن الإدارة الاستعمارية وطنت العبيد الهاربين مع من لا يبيت لهم من النسوة والأطفال فيما يسمى القرى المحررة (قرى الحرية) وهؤلاء الناس عوملوا في الأساس باعتبارهم مصدراً للعمل القهري للتجنيد العسكري، وهو نقل البضائع عبر الطرق للإمدادات العسكرية والعمل في إنشاء السكة الحديد إلى باماكو، ولم يكن مما يشير الدهشة أن القلاحين صاروا يسمون «عبيد البيض».

إن الغزو الفرنسي للأقاليم الواسعة كان مصحوباً في الواقع بزيادة ملحوظة في العبودية، وكان مرتبطاً بالتجارة. وإن الاقتصاديات المعتمدة على العبيد وخاصة في «ماراكا - Maraka» وهي منطقة في وسط النيجر استجابت لتطور الأسواق الاستعمارية في باماكو لا بشراء المزيد من العبيد فقط ولكن بزيادة القيمة الفائضة التي يستخرجونها ممن يمتلكون من العبيد بزيادة عدد ساعات العمل في اليوم وتقليل ما يصرف لهم من طعام وبغض النظر عن عادات العمل التي تحفظ للعامل صحته وقوته.

وتحت ضغط الرأي العام الفرنسي الذي ظهر بسبب ما نرامى إليه من وضع العبيد في المستعمرات الفرنسية في إفريقيا عينت وزارة المستعمرات حاكماً مدنياً للسودان الفرنسي. وفي سنة ١٨٩٤م أصدرت الإدارة الجديدة قرارات ضد قوافل العبيد وأسواق العبيد مع فرض غرامة عن كل عبد يؤتى به إلى الأراضي الفرنسية وأعلنت هذه القرارات في الأسواق المركزية.

وفي الوقت ذاته ومع تقدم الغزوات الفرنسية في غرب إفريقيا وفي إفريقيا الاستوائية فقد انخفض الوارد من العبيد الجدد الذين تتمخض عنهم الحروب الأهلية. وقد نقصت العمالة ولجأ العبيد إلى الإضرابات لمقاومتهم لأوضاعهم، مما زاد من الطلب على العمل. ومن هذه الأحداث فإن الحاكم العام الفرنسي لغرب إفريقيا شرع

(١) المرجع السابق P. 181-183 Islam's Black Slaves.

في إصدار نظام قانوني في سنة ١٩٠٣م يعلن أن العبودية في هذه المستعمرات لم تعد بعد وضعا مشروعا وأنه ليس من حق السادة ملاك العبيد في هذه المستعمرات ولا من حق المحاكم الأهلية أو العسكرية هناك أن تعيد العبيد الهاربين إلى ملاكهم.

وكانت أعدادا كبيرة من العبيد قد بدأت تنكر سلطة أسيادهم وتبتعد عن مواطنهم ليسكنوا في أماكن بعيدة. وفي مايو سنة ١٩٠٥م حدثت مواجهات مسلحة بين العبيد المصممين على ترك سادتهم وبين السادة المصممين على بقائهم، وقد أرسلت كتيبة عسكرية للمساعدة في المصالحة والوصول إلى تنازلات متبادلة، ولكن جهود المصالحة فشلت وأصدر الحاكم العام في ديسمبر سنة ١٩٠٥م قرارا بإنهاء تجارة العبيد. وفي إبريل سنة ١٩٠٦م حدث نزوح واسع للعبيد من «بانمبا - Banamba»، وتأثير ما حدث في بانمبا فإن حركات الهجرة والخروج زادت في أماكن عديدة عبر المستعمرات. وفيما بين سنة ١٩٠٥ - ١٩١٣م زاد السكان في «بوجوني - Bougauni» من ٩٥,٥ ألف إلى ١٦٢,٢ ألف، كما زاد في «واهيجووا - Ouahiguwa» من ٩٥,٥ ألف إلى ٣١٠ آلاف، وفي «سيكاسو - Siccasso» من ١٦٤,٤ إلى ٢٢٣,٧ ألف وفي «كوري - Koura» من ٢٢٤,٢ إلى ٣٢٠ ألفا. والخلاصة أن العبيد حرروا أنفسهم في حين كانت السلطات الاستعمارية تتذبذب بين إلغاء العبودية وبين توجس الخطر من نتائج ذلك. وعلى كل حال لم يعد كل العبيد إلى المناطق الأصلية لهم، ومن عادوا لم يرحب بهم في قراهم التي تعاون رؤساؤها مع الغزاة، والتي كانت عائلاتهم قد هجرتها. وأن البعض ممن كانوا ولدوا في العبودية بقوا بعد تحررهم مع سادتهم في مزارعهم وبعد أن تفاوضوا معهم حول شروط جديدة للخدمة وظروف أحسن للعمل وطعام أكثر.

ومن حيث النتائج الاجتماعية فإن انتهاء العبودية كان له نتائج متعددة، فإن ملاك ماراكا الذين فقدوا عبيدهم قد حافظوا على إنتاجهم الزراعي إما بأن قاموا بالعمل بأنفسهم في أرضهم مع تائبهم وأطفالهم أو باستخدام العمل المأجور، وأن بعض المناطق وخاصة عند حواف الصحاري فقدت سكانها، وأن آخرين وخاصة في وادي النيجر الأوسط صاروا أكثر رخاءا لارتباطهم بالأسواق السلعية الاستعمارية. وقد استطاع عبيد سابقون أن يكسبوا وأن يدخروا مالا كافيا ليشتروا مزارع خاصة بهم أو أن يتحولوا إلى أعمال أخرى مثل النقل والتجارة وصناعة الملابس. وعندما لم يعد هناك

عبيد فقد اختفى الاستثمار في هذا المجال وانتقل رأس المال إلى قطاعات أخرى مثل التجارة في السلع وتربية المواشي.

موريتانيا^(١)

اتبعت السياسة الفرنسية في موريتانيا طريقاً مميزاً من البداية واستمرت في ذات الاتجاه لمدة طويلة بعد غزو الداخل بين عامي ١٩٠٥ - ١٩١٠ م، قالت الإدارة الاستعمارية إن طبيعة العبودية ونظامها هو من السمات الخاصة بموريتانيا واللصيقة بها وإن تحرير العبيد سيكون تدخلاً ثورياً مما يتجسّد خطأ سياسياً وعدم استقرار اجتماعي.

وإن القبائل المألّكة للعبيد المعروفة باسم «المور - Moors» تشمل البدو والرعاة والمزارعين المستوطنين والتجار ورجال الحرب والمدنيين، وهم يلتزمون ويرتبطون تماماً بعباداتهم وقيمهم وعقائدهم وأملّكهم، وكان «الأدرار - Adrar» في المنطقة الداخلية التي خاضت مقاومة عنيفة وممتدة لمدة طويلة جعلته من الواضح في مفاوضاتها للتسليم أن تستبقى ملكيتها للعبيد، وكانت موافقة فرنسا على ذلك كعذر لإستراتيجية براجماتية، وأن قبائل الأدرار كانت لهم علاقات تجارية وعقائدية وعرفية وثيقة مع قبائل الشمال في مراكش والصحراء الإسبانية ولم تكن الحدود الجغرافية واضحة. وكانت فرنسا تخشى أن يتكون حلف من الأدرار والشمال ضدها.

إن الهيكل الاجتماعي لموريتانيا أكثر تركيبياً وتعقيداً من أن يكون مجرد تقسيم بين سادة وعبيد. هناك يوجد مكون مهم بشكل خاص وهو «الهراطين - Haratin» أو العبيد المحررين الذين لهم الحق شرعاً في أن يمتلكوا ولديهم القدرة على أن يكون لهم أطفال ولهم الحق أن يتزوجوا بإرادتهم، ومع ذلك فهم ليسوا أكفأ متساوين من الناحية الاجتماعية مع سادتهم السابقين.

إن الفرد من الهراطين ملين للمالكة السابق دينا مستعراً في شكل جزية تتمثل في أداء نقدي سنوي أو في تقديم مقابل عيني، وهذا الالتزام يتقل من جيل إلى الجيل التالي له.

(١) المرجع السابق، P. 183-186 Islam's Black Slaves.

في سلسلة لا تنتهي، ومن ثم فإن هناك مكافأة دنيوية وثواباً أخروياً للملاك الذين يفكرون رقاب عبيدهم.

وبالنسبة للجارية الأثني فإنها تأمل في الهروب من وضعها بالزواج من أحد أفراد الشعب من الطبقات الفقيرة وخاصة من السود مثل الجنود في الجيش الفرنسي الذين يجند أغلبهم من خارج موريتانيا ولكنهم يقطنون في معسكرات في مدن موريتانيا. إن الإدارة الفرنسية حتى لا تغضب ملاك الجوارى أصدرت تعليمات لا تشجع على زواج الجوارى بالجنود السود الفرنسيين فلا تتزوج جاريته إلا بعد أن تتحرر، وأن يدفع مهر عنها ولا يسمح لها بأن تتبع زوجها خارج البلاد، وإذا ترك هو البلاد فإن المهر الذي دفعه والأطفال الذين أنجبتهم يجب أن يقرا مع الزوجة.

وفي التطبيق فإن عدم رغبة السادة في تحرير الجوارى يعتبر تجاهلاً لما تحدث عنه القرآن الكريم من تحرير من . وكثيراً ما يحدث أن السيد يقبل المهر ويصرح بزواج جاريته ثم يرفض تحريرها، وعندما صار الحق في الأطفال محل النزاع فإن العادات المرعية والمحاكم الإسلامية السائدة تبقى الأطفال مع آبائهم، وتجد الجارية التي نشدت الحرية من خلال الزواج - تجد نفسها فقدت حريتها وحرية أطفالها.

إن توسع سوق العمل المهاجر وسوق السلع قد أمد الهراطين بفرص اقتصادية جديدة ومنها تراكم مالى يسمح لهم بامتلاك العبيد ونتج عن ذلك أن العبيد للمحررين بدلاً من أن يدافعوا عن العبيد غير المحررين، بدلاً من ذلك انضموا إلى السادة ملاك العبيد التقليديين من النبلاء وارتبطوا بهم أكثر مما ارتبطوا بإخوانهم القدامى غير المحررين.

وبعد أن ضمنت السياسة الفرنسية أن تكيف الأوضاع العبودية كضمن للسلام السياسى طبقت مبدأها بعد ذلك في تقرير عدم شرعية تجارة العبيد مع تعريف مرن لما يمكن أن تستحدثه التجارة. إن بعض العبيد المذكور فروا من سادتهم ينشدون العمل المهاجر ويستمتعون بالحرية عبر الحدود في الجنوب وقد وجلوا أنه حتى عندما يوجد العمل المهاجر فإن ظروف العمل تكون قاسية وليس للعامل المهاجر من الحرية إلا لاسمها. وبالنسبة للجوارى فمنهن من رحل، وبعض قادة المراكشيين Moors احتج لدى الإدارة الفرنسية لأن أعداداً كبيرة منهم ذهبت إلى آتار Atar عاصمة أحرار وطلبوا

اتخاذ إجراءات ضدهن. وقد وعدت الإدارة الفرنسية باتخاذ إجراءات ما ولكن لم يكن لها تأثير واقعي بدليل أن الاحتجاجات استمرت عشرين سنة ذالية.

إن انتعاش العبودية لا يرجع فقط إلى تشديد الرقابة التي يمارسها السادة على عبيدهم؛ فإن قوة التقاليد والإحساس بالواجب كان يعتبر عنصراً في امتياع العبودية وانتعاشها، وإن الموظفين الاستعماريين والمحاكم القائمة كانت ترجع حقوق السادة على العبيد، وفضلاً عن ذلك فإن العبيد لم يكونوا يرغبون في أن يفقدوا ضمان المعيشة التي يقدمها لهم السادة وذلك من أجل حرية قد تفودهم إلى ظروف قاسية جداً، وإن فترات من الركود الاقتصادي جعلت الهرب إلى الحرية أسهل كما جعلته أيضاً أصعب.

وبين أعوام ١٩٣٠ - ١٩٣٣ م حل جفاف شديد في أدرار، وترك العديد من بدو المور Moors المنطقة بحثاً عن المرعى وتركوا عبيدهم وراءهم ولجأ العبيد إلى المدن وابتلعتهم جماهير السكان العاطلين في المدن. وبالنسبة للجواري - وكن غير قادرات على أن يجدن عملاً منزلياً - لم يجدن وسيلة للحياة إلا الأعمال الهابطة. ومنهن الدعارة، وفي الجنوب حيث إقليم «ترارزا» - Tarza الذي يعتمد في رخائه على الأسواق العابرة للحدود عند السنغال أصيبت كذلك بركود اقتصادي شديد. وفي هذه الأثناء وجدت تجارة الرقيق؛ لأن بعضاً من الملاك باعوا عبيدهم إلى تجار الأدرار، وهؤلاء التجار إما استبقوا ما اشتروه أو باعوه إلى تجار آخرين.

ولما جاءت الحرب العالمية الثانية (من ١٩٣٩ - ١٩٤٥ م) ضربت بعنف الأسواق في كل من الشمال والجنوب بشكل حاد ووسط هذا البؤس فإن الهيرانيين والعبيد الذين لا يستطيع سوق العمالة البدوية أن يستوعبهم فقد تحولوا إلى لصوص ومشردين، ومرة أخرى كما حدث في أزمة ١٩٣٠ - ١٩٣٣ م انتعشت تجارة الرقيق وخاصة ١٩٤٦ - ١٩٤٧ م ولجأت الناس إلى الدعارة.

إن الأوقات الصعبة تشكل فرصاً يمكن للبعض أن يستغلها فإن قليلاً من الهيرانيين اشترى ماشية ونخيلاً وملوكيات أخرى من ملاك الأراضي الذين اضطروا إلى بيع ما يملكونه تحت وطأة الدين أو لإطعام أسرهم وبعضهم استثمر جزءاً من أمواله في شراء العبيد. إن شخصية مثل حمودي في آتار Atar قد أرمى أسس ثروته كتاجر للحيوان

وللجلود واستطاع أن يسيطر على أغلب الملكيات عند انتهاء الحرب، وقد اشترى عبيداً للعمل في أرضه واشترى محظيات من الجوارى وتزوج بإحداهن وعندما توفي سنة ١٩٦١م كان لديه ١٣ طفلاً ومائتان من العبيد.

الصومال^(١)

في سنة ١٨٩٢م تخلى سلطان زنجبار عن ساحل «بنادير - Benadir» في جنوب الصومال لسيطرة المصالح التجارية الإيطالية، وكانت السلطة سنة ١٨٧٣م قد أصدرت قرارات متتابة ضد تجارة العبيد وضد العبودية في ذاتها على طول ساحل الصومال. ومع ذلك فإن أثر هذه القرارات كان ضئيلاً حتى أنه سنة ١٩٠٣م فإن شركة بنادير الإيطالية تعاونت بشكل صريح مع تجار العبيد المحليين، وإن إحصاء جرى وأظهر أن نحو ثلث سكان مقديشيو البالغين ٦٧٠٠ ساكن ثلثهم كان من العبيد، وثمة عدة آلاف في مدن أخرى كانوا يعملون في صناعات النسيج وزيت السمسم وأغلبهم كانوا مملوكين لتجار عرب وصوماليين. وفي سنة ١٩٠٦م عندما صار للحكومة الإيطالية سيطرة مباشرة؛ فإن حاكمها الأول قدر إجمالي سكان العبيد في المستعمرة ما بين ٢٥ ألفاً و ٣٠ ألفاً، وقد خضعت الحكومة لضغوط الرأي العام الإيطالي الذي كان ساخطاً على ارتباطات شركة بنادير بتجارة العبيد فأصدرت الحكومة سلسلة من القرارات فيما بين سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٤م تحرم فيها تجارة الرقيق وتقرر التحرير المباشر لكل العبيد الذين ولدوا قبل ١٨٩٠م. وفي المدن حيث قدمت الإدارة الإيطالية أرصدة تعوض بها السادة لتساعد على تقبلهم لقراراتها؛ فإن العبيد المحررين تحولوا إلى خدم منازل لدى ملاكهم السابقين واعتبروا عمالة منخفضة الأجر يعملون كناسين وبوابين أو أصبحوا مشردين ومجرمين. وبعيداً عن الساحل في المناطق الزراعية على طول الأنهار فإن أتباع هذه السياسة الرسمية واجه معوقات ومشاكل.

إن السلطات الاستعمارية في مواجهتها للمشاكل التي نتجت عن إلغاء العبودية في المدن لم تكن عازمة على التوسع في هذه السياسة في مناطق أخرى. ولكن العبيد في الداخل كان لديهم تفكيرهم الخاص. وإن ما عرف عما حدث في الساحل زادت به

(١) المرجع السابق P. 187-189 Islam's Black Slaves.

تسمية الهاربين من العبودية بدءاً من عبيد المزارع وعلى مدى نهر شابلي Shabelle، ولكنها انتشرت سريعاً بعد ذلك. وقد أجاب السادة الملاك على ذلك بممارسة رقابة شديدة وتوقيع عقوبات قاسية على من يقيض عليه وهو يحاول الفرار. ولكن الحاصل أن زادت الرغبة في الفرار بدلاً من أن تقل وخاصة في مناطق التركيز الواسع للعبيد المستوردين ولئن يحيون في ظروف أسوأ.

وإن السلطات الإيطالية زاد إحساسها بالخطر وبدأت توسع من سيطرتها على المناطق الداخلية، تحاول الوصول إلى حلول وسط مع العشائر الصومالية مالكة العبيد وكانت آثار حذرهما تهريب البنادق وحركات التمرد التي أتت عبر الحدود مع الصومال البريطاني، حيث كانت حركة الدراويش للمقاومة المسلحة تواجه الحكم الاستعماري. وطبقاً لذلك فإن الإيطاليين اتخذوا موقفاً متصالحاً مع ملاك العبيد في الداخل، وإن المحاكم القضائية استحدثت العبيد للوصول إلى اتفاق مع سادتهم ثمناً لحريتهم. وهذه السياسة، أقيمت العديد بالبقاء مع سادتهم باعتبارهم عمالاً أكثر من اعتبارهم عبيداً. وهناك أيضاً من اكتسب حريته بطرق مختلفة وبعضهم استوطن إحدى القرى التي يسكنها المزارعون وعملوا بالأجر في أراضي العشائر الكبيرة الصومالية وبعضهم من العبيد المحررين اشتغلوا في المزارع المملوكة لهم في وادي شيبلي.

ومثل هؤلاء العمال المزارعين كانوا في خط المواجهة في السخرة للعمل في مشروعات الحكومة، ومن المفهوم أن كثيراً من العبيد المحررين ذهبوا ليستوطنوا في القرى البعيدة التي أنشئت وشقت في القرن التاسع عشر، وكان ذلك في الأساس في مناطق الأحراش والغابات في جوشا Goshu على نهر جوبا الأدنى، حيث كان هناك نحو ٦٠ قرية بإجمال إلى سكانها يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ ألفاً، وكانت هناك قرى أخرى قرب أفلاي Avai وكل منهم استبدل بإنتاجه الزراعي إنتاجاً رعوياً وحرفياً بالقرب من العشائر الكبيرة الصومالية.

وأخيراً هناك المستوطنات الدينية المرتبطة بواحدة أو بأخرى من الطرق الإسلامية الأساسية، وأقدم هذه المستوطنات أنشئت في القرن التاسع عشر بواسطة طريقة الشيوخ (طريقة صوفية) وامتت عدداً وحجماً وخاصة في أوائل القرن العشرين، وكما يقول

أحد المؤلفين فإنهم جذبوا الأفراد بغير عشائريهم، وبعض المجموعات انفصلت عن عشائريها، كما جذبوا عبيداً بغير سادتهم وأجراء بغير أرباب عملهم، والمهاجرين من الجفاف أو الحروب أو الكوارث، وإن الحكومة الاستعمارية عاملتهم وفقاً لاعتبارات خاصة، وذلك لتفصل بينهم وبين العشائر المالكة للعبيد والتي تكون معادية للإيطاليين، وتفصل بينهم أيضاً وبين حركة الدراويش الآتية من وراء الحدود. وقد أعطت معاشات لشايفها ووقفت إلى جانبهم ضد خصومهم حول الحقوق في امتلاك الأراضي وحول إيواء اللاجئين منهم وحول إعفائهم من الأعمال الجبرية.

إن المستوطنات الدينية احتوت من المزارعين ما بين ١٥ إلى ٣٠ ألف مزارع، في حين أن نحو ٢٠ ألفاً آخرين عاشوا في قرى أنشئت على طول نهر جوبا بواسطة العبيد الفارين. إن هؤلاء يقدرون تقريباً بنحو ثلث إجمالي السكان الزراعيين والآخرين يشكلون عمالاً زراعيين أو عمالاً موسمين، ونتج عن ذلك أن المستعمرين الإيطاليين والشركات ذات الامتيازات وجدت صعوبات متزايدة في جذب العمالة المناسبة لمشروعاتهم الزراعية. ثم في سنة ١٩٢٢م عندما سيطر الفاشيون على السلطة، في إيطاليا طرحوا حلهم الخاص بمشاكل العمالة.

إن النظام الجديد في إيطاليا أدخل ضريبة الأكواخ السنوية وقد صممت هذه الضريبة لتنقل العديد من الصوماليين إلى العمل المأجور باعتباره الوسيلة الوحيدة لأدائها. وقد اتسع نطاق العمل بهذه الطريقة وزادت السيطرة الاقتصادية ليس فقط في عموم المستعمرة ولكن أيضاً في المناطق القريبة مثل أثيوبيا. وإن الشركات الإيطالية الممنوحة امتيازات للزراعة زادت من أربع شركات سنة ١٩٠٢م إلى ١١٩ شركة سنة ١٩٠٣م. وبعد عدة عقود فإن كبار السن من الصوماليين يتذكرون أشكالاً مختلفة من التجديد والعمل القسري منها نوع يسمى عقود العمل الزراعي لأربع سنوات قابلة للتجديد وأخرى تتعلق بالأعمال الخاصة بالمشروعات الحكومية والأعمال العامة كشق القنوات وغير ذلك، وحتى التكايا الدينية التي كانت معفاة من العمل الإلجباري فقدت هذه المزية وهو تغيير في السياسة نتج عن قيام انتفاضتين قادهما رجال الدين الصوماليون في عامي ١٩٢٤-١٩٢٥م.

أنهت هزيمة القوات الإيطالية عبر منطقة القرن الإفريقي في عام ١٩٤١ م خلال الحرب العالمية الثانية - أنهت الحكم الفاشي على الصومال ، وحل محله وصاية الأمم المتحدة حتى ظهر الصومال المستقل سنة ١٩٦٠ م . وبقيت أوضاع العمالة في مرحلة ما بعد الاستعمار كما هي أوضاعاً اجتماعية متخلفة .

زنجبار وساحل كينيا^(١)

على طول ساحل كينيا وفي جزيرتي زنجبار و Pemba كانت سلطنة زنجبار ذات اقتصاد زراعي يعتمد على العمل العبودي ، وفي سنة ١٨٩٠ م عندما أعلنت الحكومة البريطانية حمايتها على السلطنة كان عليها أن تتعامل مباشرة مع النحدي الخاص بالعبودية ، إنها طبعا لم تتعامل بعدم اهتمام ، وهي في عام ١٨٩٧ م أعطت العبيد في الجزر الحق في أن يطلبوا حريتهم واستثنت من ذلك المحظيات اللاتي بقين جواري حتى ١٩٠٩ م .

كان الهدف الأول للسياسة البريطانية في الجزر هو استبقاء القدرة الإنتاجية وهي في الأساس كانت تصدير القرنفل الذي كان يعتمد على قوة العمل المناسبة . وقد كان لإلغاء العبودية تأثيره السلبي . فإن العبيد المحررين خضعوا للضرائب وللعمل القسري وقد كانوا يحتاجون لحيازة وسائل العيش وكان عليهم أن يؤدوا للملاك أجرة الأرض التي يعملون فيها نقداً أو بالإنتاج أو بالعمل .

إن بعض العبيد ذهبوا إلى المحكمة يطالبون بحريتهم ثم عدلوا عن دعواهم عندما عرفوا أنهم سيتركون منازلهم أو الأراضي التي يزرعونها إذا لم يدفعوا الأجرة . وعلى أي حال فإن أعداداً أخرى طالبت بالتححرر وحصلت على الحرية في حين أن آخرين حرروا أنفسهم بغير حاجة إلى المحاكم أو بالحصول على شهادة رسمية ، وقد اشتغلوا في المزارع أو في العمل الموسمي في الموانئ أو في خدمة المنازل أو هاجروا إلى كينيا أو توظفوا في مد خطوط السكك الحديدية .

وقد أدى العجز في العمالة إلى أن يتجزأ المزارعون أوضاعاً جديدة فإن أيام العمل الخمسة في الأسبوع صارت ثلاثة أيام عمل في الأسبوع ، وهؤلاء العمال الذين يشو

(١) المرجع السابق P. 190-191 Islam's Black Slaves.

عييداً منحوا أجوراً عن عملهم خلال أيام العطلات الأسبوعية عن أيام العمل الحرة، والعبيد السابقون كانوا يؤجرون بالقطعة وكانوا يمارسون ضغوطهم بالمساومة على الأجور في الفترات الحرجة لتضج المحصول. وكان الموظفون الاستعماريون يلوّمون الزراع على الأنظمة غير المناسبة التي يتبعونها وأدخلوا نظاماً تعاقدياً مناسباً يتضمن جزاءات وعقوبات ولكن جدواه كانت قليلة.

كانت المزارع تحتاج إلى عمال قادرين؛ لأن التقاط القرنفل يتطلب مهارة ورشاقة ولا تعرضت الأشجار للدمار، ولذلك فإن العمال المأجورين كانت تكلفتهم كبيرة، فبدأ المزارعون يغيرون من نظام تعاملاتهم الإنتاجية مما يكون مناسباً، وأصبح مقبولا لدى العمال الذين استقروا في الأرض ليزرعوا محاصيلهم الخاصة بغير أجره أن يقبلوا نوعاً من العمل المأجور.

ذكر المعتمد البريطاني سنة ١٩١٧م أنه كانت هناك أسباب من الإحباط الاستعماري، فإن العبيد المحررين بدأ أنهم غير راغبين في تبني قيم النظام الاجتماعي الذي يجرم التشرد والسكر والرقص، كما ذكر أن أرقام الجرائم كانت نسبة واحد من كل عشرين (١: ٢٠) في مدينة زنجبار سنة ١٩٠٦م. وكان الجلد يمارس، وفي سنة ١٩١٤م قيل إنه جلد نحو ٣٦٥ شخصاً لأسباب مثل السرقة أو السكر أو الشغب أو رفض العمل وكثير منهم كانوا من العبيد.

وقد أسفر الحكم البريطاني لجزيرتي زنجبار وبمبا عن فشل اقتصادي. ويعتمد اقتصاد هاتين الجزيرتين على تصدير القرنفل التي كانت تبلغ نسبه في الصادرات في التسعينيات من القرن التاسع عشر نحو ٦٥٪ وزادت إلى ٧٠٪ في العشرينيات من القرن العشرين، وكان الاعتماد على محصول واحد ينطوي على مخاطر جمة إذا حدث وانخفضت الأسعار العالمية لهذا المحصول.

وفي بمبا^(١): وهي جزيرة زراعتها من القرنفل كبيرة، يشكل العرب نحو ١٢٪ من سكانها ولكنهم يملكون ٤٦٪ من كل شجر القرنفل، وفي زنجبار شكل العرب ٥٠٪ من سكانها في حين يملكون ٦٨٪ من كل أشجار القرنفل بالجزيرة. وقد عمل البريطانيون على إبقاء السيادة لطبقة الزراع العرب كوسيلة لاستبقاء الاستقرار الاجتماعي. وكانت

(١) المرجع السابق ١٩٦- ١٩٢ Islam's Black Slaves, P.

مدارس الدولة الابتدائية تخدم العرب وقلة من الإفريقيين وأقل القليل بالنسبة للطبقات الدنيا، والعرب هم من يختار منهم فى وظائف الإدارة.

كانت السياسة البريطانية على طول الساحل الضيق لكينيا مختلفة عما اتبع فى جزائر زنجبار، إذ كان لساحل كينيا وضع خاص وبقي محمية رغم أن باقى كينيا صار من مستعمرات التاج البريطانى. وظل الحكم البريطانى فى الشريط الساحلى يتجه أكثر فأكثر لتشجيع المستوطنين الأوروبيين واستيفاء حاجاتهم للعمل أكثر مما يحمى مصالح الملاك الزراع العرب والسواحيليين فى هذا الساحل. وعندما ألغيت العبودية هناك سنة ١٩٠٧م فإن المحاكم أصدرت تعليماتها لإعلام العبيد بأن يتركوا ملاكهم. وكثير من العبيد تركوا ملاكهم أو بقوا معهم مع الاتفاق على شروط أفضل للعمل. وبعض العبيد السابقين انجذبوا لمدينة ممبسة التى كانت تنمو سريعاً وعملوا هناك فى الموانى وفى الشرطة وكخدم منازل لدى الموظفين والتجار والمستوطنين الأوروبيين. وآخرون عملوا بالأجر أو بالأعمال التجارية البسيطة، والبعض الآخر عملوا فى جمع جوز الهند أو فى الصيد أو اشتغلوا فى بعض الحرف والخدمات، وكثير منهم اشتغلوا فى جمع المحاصيل الحائزى الأرض من العرب أو من الملاك السواحيليين، وذلك بأجر نقدى أو بغيره.

ومع النهاية الرسمية للعبودية فإن الحائزين للأرض من جماعات «الجرياما - Giruma» من شعب «الميجيكتندا - Mijiken» حولوا الأراضى على ضفتى نهر سباكى إلى منطقة ذات إنتاجية عالية جداً. وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م بدأت السلطات الاستعمارية تطرد هؤلاء المستوطنين إلى مناطق أخرى وجاءت فرق عسكرية لتجبرهم على ترك هذه المنطقة وحرقت أكواخهم وأستولت على ديارهم وعلى العبيد السابقين لهم، لقد ارتحل ١٥ ألف شخص من منطقة خصبة إلى أراضى فى الداخل، مما أنتج المجاعات وصارت الحكومة تجدد نفسها مضطرة لأن تعد هذه المنطقة بالفلال بعد أن كانت تصدر منها. ولم تكن الإدارة الاستعمارية سعيدة بذلك ووصف المحاكم البريطانى هذا الأمر بأنه خطأ كبير جداً. وفى سنة ١٩١٧م عاد الجرياما لحيازة الأرض من منطقة «الكليفى - Kalifi» إلى «مالندر - Malindr» على طول الساحل حيث رحب بهم الملاك العرب والسواحيليون، وكذلك عادوا إلى شمال نهر سباكى Sabaki.

وخلال الحرب العالمية الأولى فإن الطلب العسكرى على الحمالين أدى إلى تجنيد مكثف للشباب السواحيلى والميجيكندا، ولم يكن غريباً أن يشير هذا الأمر ذكريات أليمة، وكان مرور الموظفين والرؤساء على القرى بحثاً عن رجال أقوياء البنية، كان يشبه الإغارات من أجل اصطياد العبيد. وفى المناطق النائية خلف السواحل فإن قرى كاملة كانت تترج إلى الأدغال وتنفذ محاصيلها، وحتى النساء كن يعتقلن ولا يفرج عنهن إلا بعد ظهور رجالهن.

ومع انتهاء الحرب حدث نوع من الرواج فى الزراعة السواحيلية وتطورت حركة التجارة فى ممبسة، وأنت إلى هذه المناطق أعداد متزايدة. بحثاً عن العمل الذى صارت أجوره طيبة. ثم حدثت الفتنة فى سنة ١٩٢٣م بين العمال النازحين من الداخل من هؤلاء وبين عمال الساحل الذين كان الكثير منهم عبيداً سابقين، وكانت الفتتان تتنافسان على الأعمال والوظائف. وخلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها فإن السلع الاستعمارية زاد عليها الطلب ولكن أرباحها كانت تزول إلى الملاك المنتجين، وكانت زيادة الأجور تقل كثيراً عن تصاعد التضخم فى ممبسة وما جاورها، ونتج عن ذلك العديد من الإضرابات والاضطرابات الذى تصاعد معه الشعور بالعداء للحكم الاستعماري.

لقد كان المزارعون المقيمون على الساحل الذين قبلتهم السلطات الاستعمارية كانوا قد صاروا حقيقة واقعة، وأن الضرائب الاستعمارية وسياسات الأرض جعلوا من الصعب على المزارعين المقيمين هناك أن ينمو إنتاجاً متزايداً للتصدير، ولم يكونوا قادرين على أن يركسوا رأس المال اللازم لتوسيع عملياتهم أو لشراء الأراضى التى يعملون فيها، والعديد منهم كانوا يعيشون بالافتراض بفوائد باهظة.

وفى الخمسينيات من القرن العشرين ظهرت المقاومة المسلحة للحكم الاستعماري فى كينيا، وكانت تصاعد مع محاولات قمع السلطات لها وهذا ما سمي بحركة ماوماو وأعلن استقلال كينيا عام ١٩٦٣م.

وقد أثبت النظام الجديد أنه لم يستطع أن يحل مشكلة الخيانات للعبيد المحررين الذين كانوا يحوزون الأرض، وأن سياستهم فى إحلال الحائزين فى أراضى الحكومة كانت نوعاً من أنواع استبدال إقطاعى بآخر.

رابعاً عدد العبيد المقتنصين

تختلف تقديرات المؤرخين لأعداد الرقيق الذي نقله الأوروبيون في إفريقيا إلى الأمريكيات وأوروبا طوال الفترة من الثلث الأول من القرن الخامس عشر حتى إلغاء تجارة الرقيق في أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين ، قدرهم الرئيس الغاني كوامي نكروما بمائة مليون في حين قدرهم البعض بـ ١٥ مليوناً .

وقد يرجع هذا الفارق الشاسع في الرقم إلى أن كل إفريقيا كان يصل إلى الأمريكيتين يقابله ٤ أشخاص ماتوا في مراحل مختلفة ، واحد مات عند القنص وواحد مات أثناء محاولات الهرب خلال الطريق بين قريته والحصن أو الحامية التي كان يتجمع بها المقتنصون على الساحل ، وواحد مات في هذا الحصن بينما كان ينتظر قدوم السفن الأوروبية لنقلهم ، وواحد أخير مات خلال الرحلة عبر الأطلنطي . وحتى إذا افترضنا أن المفقودين يشكلون نسبة ٢ : ١ بالنسبة للذين يصلون إلى ساحل أمريكا ، فإن أدق التقديرات تتراوح بين ٤٠ و ٦٠ مليوناً وصلوا الساحل الأمريكي ، وأن نحو ستين مليوناً فقدوا داخل القارة أو في عمق المحيط^(١) .

من الصعب تحديد عدد من مورست عليهم تجارة الرقيق فالأرقام تتفاوت بشكل كبير بين مرجع وآخر ، إن بازيل ديثيد سون يقدر الفقد البشري الإجمالي لإفريقيا بسبب القنص والتجارة ونسائجها ، فيقول : إذا كانت الرحلات المحفوظة تفقد نحو ١٠٪ أو أقل فإن الرحلات الأسوأ تفقد أكثر بشكل مرعب ، كما أنه من الصعب أن نحصر عدد رحلات السفن ؛ لأن السفن كانت تنطور لتكون قادرة على الإبحار ببطء أقل أو بسرعة أكثر ، والوسائل صارت أكثر علمية لهذه التغيرات بسبب الأرباح المتزايدة .

وفي نصف القرن من التجاوة غير المشروعة فإن ما كان يسمى بالربط المحكم قد حصد أعداداً هائلة من المقتنصين ومثال واحد لما يعنيه الربط المحكم أن بارجة إسبانية تسمى أمستاد أو الصداقة شحنت ٧٣٣ مقتنصاً من ساحل إفريقيا الغربي وأفرغتهم في هاوانا (كوبا) بوسط أمريكا بعد ٥٢ يوماً وكان عددهم فقط ١٨٨ ، وكل الفرق مات في

(١) للوسوعة الإفريقية للجلد الثاني تاريخ إفريقيا - المرجع السابق ص ٢٨٥ .

الطريق . وأن الطبيب الذى فحص البارجة عند وصولها لاحظ أن قبطان السفينة كان يربط المقتنصين بقدر من الإحكام والضغط لا يسمح لأى منهم عند رحيله من إفريقيا بأكثر من ثلث متر ينام فيه ويتقلب ويتحرك ، وهذه الفظائع تضاعفت خلال العقود التى مورست فيها التجارة غير الشرعية .

إذا أخذنا ذلك فى الاعتبار فلا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الخسائر فى شحن السفن خلال التجارة كانت حوالى ١٣٪ من كل هؤلاء الذين اقتنصوا وأخذوا من الساحل وشحنوا فى السفينة ، وبافتراض أن من وصلوا أحياء كانوا حوالى ١١ مليوناً فإنه يكون من مات فى السفن من الشحن حوالى مليون ونصف المليون أو أكثر^(١) .

وبهذا الرقم الإجمالى التقريبى المقدرب ١٢.٥ مليون وضعوا على ظهر السفن يجب أن نضيف إليهم من مات فى إفريقيا بسبب هذه التجارة قبل الشحن على السفن . . كم كان هؤلاء؟ لا توجد إجابات إحصائية عن هذا السؤال ولا تقريبية ، وكل ما يظهر واضحاً هو أن العدد الإجمالى ممن فقدوا حياتهم قبل الشحن كنتيجة لواحد أو أكثر من وجوه صيد المقتنصين أو نقلهم فى السفن كان عدداً كبيراً جداً فى الأقاليم المنهوبة فى وسط أنجولا مثلاً وغيرها من الأقاليم ولا يمكن أن يقل ذلك عن عدة ملايين من البداية للنهاية ، ومن المستحيل الاقتراب أكثر من ذلك . كما لا يمكن الاقتراب بشكل عام من الإجماليات الخاصة بتجارة الرقيق فى غير الأطلنطلى ، لأن تجارة الرقيق كانت تدار فى البر من خلال الصحراء إلى شمال إفريقيا والبحر المتوسط ، وقبل تجارة الرقيق الأوروبية من شرق إفريقيا إلى الجزيرة العربية والهند والصين ، وفى هذا أيضاً يبقى الكثير من عدم التحدد والتضارب .

إن عدداً من الكتاب الأوروبيين يذكرون أن أوروبا يجب أن تحمل اللوم الأقل فى تجارة الرق ، واقتناعهم بهذا الأمر يميل بهم إلى المساواة بين التجارة العربية الآسيوية والتجارة الأوروبية ، ويصورون الأمر على أن التجارة الأولى هى الأكبر من التجارة الثانية . ولا شك أن التجارة الآسيوية كانت محزنة ومؤلمة وأنها استمرت فى الحقيقة قرونًا ولكنها كانت الأقل .

(١) المرجع السابق P. 98 The African Slaves Trade.

إن التجارة عبر الصحراء في المقتنصين الإفريقيين الذين بيعوا رقيقاً في أراضي البحر المتوسط كانت قديمة قدم روما وقرطاج، وكانت أحياناً تشمل مقتنصين آخرين من الشمال يباعون رقيقاً جنوب الصحراء واستمر ذلك عدة قرون، وتأكدت خلال العصور الوسطى وبعدها لمدة طويلة. وأخيراً في سنة ١٣٥٢م فإن الرحالة ابن بطوطة عاد من زيارة لمالي جنوب الصحراء في قافلة تتجه شمالاً وتشمل ٦٠٠ من المقتنصين.

ولكن المسألة بالنسبة للتجارة العربية: ما هي الاقتصاديات التي يقوم بها المقتنصون ويسلمون بها؟ هي في الأساس اقتصاديات من خلالها يستورد العبيد للترفيه ويعملون في الخدمات العسكرية والخدمات المنزلية، وكان من النادر أن يستخدموا على نطاق واسع كمتحجرين زراعيين أو عمال مناجم، وبهذا التوظيف الترفيهي كان العبيد يشكلون استخداماً غالياً الثمن لا يقدر عليه أو لا يقدر على امتلاك العبيد منهم إلا الأغنياء. وحتى امتلاك الواحد أو الاثنين كان يفوق إمكانات الكثيرين من الملوك المياسير. ويكون الرقيق غالياً الثمن ويستخدمون في المجالات التي تحقق بها الثقة والألفة فقد كانوا منتعشين كأفراد حتى بالنسبة للخصيان الذين كانوا يخضعون في البداية لمعاملة مؤلمة ومهينة. واقتصاديات هذه المجتمعات يمكن أن تستخدم عدة مئات الألوف ومضاعفاتهم من الرقيق، ولكنها حتماً لا تستطيع أن تستخدم الملايين منهم.



في نهاية القرن السادس عشر كانت إفريقيا تمثل ١٥٪ من تعداد سكان العالم. وفي عام ١٩٥٠م كان يسكنها أقل من ٧٪ أي أن نسبتها إلى سكان العالم انخفضت إلى النصف خلال ثلاثة قرون. وفي عام ٢٠٠٠م بلغ عدد سكانها ٦٤٠ مليوناً أي أكثر بقليل من ١٠٪ فقد استعادت إفريقيا بعض ما فقدته من وزن نسبي بسبب تجارة الرقيق عبر المحيط.

وحوالي سنة ١٦٠٠م كان سكان إفريقيا يقلون قليلاً عن سكان الصين ولكن الأعداد كانت متقاربة. وفي عام ١٩٥٠م كان عدد سكان إفريقيا حوالي ثلث عدد سكان الصين. وفي مطلع القرن الواحد والعشرين بلغ عدد سكان إفريقيا نصف سكان الصين، (ويتنبأ خبراء السكان بأن عدد سكان إفريقيا سيساوي عدد سكان الصين بحلول عام ٢٠٢٥م)^(١).

ملحوظة يرجع عدم زيادة الصين إلى سياسة تحديد النسل التي تتبعها الصين.

(١) البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة - تقرير إفريقيا - مركز البحوث العربية والإفريقية ص ٢٨.

خامساً: خلاصة أربعة قرون من تجارة الرق

لا يوجد تلخيص لخلاصة أربعة قرون من تجارة الرق أفضل مما كتبه بازيل ديثيدسون في كتابه «African Slave Trade». إننى هنا أعرض كلامه المقحم بالصدق والحب لقارة أحبها هذا المؤرخ العظيم وأحب أهلها وأوقف علمه وجهده وعطاءه ليكتشف بجانب المضى من ماضى إفريقيا القديم الذى خيأ المستعمرون تحت بساط التاريخ وأهالوا عليه ستار النسيان ووصموه بالدونية والبربرية والوحشية والهمجية والتخلف، حتى قدر أن يأتى هذا الصوت الشريف من بنى جلدتهم ليكشف أكاذيبهم عن شعوب هذه القارة المظلومة^(١).

نهاية وبداية

يقول ديثيدسون، مع الغزو الاستعماري دخلت العلاقات الأوروبية الإفريقية مرحلة حاسمة جديدة وكانت الأفعال وردود الأفعال تحدث بسرعة متزايدة. إن الإعلانات الأولى للقومية الحديثة سمعت في غرب إفريقيا بعد أقل من عشرين سنة من الغزو الأوروبي. وإن المرحلة الأساسية للاستعمار في غرب إفريقيا استمرت أكثر قليلاً من نصف القرن.

وكانت هذه السنوات الاستعمارية مذلة وقاسية ومبددة، لكنها كانت قليلة نسبياً فهي أقل من ثلث المرحلة التى سادت فيها تجارة الرقيق، وكانت تستغرق أقل من ثلاثة أجيال، وقد قادت إلى يقظة متنامية ووعى متزايد بمجتمع جديد وإلى صحوة سياسية وإلى بعث للثقافة الإفريقية والشعور بالثقة الاجتماعية.

إننى أفكر في مرحلة ما قبل الاستعمار باعتبارها سنوات المحنة لأنه في هذه السنوات وعلى مدى قرون طويلة عانت إفريقيا بشكل مستمر وقاس من علاقاتها مع أوروبا. وكانت سنوات المحنة هي سنوات العزلة والشلل آياً كانت التجارة التى مورست فيها سواء كانت تجارة العبيد أو غيرها.

كم عانت إفريقيا من تفريغها من السكان؟ إن العبودية أذت المناطق الساحلية والقريبة من الساحل، كما أذت غيرها وهو صحيح بالنسبة للكونغو وبالنسبة للساحل

(١) ما يلى هو تلخيص من كتاب بازيل ديثيدسون «African Slave Trade» المرجع السابق ص ٢٨٥-٢٩٦.

الشرقي وبالنسبة لشرق خليج غينيا، وهو صحيح أيضاً لغيرها، وبشكل عام إذا أخذنا في الاعتبار أن من وصل حياً إلى السواحل الأمريكية يصل إلى نحو ١٢ مليوناً وأضفنا مليونين لمن فقدوا عند عبور المحيط وأضفنا نصف هذا العدد الإجمالي أى نحو سبعة ملايين من فقدوا قبل الإبحار (وهذا الرقم الأخير هو مجرد ظن لأنه لا توجد إحصائيات) فنحن بهذا نصل إلى أن العدد الإجمالي يبلغ ٢١ مليوناً من التجارة عبر الأطلنطى فقط، إنه عدد ضخم لا شك ولكنه يتوزع على مدة طويلة، وإذا نظرنا إلى العدد المفقود قبل ١٦٥٠ م أى قبل أن تتوسع تجارة العبيد وأضفنا الفاقد البالغ ٢١ مليوناً في حدود القرنين اللذين تميزا بالتوسع في الاسترقاق (١٦٥٠ - ١٨٥٠ م) نكون قد وصلنا إلى إجمالي يقدر بنحو عشرة ملايين عن كل قرن من هذين القرنين، فإن ذلك يشير إلى فقدان معجز لهؤلاء الناس الذين قامت التجارة بقسوة ضدهم.

لقد كان هناك فقدان مستمر للناس وأدى هذا إلى إضعاف المجتمعات، إن السكان في هذه الأيام الحالية قد زادوا وفي غرب إفريقيا هناك زيادة كبيرة في المنطقة الساحلية أكثر من ٥٠ نسمة في الميل المربع الواحد في بعض المناطق، كما أن هناك كثافة لا بأس بها عند حدود الغابات. ولكن في المناطق التي تقع ما بين حدود الغابات بين أراضي السافانا تقل الكثافة إلى نحو ١٠ في الميل المربع وأحياناً ما تصل إلى شخص أو اثنين فقط.

إن التربة وغيرها من العناصر الطبيعية تفسر هذا التباين ولكن إذا كان من الصواب أن عدداً كبيراً من عبيد غرب إفريقيا أخذوا من المنطقة المتوسطة؛ حيث لم تكن هناك دول كبيرة تحميهم فإنه يمكن القول إن هذه الندرة النسبية للسكان لها علاقة بتجارة الرقيق.

الهجرات

إن الشواهد الخاصة بالتفريغ السكاني الخطير من خلال التجارة غير مقنع وحده، وأن أعداداً كبيرة من المقتصرين كانوا يشحنون من أراضي الغابات في نيجيريا لفترة طويلة جداً، ومع ذلك فإن هذه المناطق كانت من أكثر المناطق كثافة سكانية في إفريقيا. يعلق أحد الكتاب قائلًا: إننا إذا حكمنا من وثائق القرن التاسع عشر فإن الكثافة السكانية الزائدة كانت هي القاعدة في كل أقسام قبيلة أيجيو. ويعلق بازيل: وهنا وبأى نسبة تكون فلا يبدو أن تجارة العبيد كان لها أثر يقلل من معدلات الولادة والحياة، وهذا

التحفظ لا يعنى القول بأن تجارة العبيد ساعدت على زيادة نسبة المواليد ولكنه يعنى أكثر أن نسبة المواليد فى هذه المناطق المتسمة بالخصوبة قد ساعدت على تجارة العبيد بمثل ما كان يقال فى الأزمنة البعيدة إن زيادة الكثافة السكانية فى جنوب نيجيريا جعلها تتحرك وجعل حركات الهجرة تزيد بما ساعد على تعمير وسط إفريقيا وجنوبها.

إن الإنسان يتعين عليه أن يحسن النظر فى التأثير السياسى لهذا النظام الاستعمارى لتجارة العبيد وهو نظام حتى لو اعتبر نمواً تلقائياً للضرورات الاجتماعية فإنه كان سياسياً وأخلاقياً مشوهاً، وسواء كانت تجارة الرقيق التى أسست بها أوروبا الغربية جزءاً كبيراً من رخائها كان انحرافاً حقيقياً أو أنه كان مجرد خلاصة لطبيعة التقدم اللا إنسانى فى هذا العصر، كما لاحظ كارل ماركس بالنسبة لعمل الأطفال فى المصانع والاسترقاق فى الورش. فإن هناك مأسى كثيرة دلت عليها تجارة العبيد سواء كان ثمة تفريغ سكانى أو لم يكن.

والحقيقة إن كثيراً من المؤرخين يعتبرون عملية الاسترقاق وتجارة العبيد قد أفقدت إفريقيا قسماً كبيراً من ثرواتها من الأيدي العاملة الإفريقية ويعتبرون هذا الأمر سبباً أساسياً للتدهور الحضارى والتنموى لإفريقيا خلال هذه القرون، وأن تفريغها من السكان هو المسئول عن التخلف الحادث من بعد.

الشاهد الاقتصادى

إن الشاهد الاقتصادى هو أكثر قسوة ولا يمكن أن ثبت بالشكل الجازم أن العلاقات الأوروبية بين أعوام ١٤٥٩ - ١٨٥٠ م كانت هى سبب الركود الاقتصادى فى إفريقيا، أو أن هذا الركود صار أسوأ بعد أن سادت تجارة العبيد حوالى سنة ١٦٥٠ م؛ لأنه حتى بعد أن انطلقت التجارة استمر الإفريقيون ينسجون المنسوجات ويصهرون المعادن ويمارسون الزراعة ويعملون بالحرف والتقنيات اليومية التى يمارسونها فى حياتهم اليومية. ولكن بطاقة ضعيفة

وبالنسبة للزراعة فرغم أن كان ثمة بعض المغام لهم باتصالهم بأوروبا؛ لأن السفن الآتية من جنوب أمريكا أدخلت محاصيل جديدة نافعة صارت ذات أهمية كبيرة بالنسبة لإفريقيا.

وكان لذلك أثر طيب على الشعوب الإفريقية وزراعتها، فإنه لا يكاد يكون ثمة شك في أن الموازين الخاصة بالآثار الاقتصادية الناتجة عن الاتصال الأوروبي قد أدت إلى تدمير منظم وحاسم للحياة الإفريقية. وبعد سنة ١٦٥٠م تقريباً فإن الإنتاج الإفريقي من أجل التصدير صار إنتاجاً وحيد المحصول منحصراً في القوى البشرية وهذا يظهر ما يؤدي إلى اختناق المناطق الساحلية والغربية من الساحل، وكلما اتسع الإنتاج الأوروبي من أجل التصدير وشمل البضائع الاستهلاكية، أدى هذا بالدول البحرية في أوروبا إلى تطويرها الاقتصادي.

إن أسباب هذا الاختناق كانت متنوعة، ومن الواضح أن الإفقار نتج عن تصدير الرجال والنساء أنفسهم الذين يتجولون الثروة في بلادهم. وتصدير العبيد فإن الدول الإفريقية كانت تصدر رأسمالها الخاص بغير عائد محتمل يعود لصالحها أو يزيد من طاقتها الاقتصادية. إن تصدير العبيد يختلف بشكل جذري في هذا الخصوص عن الهجرات الإجبارية للرجال والنساء الفقراء في القرن التاسع عشر؛ لأن الملايين الذين تركوا بريطانيا مثلاً في تلك السنين كانوا قادرين على أن يدخلوا في التيار العام للتوسع الرأسمالي، ومن ثم يفيدون بلدهم الأصلي بطرق مختلفة، ولكن العبيد الإفريقيين لم يكونوا يساهمون أية مساهمة إلا أن يزيدوا ثروات أسيادهم وهي ثروات لا يمكن أن تعود إلى إفريقيا. إن البائعين للعبيد في إفريقيا لا شك كانوا يتسلمون مقابل ما يبيعونه من العبيد ولكن طبيعة المقابل كانت غير متجهة. إن شروط التبادل نفسها منعت إيجاد تراكم رأسمالي يمكن أن يؤدي إلى التقدم في الاقتصاد. هذا رأس المال الذي كان يركمه الملوك والتجار الكبار كان مجرد أسلحة للحرب. ومن وجهة النظر الاقتصادية فإن تجارة الرقيق مع أوروبا لا ينظر إليها فقط باعتبارها مقدمة للاستعمار، ولكنها كانت شكلاً من أشكال الاستعمار المدمر والبدائي والتبادل بين السلع الاستهلاكية وبين المادة الخام للعمالة العبودية:

تدهور الصناعات المحلية

في مواجهة الطلب على العبيد تدهورت وانهارت الصناعات المحلية، وعندما يكون

المنتج الوحيد الممكن تسويقه هو المنتج نفسه فلا يمكن أن تنمو أو تتعشخ الحرف أو الصناعات المنزلية، ناهيك عن توسعها وغوها. إن المنسوجات الأوروبية الرخيصة طردت من السوق الملابس الممتازة التي كانت تنتج في ساحل غيتيا. وقد تحدث أحد المؤرخين عن ذلك سنة ١٥٠٦م فلاحظ أن البرتغاليين كانوا يشترون هذه الملابس ويحملونها معهم إلى أوروبا وكانت بنين مشهورة على وجه الخصوص بالمنسوجات. ثم ما أن حل عام ١٨٥٠م حتى كانت هذه المنسوجات قد سقطت وصارت ذات أهمية ثانوية، على الرغم من أن المنسوجات مثلاً في كانو في شمال نيجيريا ازدهرت واثرت في الوقت ذاته، ذلك لأن كانو كانت تنتج في نظام اقتصادي بعيد عن التأثير المباشر بتجارة العبيد عابرة البحار. ولم تكن تجارة العبيد داخل القارة تجارة سائدة لديهم قط. وقد لقيت منسوجات داهومي المصير ذاته الذي لاقته منسوجات بنين، رغم أن البعض كتب في سنة ١٧٨٩م أن داهومي تنتج ملابس قطنية طيبة وصباغتها جيدة وخاصة اللون الأزرق منها. وكانوا يتحدثون عن جودة المصنوعات هذه التي تستطيع أن تنافس الواردات المتنامية لمنتجات القطن المصدرة من لانكشير في بريطانيا.

هذه الصناعات المحلية تدهورت في الوقت الذي اهتم فيه التجار والرؤساء بتجارة العبيد، وفي ذلك الوقت نفسه لم يحدث توسع حقيقي في الاقتصاد لأن التجارة الجديدة التي جلبت الثروات كانت شأناً فردياً يستمتع به الملوك والتجار.

وكان الملوك الذين يقومون بالتجارة لا يعينهم كثيراً التراكم الرأسمالي وإنما يركزون همهم في جنى الثروات وتمجيد أسمائهم وسمعتهم وتوسيع مناطق نفوذهم وكسب الحلفاء، وكان النظام مستقراً في هذه الحدود ولكن حدودهم كانت تنحسر عن الرغبة في أية تنمية اقتصادية تؤدي إلى تغيرات تراكمية في النظام الاقتصادي.

ومع نهاية تجارة العبيد تحول التجار الأقوياء في دلتا النيجر إلى إنتاج زيت النخيل يستخرجونه من مزارع واسعة، وكثير منهم كانوا يدينون بثرواتهم إلى عملية تصدير الزيوت أكثر من تجارة العبيد. والسؤال هو هل هذا الشكل الجديد للإنتاج تطور بسرعة إلى أن يصير نظاماً رأسمالياً في غرب إفريقيا؟ يحتمل أنه كان يمكنه ذلك ولكنه لم يعط الفرصة قط؛ لأنه سرعان ما أتى الغزو الاستعماري وأثبت أن أوضاع الغزو وظروفه تؤدي إلى عكس التطور الاقتصادي وإلى هدم التطور الاقتصادي أكثر مما كانت تفعل.

بتجارة العبيد لأنه مع الغزوات أتت السيطرة والإخضاع ، وهذا الإخضاع شكل عنصراً من عناصر إنهاء المساهمة الإفريقية في المشروعات التجارية الكبرى وإنهاء الإدارة الإفريقية للتجارة . وخطوة خطوة انهارت العائلات والهيكل التجارية القديمة أو جنب لصالح الاحتكارات الأوروبية الجديدة . وقد أدخلت هذه الاحتكارات العديد من المخترعات والابتكارات التي أدت إلى سحق التكنولوجيا القديمة المتخلفة ، وأدخل الحكم الاستعماري نماذج جديدة للتبادل التجاري وصارت العملة النقدية تستخدم استخداماً واسعاً لأول مرة وأدخلت البنوك وبدأ إنتاج الكاكاو والمحاصيل الخاصة بالفول السوداني مع استخراج المعادن من المناجم . وهذا التوسع في الإنتاج لم يكن يختلف في أثره عن التوسع في تجارة الأطنطى أيام تجارة العبيد ؛ لأن ما كان يتطور بسبب هذه التجارة هو الاقتصاديات الأوروبية وليست الإفريقية . وإن فرص التطوير إلى نظام رأسمالي إفريقي كانت منعدمة أو أنها هبطت إلى درجة الانعدام .

هل كان ما سمي بالتنمية الأوروبية لإفريقيا قبل انتهاء المرحلة الكبرى لتجارة العبيد في غرب إفريقيا أي قبل سنة ١٨٢٠م هل كانت تنمية رأسمالية إفريقية كما أطلق الغربيون عليها ، أي هل كانت للصالح الإفريقي أم لا ؟

إن أية إجابة عن هذا السؤال ستكون غامضة بمراعاة التنوع الكبير جداً في الظروف المحلية على مدى فترة طويلة ، ولا شك أن التجارة بأرباح كثيرة للملوك والمجموعات الحاكمة ، ولكن كثيراً ما كان الملوك يوزعون هذه الثروات على الأعيان والاحتفالات وغيرها .

إن التقدم الاقتصادي الذي كان مطلوباً في تلك الأيام هو إنتاج نظام رأسمالي محلي قادر على التطور التكنولوجي السريع ، وهذا يتطلب تطوير الحريات الاقتصادية ولكن ما حدث هو العكس ، وإن تجارة الأطنطى كانت أبعد ما تكون عن أن تهيم الظروف لقيام المشروعات في ذلك الوقت .

إن الدراسات العلمية للمؤسسات التي كانت موجودة قبل العصر الاستعماري في إفريقيا هذه الدراسات حتى السبعينيات من القرن العشرين تزال في مراحلها الأولى .

الجانب الاجتماعي

ولكن في الجانب السياسي الاجتماعي نجد الدمار الأكبر أو يمكن أن يكون دماراً كاملاً . وهناك مراحل أربع كبرى يمكن أن تتبعها في العلاقات السياسية كان لكل منها أثره العميق . المرحلة الأولى : في البداية كان الاتصال هو مجرد تراكم لنقاط في التبادل بعضها جاء سلمياً وبعضها بما يشبه الحرب ، والبحارة الأوائل لم يكونوا يصنعون أكثر من أنهم كانوا يقومون بعمليات كالسطو الليلي على إفريقيا الغربية ، ولكن هذا نفسه أعطى نوعاً من الأهمية الجديدة لأراضي الساحل بالنسبة لشعوبها ، وهذه الأهمية المتزايدة للساحل كان لها تأثيرها في القرن السادس عشر ؛ لأن السكان في هذه الجبهة الجديدة كيفوا أنفسهم سريعاً مع الأعمال الخاصة بالدفاع عن مصالحهم الناجمة عن التجارة العابرة للبحار ، وكانت هذه هي المرحلة الثانية وهي المرحلة التي توسعت فيها التجارة والتحالفات السياسية .

في القرن السابع عشر قويت علاقات المشاركة بين الأوروبيين وشعوب الساحل ، لم يعجز هذا سريعاً ولا هادئاً لقد تضمن صراعاً عنيفاً سعياً لمزايا الاحتكار بين الأوروبيين لاحتكار البحر و بين الإفريقيين لاحتكار الأراضي ، كما حدث أيضاً بين جماعات متحالفة بين الأوروبيين والإفريقيين . وفي هذه المرحلة الثالثة تشكل نوع من ميزان القوى حول تجارة الرقيق ، قبل الأوروبيون القيود حول التجارة من السفن ومن حدود الشاطئ واستقر الإفريقيون على توزيع للقوى والحقوق حسب قوة الجماعة الساحلية الإفريقية في السيطرة على منطقتها .

كانت ثمة إمكانية واعدة لتطور هذه المناطق في هذه المرحلة . وعلى طول ساحل الذهب (ساحل غانا الحديثة) بدا لأول وهلة أن المؤسسات التقليدية التي كانت موجودة تطورت إلى نوع يشبه الأشكال الرأسمالية وظهر نوع من أصحاب المشروعات يجنون أرباحهم من وضع شبيه بالاحتكار ووجد أمراء من التجار يسعون لتشكيل نظم حديثة للإنتاج ، وقد قال بعض المؤرخين إنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث للتجارة بما يشبه الثورة في المجتمعات التي يعيش فيها شعوب ساحل الذهب . ولكنها كانت ثورة فاشلة ؛ لأن تجارة الصادر والوارد في هذه المنطقة كانت تشكل حجماً أصغر مما تشكله في مناطق أخرى ، لذلك كانت الشركة غير متساوية رغم أنها بقيت نوعاً من الشراكة .

كانت هناك معوقات وكانت موازين القوى تتغير في الأرض بواسطة البحر ، لقد قاتل البريطانيون الفرنسيين كما قاتل الأدراريون (Adrans) الداوميين (Dahomeyans) ، ومع ذلك لم تكن الحروب ظاهرة إلى حد يجعلها وضعا عاما وكثيرا ما كان يحدث السلام بين الشركاء ، وقد حدث الكسر الأول الحاكم في القرن الثامن عشر عندما فقدت شعوب الداخل صيرها بالنسبة لوسطاء الساحل فواجه الأوروبيون في ساحل غينيا قوى إفريقية توسعية للمرة الأولى ، وقامت الصراعات المهددة ونشبت الحروب وكان الإفريقيون أكثر قوة من أن يهزموا فلما أعترف بحقهم في الوجود كانوا مستعدين للدخول في الشراكة .

وفي القرن التاسع عشر مع المرحلة الرابعة تغير الميزان مرة أخرى . إن إلغاء بريطانيا وفرنسا تجارة الرقيق قد حدث جنباً إلى جنب مع صعود الاستعمار الحديد (الإمبريالية) ، لم تكن أوروبا مهتمة بالمساواة في الحقوق كانت فقط تريد السيطرة والسيادة والاستغلال الاقتصادي للقارة كلها ، فلم تعد تكتفي بأسر الشعب الإفريقي وتهجيده واستعباده فقط فصار طلبتها القارة الإفريقية كلها أرضاً وثروات وشعباً عاملاً فيها .

هذا هو السبب العميق لإلغاء تجارة الرقيق في السياسة الأوروبية أنهم أي الأوروبيين قالوا إنه بدلاً من أن نستورد العبيد فلنحتل أرضهم ولنبيعهم فيها يعملون ويستخرجون ثرواتها لصالحنا . وفي الوقت نفسه كانت أمريكا قد استقلت عن أوروبا فلم يعد للأوروبيين مصلحة في أن يضطادوا العبيد من إفريقيا ويصدروهم إلى أمريكا . ألغيت العبودية عن البشر لأنهم قرروا استعباد إفريقيا كلها كقارة وأرض .

وما لبثوا أن اندمجوا في السياسات الإفريقية والتدخل بالتحالفات وغيرها وصار من الحتم لأوروبا الصناعية أن تنصرف وتعود على إفريقيا غير الصناعية .

ويبدو من هذا العرض أن هذه العلاقات المتغيرة تظهر أن كلاً من المراحل الأربع السابق الإشارة إليها ترتبط عضوياً بالمرحلة التالية لتجارة العبيد وأزمة إلغائها والغزو الاستعماري كل هذه كانت وجوهاً لعملية مستمرة ، ومن ثم فإن الشراكة الساحلية القديمة المعتمدة على علاقات تجارة العبيد ارتبطت بموضوع الحريات وهو إلغاء الرق لأوروبا وإفريقيا وشقت الطريق للنظام الاستعماري .

إن هذه النتيجة يسهل معرفتها من آليات تجارة العبيد فيما يتعلق بأشكال الحكم الإفريقية. ومن الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية أيضاً فإن ارتباط العلاقات الأوروبية جنحت إلى أن تتقوى بالجوانب المحافظة للتنظيم السياسى الإفريقى: النظام القبلى ونظام العشائر والرؤساء فقوى الأوروبيون من سلطات الحكام التقليديين، وهذا أعطى للقادة التقليديين مصلحة إضافية فى استبقاء الأوضاع على ما هى عليه وأصبحوا قوة محافظة، وأعطى هذا قوة للحكام فى قمع المتمردين عليهم والناشرين ضدهم.

إن حكم الرئاسات الإفريقية كان ولا يزال حكماً يمثل شكلاً من أشكال الحكومة النيابية وكان فعالاً، ولكنه عانى من نقص شديد فإن الحروب والإغارات المستمرة كانت لصالح أشخاص من الرؤساء القبليين ذوى النفوذ فى كل من الجانبين المتحاربين.



إن أسباب التغيير فى التطور الأوروبى ما بين القرون من الخامس عشر إلى الثامن عشر معروفة تماماً، وهذه الأسباب ليست المقصودة هنا، إنما المقصود الآن هو إظهار كيف أن التقدم الأوروبى لم يكن له مثيل فى تطور إفريقيا، ولكنه كان على حساب أية إمكانية تطور فى إفريقيا؛ لأنه فى هذه القصة يستطيع الإنسان أن يفهم لماذا كانت الهوة التكنولوجية بين شعوب أوروبا وإفريقية أو على الأقل بين الدول الكبرى والجماعات الأكثر تقدماً، لماذا كانت هذه الهوة تتسع عبر هذه الحقبة الطويلة أى عبر سنوات تجارة الرقيق من الاختلاف الضيق إلى الاختلاف الواسع، ولماذا أتى بعد ذلك المغزو الاستعمارى، ولماذا صار من الممكن للأوروبيين أن ينظروا إلى الإفريقيين باعتبارهم بدائيين وأنهم غير ذوى ثقافة وأنهم غير قادرين على أى إنجاز حضارى يرمى إليهم؟ هذه المقولات العنصرية فقدت كثيراً من آثارها السامة خلال السنوات الماضية من البحث الإفريقى، ولكنها تظل فى الذاكرة فى أنها كانت أداة ثقافة رئيسية لتسويق الهيمنة الاستعمارية.

وعلى مدى القرون الأربعة فإن ميزان الكسب كان ذا طريق واحد ومعنى آخر كان ذا كفة واحدة للأوروبيين ولم يكن هناك أى نوع من التزاوج الخلاق بين الشقافات أو الأفكار ولا أى نوع من المشاركة فى الثروة والإنجاز.

وبالنسبة لأوروبا كانت التجارة مع إفريقيا دائماً مربحة وهذا الربح ساعد أوروبا على تطوير أشكال منتجة للمجتمع وللحكم، ولكن بالنسبة للمجتمعات الإفريقية كان

غير قادر على أن يحمل تغيرات اجتماعية واقتصادية مطلوبة على العكس كان يلقي
بهذه المجتمعات في أوضاع سياسية واقتصادية من اليأس والإحباط - إن كل العلاقات
يمكن النظر إليها باعتبارها مظهرًا آخر من مظاهر التبدد غير العادي للتراكم الرأسمالي
خلال الثورة الصناعية في أوروبا.

إن هذه العلاقة أنتجت شيئًا آخر سيئًا لقد أنتجت لدى الأوروبيين شعورًا معنويًا
بالسمو العرقي، مما ساعد على تسريع الغزو الاستعماري ولا يزال ينخر كالسوس في
أعضائها. لقد ذهبوا إلى الاعتقاد بأن تجارة العبيد ليست من تبعاتهم ولكنها نتاج طبيعي
لعدم الاهتمام الإفريقي بالحياة الإنسانية. وفي سنة ١٨٣٢م وافقت الحكومة البريطانية
على أن ترسل حملة للنيجر مصحوبة بوكلاء ليوقعوا معاهدات مع الرؤساء المحليين
لإنهاء هذه التجارة البشعة وليمنعواهم بمزايا هذا الأمر بدلًا من الحروب والاعتداءات
المتبادلة. ولم يهتم هؤلاء الوكلاء المنافقون بأن يعرفوا أن هذه التجارة كانت تستحدث
أوروبا وتصر عليها قرونًا عديدة. إن أوروبا وليست إفريقيا هي ما زكت تجارة العبيد
عبر البحار، ولكن أوروبا بمشاعرها الاستعمارية المتباهية لم تستطع أن تعترف بابنه
المشوه وهو تجارة العبيد.

وبالنسبة للإفريقيين فإن المعنويات الخاصة بسنوات تجارة العبيد مالت إلى أن تنح
لديهم شعورًا نقيصًا، لقد حملت الإفريقيين بشعور من النقص وحملتهم الإحساس
بالذنب وبالخجل. لقد قال أحد الأوروبيين: نحن الأوروبيين أخطأنا بأن استعبدنا
الإفريقيين ولكننا أوقفنا هذه التجارة بينما الإفريقيون لم يصروا فقط عليها بل استعبدوا
بعضهم البعض فهل يستطيع الإفريقي فعلاً أن يدير نفسه بنفسه. ويقال هذا الكلام
بصرف النظر عن حقيقة أن الأوروبيين هم أنفسهم وفي زمانهم ومكانهم كانوا يسترقون
بعضهم بعضًا، والحقيقة أن الإفريقيين لم يسترقوا قبائلهم قط إنهم كانوا يصطادون شعوبًا
أخرى كانت تعيش في إفريقيا وبهذا المعيار لم يكونوا أقل أخلاقية من الأوروبيين.

إن كلا الأمرين المخز والخجل أو الشعور بالسمو أو بالنقص كلها بقايا ماضٍ يجب
دفنه ولكنه لم يدفن إلا بعد أن يفهم جيدًا المشروع العبودي.

بالإضافة إلى هذا التحليل الرائع لبازيل ديشيدسون لأربعة قرون من السلب والنهب
للشعر الإفريقي، يمكن بإيجاز شديد تلخيص الحقائق الإفريقية فيما يلي:

* أجبرت إفريقيا على تصدير أغلى ثرواتها وهي الأيدي العاملة البشرية حيث نقلت الملايين منها للعمل في المزارع والمناجم الأمريكية، وحققوا أرباح طائلة وثروات ضخمة ليس لأوطانهم أو لأنفسهم بل لدول أوروبا وأمريكا.

* نجم عن تجمار الرقيق استيراد البنادق والبارود وأدى إدخال الأسلحة النارية أي ثورة في مجال القنص والقبض على الرقيق، وإلى انتشار الحروب والصراعات بين القبائل الإفريقية فأحدث ذلك دماراً في الإنتاج وقتلاً بالقوى البشرية وتشتيتاً للسكان. وعندما بدأ التكاليف الاستعماري كان الانقسام والتشتت هو طابع الجماعات البشرية في إفريقيا مما سهل على الغزاة الأوروبيين مهمتهم في السيطرة على أرض القارة وتحقيق الاستعمار الكامل.

* أدت الإغارات على الرقيق إلى تدمير وهجرة وحرق القرى، وأثر ذلك على الصناعات المحلية كالنسيج والأقمشة وحرف التعدين البرونزية والنحاسية والفخار التي ازدهرت في الحضارات القديمة، وأدت إلى استغلال ونهب الثروات الإفريقية لصالح القوى الأوروبية وكان لهذا الاستغلال أثره الواضح بعدم استقلال دول إفريقيا^(١).

* دمرت ممالك إفريقية بكاملها مثل مملكة «المانيكونغو» في حوض نهر زائير، ومملكة لواندا في أنجولا، ومملكة الموموتوبا في موزمبيق في الشرق.

* أصبحت المجتمعات الإفريقية تعاني من حالة من الغوضى نتيجة الصراعات بين القبائل التي تبني أسر أعدائها لبيعهم رقيقاً فسادت حالة الأمن. غياب الشباب أدى إلى شيخوخة المجتمعات وأصابها بحالة من الاكتئاب نتيجة الحزن على فراق الابن أو الزوج أو الأب، فصارت نحيباً دون أمل في المستقبل.

* أدت تجمار الرقيق إلى الخلطة السكانية الموجودة في ساحل غرب إفريقيا، وهو ما أدى إلى فراغ مكاني حتى اليوم لا سيما في أنجولا وموزمبيق وحوض نهر زائير^(٢).

(١) المرجع السابق - للزعم الدولي الإسلام في إفريقيا الكتاب الرابع ص ١٤٦ - ١٥٠.

(٢) الموسوعة الإفريقية - المرجع السابق ص ٣٨٦.

الفصل السادس «الأخير»

على من تقع مسئولية بيع الرقيق؟

- هل باع الإفريقيون ذويهم؟
- المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين
- مقارنة بين الرق الأوروبي والرق العربي
- التعويضات عن العبودية

أولاً: هل باع الإفريقيون ذويهم؟

هل باع الإفريقيون ذويهم، وهل باع حكام الممالك الإفريقية شعوبهم وانغمسوا في تجارة الرق؟ الإجابة بنعم هذا ما تردده أصوات كثيرة بالغرب ليبرروا به جريمة تجارتهم للرق الإفريقي عبر أربعة قرون، وهم يقولون لولا مساعدة الإفريقيين شعوباً وحكاماً ما استطعنا أن نأسر كل هذا العدد من أبناء إفريقيا ولولا أننا وجدنا البائع لما كنا أصبحنا مشترين.

لا شك أن عدداً من الإفريقيين تعاونوا بفعالية مع تجار الرقيق، ولكن يتعين اليوم أن نتفهم ظروفهم ودورهم وإلا سيخضعون لظلم شديد، وقد حدث ذلك في داهومي وبنين، ولكن بشكل عام فإن الرؤساء في معظم المجتمعات الإفريقية التقليدية لم يكونوا هم ممن باعوا رعاياهم ولم يمارسوا هذه التجارة، وكان الفرد في مجتمعه له حقوقه المعترف بها والمقدسة لدى القبيلة، وعلى سبيل المثال مجتمعات الأكان في غينيا نيجر أن قانونها يؤكد قداسة الجنس البشري وقداسة الفرد وأن كل إنسان هو وريث مفترض للأخر، وهذا يعني أن كل إنسان ينظر إليه باعتبار أنه سيداً في عائلته أو في عشيرته، ومن ثم فإن المجتمع يتبادل الاعتراف بكل من أعضائه في هذا المجتمع واعتباره متساو مع غيره في الحقوق كلها. إن الرئيس الأعلى له عائلته وعشيرته وورثته يردون منها، وبالمساواة فإن كل العشائر أو القبائل الأخرى يتكون منها مجلس الكبار الذي يلتزم بحكمهم الرئيس وترد سلطة الرئيس من هؤلاء من خلال نظام الأسرة، وهذا يعني أن الأكبر لا يخلعه إلا ابن أمه أو ابن أخته من أمه، ومن ثم فإن الفرد كان له نظامان للعائلة، عائلة أبيه التي ينتمي إليها وينشد منها الحماية وعائلة أمه التي تفتح له أبواب التوارث، ومثل هذا الفرد لا يكون قنلاً ولا تستطيع أن تبيعه؛ لأن عائلته سيطبقون على رغبة البائع إذا فعل ذلك، وأيضاً فإن هذا الشخص إن كانت لديه شكوى لدى مجلس الكبار بسبب سوء معاملة واجهته أو محاولة أحد كبار العائلة أن يحوله إلى خادم فإن شكواه هذه تكون أساساً لدعوى لخلع الرئيس نفسه.

والآن هل يمكن للورد أوروبي أو دوق أو يارون أو ملك أن يخلق شرعاً بغير حرب أو بسبب سوء معاملته لرعاياه؟ في مجتمع الآكان كان يمكن أن يحدث ذلك وهذا هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود عبيد في مجتمع الآكان. وفي الحقيقة فإن العبيد لا يأتون هناك إلا من طريق واحد وهو الحروب. إن أسرى الحروب هم الذين كانوا يعتبرون أجناب عن المجتمع، ومن ثم لا يحوزون الحقوق التي يتمتع بها أعضاء المجتمع، وهؤلاء كانوا يقسمون بين ضباط الجيش المنتصر باعتبارهم من غنائم الحرب، ولكن حتى هذا الوضع فإنهم يعاملون بقواعد منضبطة، وفي أغلب الأوقات فإن قواد الحرب يعملون بوعي على دمج الأسرى كل في أسرته الخاصة. وبهذه الطريقة تكون حماية القواد تلقائياً على أسراهم وهذا ما يحمي هؤلاء الأسرى من سوء المعاملة^(١). وفي الحقيقة فإنه من الممنوع تماماً على أي شخص أنه يحاول تتبع أصول أي شخص آخر أو أسلافه أو أن يحاول أن يكشف عن شجرة عائلة شخص آخر بدون إجازة من سلطة الرئيس نفسه.

مثلاً إذا تنازع رجلان على استحقاق شيء ما فإن كلا من هذين الطرفين المتنازعين يتخذ موقفاً من الآخر إما بإنكار نسب الآخر أو بإثبات نسبه لنفسه وهنا فقط يتاح للرؤساء أن يتابعوا ويتعقبوا نسب كل من الطرفين بالتفصيل لإثبات دعوى أيهما، ولكن في غير هذه الحالة فإن تتبع أنساب الناس والكشف عن ذلك يعتبر من الأسرار التي لا تجوز بغير ترخيص ولا تعرض المخالف لعقوبة قاسية. والسبب في ذلك أن التحليل أو العبث بتاريخ الأسر أو العشائر يمكن أن يهدد نسيج الأمة كلها، وافترض مثلاً أن أحسن قائد جيش معاصر كان من سلالة أسير حرب وكان قتل عدداً من القادة قبل أن يؤسر ولكنه بعد ذلك اندمج في المجتمع الذي أسره وصار من أبطاله، فإن كشف الماضي يؤدي إلى نزاعات في هذا الشأن.

(١) وفي غير مجتمع الآكان، كان هناك نوع من الرقيق لا يكونون مملوكين ملكية فردية خاصة لسيد معين، بل يستخدمون في القوة العسكرية، باعتبارهم جنوداً في المؤسسة العسكرية ويكون شأنهم شأن مملوكين لهم المؤسسة، ومن هؤلاء مثلاً كافور الأغشيدى الذي كان في الحرس الخاص لأحد الأمراء في مصر، وكان كافور عبداً نوبياً وبعد وفاة سيده نجح في أن يصبح حاكماً فعلياً لمصر واعتمد في حكمه على عدد كبير من أبناء جلده بالجيش (الوزير الدولي، «الإسلام في إفريقيا» المرجع السابق الكتاب الحادي عشر بحث د. ميمونة ميرغني حمزة ص ١٦٣).

إن ما أحاول أن أقوله هو أنه في مجتمع الأكان كان ما يستحقه الفرد يتساوى مع ما يستحقه الآخرون وليس أقل، وكل فرد له الحقوق ذاتها، ومن ثم فلا يباع ولا يعامل مثل القرن كما حدث في النظام الإقطاعي في أوروبا.

وكان بعض الأثرياء الإفريقيين في المناطق المنتجة للذهب في أرض الأكان كانوا من الثراء، بحيث إنهم اشترى عبيداً من البرتغاليين وأبحروا بهم من قلعة المينا من بين بنين وجزيرة ساوكومي وبنسب إلى غانا.

إن الأكان باعوا بعضاً من أسرى الحرب فعلاً، ولكن هذا الذي حدث كان لإنقاذهم من الموت، إذ كان الأكان يعتقدون أنه عندما يموت رئيس أو سيد آخر فإنه يذهب ليحيا في عالم روحاني يسمى أوسامندو فكان يقتل خدمه ليكونوا في خدمته في الحياة الآخرة، ومن ثم فعندما تموت شخصية كبيرة في مجتمع الأكان فإن عدداً كبيراً من الأفراد يقتلون سرّاً ويدفنون مع الشخصية الكبيرة، وأحياناً ما يحتفظ بعدد من أسرى الحرب لهذا الغرض.

ولكن إذا أتى تاجر رقيق أوروبي وأذاع أنه يريد أن يشتري عبيداً وكان هناك عدد من أسرى الحرب احتفظ بهم من أجل الحياة الأخرى للمالك عندما يموت، فإن المالك يقرر ساعتهما ما إذا كان يبيع فرداً أو اثنين منهم ليستبدل بهم متاعاً آخر. وبالتدريج صارت النقود نافعة بدلاً من مراعاة العادات القديمة الخاصة بالخدم الذين يذهبون مع السادة في الحياة الآخرة. وفي الحقيقة فإن بيعهم يعني بالنسبة لمالك العبيد المحافظة عليهم من الموت، وعلينا أن نعرف بأن بيع الإنسان قد يكون أحسن من قتله.

إن بيع الرقيق لذويهم يقع أكثر على عائق الأوروبيين الذين أسهموا إسهامات فعالة وخبيثة في إذكاء هذه التجارة بإثارة القبائل ضد بعضهم البعض وخديعتهم. إن تاريخ الرق الإفريقي كتب بأقلام أوروبية وكان عليهم ليبروا هذه الجريمة تصدير حماقة الرؤساء الإفريقيين وإنهم كانوا يبيعون ذويهم مقابل الخرز والمصنوعات الزجاجية والملابس والخمور وغير ذلك، وهذا كلام من قصص القولكلور قصداً منه أن يشيخوا لمواطنيهم الأوروبيين كيف كانوا مهرة في خديعة الأهالي الإفريقيين وكيف كانوا يزدرونهم.

إن تاجر العبيد الأوروبي كان يطلب مثلاً ٢٠٠ فرد فيقول له العميل الإفريقي إنه يحتاج إلى تجنيد ٥٠ من المرتزقة المدربين ولكل منهم بندقية وذخيرة وأطواق للرقاب والأرجل وسلاسل للأيدي والأذرع، وكان تاجر العبيد يقدم له كل شيء بما فيها أطواق وأقربان الحديد التي تصنع خصيصاً في أوروبا وترسل إلى إفريقيا، ويذهب هو ويجلس في قلعته يستقبل العبيد المأمورين ويضعهم في ظروف قاسية جداً وينتظر. وبعد أيام يأتي له العميل الإفريقي بمائتي عبد ويدفع له التاجر الأوروبي العمولة المتفق عليها. ويضع العبيد في سفن أعدت خصيصاً للرقيق وتبحر السفينة إلى الكاريبي أو إلى أي من الأمريكيات، حيث يبيع كل عبد بما يوازي ٣٠ ضعفاً من المبلغ الذي اشتراه به من إفريقيا ويكون سعيداً.

وهؤلاء الذين اشتروا العبيد منه كانوا يستخدمونهم بأقصى ما يمكن من معاملة لينتجوا لهم السكر والقطن والدخان والشاي ويستخرجوا الفضة والنحاس والذهب والقصدير وهم أيضاً سعداء. إنهم يبيعون هذه المنتجات في أوروبا ويحصلون على أرباح ضخمة، وبهذه الأرباح ينشئون المصانع والورش التي تنتج المنسوجات والكحول والمصنوعات الزجاجية وغير ذلك مما يباع بأسعار غالية في إفريقيا، ومن أرباحهم في إفريقيا يشترون مزيداً من العبيد وهكذا.



في هذه الفترة كانت إفريقيا مقسمة، وكان على كل قبيلة أن تحمي نفسها من إغارات جيرانها؛ فإن أهم شيء هو استيراد البنادق من أوروبا، وكان الخوف دائماً وقائماً من أن يحصل الجار على البنادق ويعتدي على جاره واقتررب تجار العبيد الأوروبيون من الأفارقة وعلموهم الاحتياج إلى البنادق بالحاج؛ لأن من ملكها يدافع عن نفسه ضد القبيلة (العلو) أو يسيطر بها عليها. كان التاجر من هؤلاء يذهب إلى العشيرة أو القبيلة (أ) فيقول لهم إن العشيرة (ب) تطلب بنادق وأسلحة الخمسة آلاف رجل ولكنه يفضل أن يبيع هذا السلاح العشيرة (أ)، فما الذي يتصور أن تفعله العشيرة (أ) طبعاً ستقول له أعطنا البنادق لنُدافع عن أنفسنا من العشيرة (ب)، فيقول لهم التاجر الأوروبي إنها تكلف كثيراً من النقود فيقول له رئيس العشيرة (أ) ليس لدينا ذهب كثير الآن فيقول له التاجر الأوروبي لا تقلق فقط أعطني أسرى الحرب الذين

لديك . وفي أحيان كثيرة كان يذهب التاجر الأوروبي نفسه إلى القبيلة (ب) لتشتري منه السلاح بالطريقة نفسها وتتقاتل القبيلتان والتاجر نفسه يمد كلاً منهما بالسلاح . وجرى ذلك القتل والعدوان والهجوم والخطف في إفريقيا كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل سنة لأكثر من ٤٠٠ عام^(١) .

وفي الوقت ذاته كانت إفريقيا تجارة محترمة مع العرب وآسيا عبر البحر الأبيض والساحل الشرقي الإفريقي ، ولو كانت إفريقيا تركزت وحدها لصارت قوة اقتصادياً مثل باقي العالم ، ولكن تجارة الرقيق دمرت نظاماً اجتماعية وبمالك مشيدة . وإن قصصاً مثل شراء المرايا الزجاجية هي قصص للفولكلور فقط ؛ فالحقائق المخيفة في كتب التاريخ أن الغرب أمد الشعوب الإفريقية بالبنادق ليتقاتلوا ويأخذوا هم العبيد ، ولا يزال يمدهم بالسلاح ليتقاتلوا ليأخذ منهم ما تبقى من ثروات القارة .

لا بد أن يعترف الغرب بدوره الكبير في تجارة الرقيق ويعوض الأفارقة عن هذه الجريمة البشعة التي لا مثيل لها في التاريخ البشري تعويضاً عن النفس التي أزهقت أو دمرت وعن الأضرار المعنوية التي لم تصب العبيد وحدهم ، وإنما أصابت أبنائهم وذريتهم من بعدهم .

(١) مجلة نيو أفريكان New African عدد مارس ٢٠٠٥م - ص ٥٠ .

ثانياً: المشاركة التجارية ومقاومة الإفريقيين

الحقيقة أن الملوك والمؤسسات الحاكمة في إفريقيا فشلت في حماية رعاياهم من الأسر، ولم يستطيعوا تغادي التفكك والدمار الاجتماعي الذي أحدثته تجارة العبيد عبر البحار. ويبدو أنه لم تكن فرص النجاح مطروحة أمامهم قط كما لم يكن أمامهم خيار في أن يستطيعوا الاعتماد عن التجارة الأوروبية بجملتها ولا أن يقاوموا المطالب الأوروبية، وقد حاول وكافح بعض الحكام الإفريقيين إلغاء تصدير العبيد ولكن هذه المحاولات كانت دائماً غير مجدية.

لم يكن أفونسو الأول ملك الكونغو هو الحاكم الوحيد الذي حاول أن يزيح نير العبودية، يذكر تقرير صويدي أن ملكاً إفريقياً في السنغال أصدر قانوناً يمنع فيه مرور العبيد عبر أراضيه، ولكن هذا الإجراء لم يأت بنتيجة لأن الزوارق الفرنسية كانت تذهب إلى ساحل آخر عند نهر السنغال، وقد طلب الفرنسيون من الملك العدول عن هذا القرار لتسهيل مهامهم في نقل العبيد وقدموا إليه الهدايا ولكن الملك رفض هداياهم وقال إن أموال الشركة كلها (شركة السنغال الفرنسية) لن تحيده عن قراره، ولم يجد الفرنسيون أمامهم إلا الائتلاف بعيداً عن أرض السنغال.

ولناخذ داهومي مثلاً هذه الدولة الدنموية التي كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التي قامت على أساس علاقات التبادل للعبيد بالبنادق واشتركت مشاركة فعالة في اصطلياد العبيد والاتجار بهم، حاولت في بداياتها أن تحمي رعاياها وتدرأ عنهم اقتناصهم بغزو جيرانها وأسر أهلهم ومبادلتهم بالبنادق ووجدت في ذلك الحل لإخضاع جيرانها الأعلى وحماية شعبها. وهي وإن أنقذت رعاياها فقد كان ذلك على حساب الإفريقيين الآخرين وأسهمت بذلك في نمو التجارة الإجمالية للعبيد.

ففي عام ١٧٢٧م عند غزو الأوروبيين لساحل العبيد (ساحل غينيا) أسر ملك داهومي ضابطاً إنجليزياً وحاول عن طريقه أن يقلل من أثر تجارة العبيد التي كان يعاني شعبه منها معاناة مخيفة، فعامله بكرمه وسمح له بأن يعود إلى إنجلترا وأعطاه ٣٢٠ قطعة من الذهب و ٨٠ عبداً، وطلب منه أن ينقل إلى سادته أن الأهالي مستعدون أن يبيعوا أنفسهم له بشرط ألا يحملهم بعيداً عن بلدهم. ولكن هذا الاقتراح لم يجد

استجابة في لندن لأن المستثمرين هناك لم يكن لهم مصلحة في أن يشتروا العبيد
ليستخدموهم في غرب إفريقيا.

ولكن أرقام التجارة في ذلك الوقت شهدت انخفاضا عندما استطاعت مملكة
داهومي أن تسيطر على مراكز التصدير الفعلية في ساحل العبيد. وعندما امتدت
داهومي إلى الساحل وصارت على اتصال بالتجار الأوروبيين كان التصدير السنوي
منها يبلغ نحو عشرين ألفا مقتصر في السنة، فانخفض بعد ذلك بشكل حاد ولم
يعد كما كان عليه من قبل حتى أن الحاكم البريطاني كتب يقول إن أكبر عدد صار
يرسل من داهومي مع محالك صغيرة أخرى لا يتجاوز ٥٥٠٠ عبد، في هذا الوقت
كان تسليم العبيد الإجمالي من إفريقيا بدأ في التناقص لذلك لم يعد ساحل العبيد
يستحق اسمه هذا^(١).

ظهرت دولة الفون مثل جارتها العدو اللدود داهومي في القرن السابع عشر،
وجاهد شعبها على إقامة دفاع ذاتي لنفسه ضد هجمات تجار العبيد وضد جيرانه
الشرقيين، ولا شك أنهم كانوا مهتمين أكثر بالدفاع عن أنفسهم في مواجهة الهجمات
التي تأتي من الشاطئ، وكلما كان ملكها يجد عجزاً في تقديم العبيد لتجار الساحل
المستبدين كان يسير جيشاً للحصول عليهم من جيرانه في داهومي بالذات التي كانت
تدافع عن نفسها بكفاءة بقدر ما كانت تستطيع أن تحصل على الأسلحة النارية
والذخائر، ولم يكن ذلك إلا بتبادل السلاح بالعبيد، ومن ثم فإن قوة داهومي لمقاومة
الفون - التي كانت نفسها خاضعة لذات الضغوط - كانت تعتمد على تسليم العبيد
للساحل، ولم يكن ثمة بديل لذلك إلا باسترقاق الآخرين لشراء الأسلحة النارية أو أن
يخاطروا هم بأنفسهم بأن يسترقوا، هذه في الحقيقة كانت الآلية الداخلية للعلاقة
الإفريقية الأوروبية بالنسبة للعبيد. وقد دفعت داهومي كما دفعت غيرها من الدول إلى
الانغماس بشكل كامل في موضوع العبودية. لم تكن ثمة دولة بمفردها تستطيع أن
تعيش بأمان أو حتى تتمكن من أن تقف بعيداً عن هذا الاتصال وهذه العلاقة التجارية
بين العبيد والبنادق، وأن داهومي رغم اعترافها المبني في البداية انجذبت إلى هذه
السلسلة المدمرة لتجارة العبيد والتي ترتبط في حلقة مفرغة بين السبب والنتيجة.

(١) المرجع السابق P. 241 The African Slave Trade.

كان أمن القون يتوقف على رغبات ومتطلبات مدن الساحل ، وأصبحت القون هي الحليف القوي لنشطاء الساحل الذين كانوا يدركون قوتها فكانوا يشجعونها ويدافعون عنها ويغرقونها بالسلاح . ووجدت داهومي أن اغتصاب القون لها والعدوان عليها أصبح لا يحتمل خاصة وقد رفض القون أن يسمحوا للداهومي أن تباع من تقنيهم للأوروبيين مباشرة وأصرروا أن يكون البيع من خلالهم وهذا هو السبب المباشر الذي جعل الملك الرابع للداهومي «أجاجا - Agaja» أن يخوض حرباً ناجحة ضدهم سنة ١٧٢٧م وسيطر على مدنتهم . وهناك على الشاطئ أقامت داهومي صلات مع تجار العبيد من الدول الأوروبية المختلفة ومع البرازيل وبادلت بالعبيد البنادق والمدافع التي صارت بها داهومي قوة لا تقاوم بالنسبة لجيرانها من الدول الإفريقية .

صارت داهومي مع الوقت أوتوقراطية عسكرية واستفادت من هذا الوضع في ذروة تجارة القرن الثامن عشر ، وصدرت مصانع برمنجهام (بإنجلترا) إلى إفريقيا ما يراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألف بندقية في السنة ، وكانت المأثورات التي تتردد على الأقل على الألسنة تؤكد أن بندقية من برمنجهام تساوي عبداً من الزنوج . وكان هذا القول يمثل مأثورات أكثر منه مقولة حقيقية لأن التجار الأفارقة نادراً ما كانوا يبادلون زنجياً ببندقية فقط كانوا يطلبون بضائع أكثر ، ولكن هذه العبارة تبقى صحيحة بشكل ما لأن السلاح الناري صار غير ممكن أن يستغنىحكام إفريقيا عنه في تجارة ساحل غينيا .

إن كميات ضخمة من الأسلحة النارية تدفقت على إفريقيا الغربية خلال فترة تجارة العبيد ، وقد أسف التجار الأوروبيون في الساحل من هذا الفيض من الأسلحة ؛ لأن شركاءهم الأفارقة استقوا بها في عمليات المساومة مع هؤلاء التجار ولم يكن لدى التجار ما يصنعونه . وبالنسبة للإفريقيين فقد انجذبوا إلى هذه السلسلة من الأفعال والتسائح . . فمقد كان يجب أن يكون لديهم عبيد ليشتروا بهم السلاح ولكي يكون لديهم عبيد كان عليهم أن يمسكوا بالسلاح ويتبادلوا بالعبيد البنادق .

كذلك لم يكن التجار الأوروبيون على ثقة ببعضهم لكي يتعاملوا وفق سياسة عامة مشتركة ، وكما لوحظ في حصون المينا في ساحل الذهب أن الأوروبيين لا يمكن أن يتحدوا وأن كل أوروبي كان يشعر بالالتزام بأن يبيع الإفريقي ما يريد حتى لا يحصلوا عليه من منافسه إذا رفض هو . وكان الإفريقيون على الحالة نفسها وخاصة في ذلك

ولكن بعضهم كانوا يجدون القدرة على أن يتوحدوا لتطبيق المقاطعة بالنسبة لشركائهم الأوروبيين . وقد صارت داهومي مشهورة في أعين الأوروبيين بالسلطة الأوتوقراطية التي كانت لحكامها وقد تجاوزت الطابع العام لتنظيم الدولة الإفريقية فصارت أكثر قدرة على الحرب وصارت قوة مسلحة ، وكان من النادر أن تكون في سلام مع جيرانها الذين كانوا يغزون داهومي بشكل منتظم وتغزوهم داهومي بشكل منتظم أيضاً ، وقد حاربت معركة طويلة لاستعادة قاعدتها الساحلية ؛ حيث كانت المدن البحرية تؤمن نفسها بمساعدة الأوروبيين .

إن التجار الأوروبيين كانوا يخضون قوة داهومي ، وكانوا يأسفون على أن المدن الساحلية فقدت استقلالها ولكنهم كان لديهم احترام لمنجزات داهومي . وبصرف النظر عن موقفهم القاسي من الحياة الإنسانية الذي لم يكن نادراً في القرن الثامن عشر فإن ملوك داهومي قد فعلوا أحسن ما عندهم في إطار خيارات أكثر قسوة . إن الأوروبيين كانوا يقذفون بالعبيد أحياء في الأطلنطي بواسطة قباطنة سفن العبيد للتضحية بهم قرباناً لإله الرياح ، وكان تعداد هؤلاء أكثر من كل ما قطع ملوك داهومي رؤوسهم . إن أحد تجار العبيد من ليبربول في سنة ١٧٨٣م ألقى بـ ١٢٢ من على ظهر السفينة وهم أحياء لأنهم كانوا ضعافاً أو غير قادرين على البقاء والعمل ، وقال إن هؤلاء العبيد يجب أن يموتوا مبرراً ذلك بأنه إذا مات العبيد موتاً طبيعياً على ظهر السفينة سيكون فقدهم على حساب الطرف الآخر شركات التأمين لذلك فقد قذف بهم قبل أن يموتوا لديه ، وأنه في حالة ما إذا طلب الملاك بما يقابل هؤلاء العبيد ورفض المؤمن فعلى الملاك الذهاب إلى المحكمة للحصول على التعويض . إن حكام داهومي إذا كانوا يذانون في الإسراف في قتل الناس إلا أنهم كانوا يواجهون بشجاعة كل ما يترتب على حروب البنادق مع القون جيرانهم الأعداء وحماية أهاليهم من الاسترقاق ، كانت دولة لها قانون ونظام لم تكن عظيمة ولكن كل العالم وقتها لم يكن كذلك . وإذا كانت مملكة داهومي العسكرية كانت نتاج العلاقات الإفريقية الأوروبية التي كانت تقوم على أساس علاقة التبادل بين العبيد والبندق فإن مصيرها النهائي كان متوقفاً على تطور الضغوط الأوروبية ولما ختلفت السياسة الأوروبية في القرن التاسع عشر وتحولت من التجارة في العبيد

وتصديرهم. إلى الرغبة في فتح القارة الإفريقية وحكمها واستثمارها، وجدت داهومي نفسها تواجه معركة جديدة للسيطرة الاحتكارية لم تعد مع الأفارقة ولا مع المراكز التجارية ولكنها صارت تواجه القوة القاهرة لأوروبا، وشيئاً فشيئاً وجدت الدول الأوروبية نفسها في دولة داهومي شريكاً تجارياً أقل فائدة كما وجدت عقبة في عرقلة الطموحات الأوروبية للاستيلاء على الأراضي. وبالنظر إلى تطور الإمبريالية الأوروبية والفرنسية خاصة في هذه الحالة فإن المواجهة صارت لا يمكن تفاديها خاصة بعد أن كان ملك داهومي الرابع قد سيطر على مدن الساحل منذ سنة ١٧٢٧م وبدأ أنه قادر على السيطرة عليهم.

إن التهديد الجديد لاستعمار الأرض كان بطيئاً في بداية تصاعده، ولم تستطع فرنسا أن تحصل على موطئ قدم على الساحل قبل سنة ١٨٥١م عندما أقامت محمية لها في مدينة تجارية في «بورنو نوو» - *Bornu Novo*. ولم يحدث قبل عام ١٨٨٨م أن تبادلت داهومي وفرنسا الكلمات ولكن بعد هذا التاريخ قامت المواجهة بينهما وجلب ملك داهومي الأسلحة من ألمانيا في حين أنزلت فرنسا ألفين من الرجال في بورنو نوو لغزو البلاد وهزمت جيش داهومي في سنة ١٨٩٢م. وأعلنت داهومي مستعمرة فرنسية بعد ستين فقط.

إن هذا الانتقال من المشاركة التجارية إلى الغزو الأوروبي حدث في مناطق أخرى، وهو مرحلة جديدة في العلاقات الإفريقية الأوروبية، ويمكن متابعتها مع البريطانيين في شاطئ ساحل الذهب وفي غابات الأشانتى، وهناك أيضاً دول إفريقية حاولت أن تستغل علاقات العبيد بالبندية لبناء مناطق آمنة حولها، ولكنها وجدت نفسها مواجهة بالسياسة الأوروبية الجديدة لاحتواء الأرض فلم تستطع أن تقاوم هذا الأمر.



ثالثاً، مقارنة بين الرق الأوروبي والرق العربي

فى فبراير ٢٠٠٣م عقد فى جوهانزبرج بجنوب إفريقيا مؤتمر بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد فى إفريقيا» نظمه مركز الدراسات المتقدمة للمجتمع الإفريقى «كاساس Casac» بالتعاون مع مؤسسة «دراما - Drammeh». كان الباعث لعقد المؤتمر كما جاء فى ديباجة برنامجه أن الدور الأوروبى لمباشرة الرقيق عبر الأطلنطى معروف أما الحقيقة الخاصة بمباشرة العرب لعبودية الإفريقيين بقيت منطقة مشمولة بالصمت والظلام فى الوعى الإفريقى وغير الإفريقى المتعلق بالمجتمع الإفريقى والتاريخ الإفريقى. وقد زاد من الحقيقة المؤلمة لهذا التاريخ أن العبودية بقيت للوقت الحاضر فى مناطق الحدود العربية الإفريقية وهذه المناطق تشمل الطريق الطويل فى إفريقيا الممتد تقريباً من خط عرض ٣٠ شمالاً إلى خط عرض ١٠ شمالاً عبر القارة الإفريقية وخاصة موريتانيا والسودان.

واستهدف المؤتمر التركيز على أن تجارة الرقيق والاسترقاق كانت جريمة العرب دون سواهم متغاضبين عن حقيقة أن الأوروبيين مارسوا تجارة الرقيق أكثر من أربعة قرون تعرضت القارة خلالها لعملية استنزاف بشرى أدى إلى إضعاف تماسكها مما سهل مهمة الحركة الاستعمارية فى السيطرة عليها. وإذا كان كل من العرب والأوروبيين عملوا فى تجارة الرقيق فإن التساؤل هنا يكون فى كيفية معاملة واستغلال الرقيق وفى مسئولية نزوح تلك الأعداد الضخمة من مواطنها الأصلية.

إن الفرق بين الرق فى العالم العربى والرق فى العالم الغربى أن العرب لم يمارسوا تجارة الرقيق بشكل جماعى ومنظم ومؤسس كما مارسه الأوروبيون، وأن الرقيق الذى جرى به إلى المنطقة العربية عاش فى الأسر العربية وعومل حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ولم يستغل فى عمل قاس أو مشروع اقتصادى لا يقوم به سيده؛ فالعبيد وأسيادهم يشتركون فى الأعمال، ولم يسجل التاريخ أى عملية إبادة جماعية للرقيق أو تعذيبهم أو إذلالهم بطريقة بشعة أو نقلهم بصورة جماعية فى ظروف قاسية، وكان فى الغالب يتم استخدامهم بشكل فردى كخادم فى المنازل أو مساعدين لأسيادهم فى مزارعهم أو فى غير ذلك من الأعمال التى يقومون بها.

وإن حسن المعاملة للعبيد في المنطقة العربية جعل عددًا كبيراً من العبيد يتميزون بالنبوغ في العلوم والفنون، ووجد بعضهم طريقاً إلى القيادة والنفوذ والسلطان.

والتاريخ الإسلامي يسطر لنا أخبار كثير منهم، وعلى سبيل المثال:

● أسامة بن زيد الذي قاد جيوش المسلمين بجندارة، وكان من عيته هو الرسول ﷺ قبل وفاته.

● الإمام نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب وكان من الثقات في رواية الحديث الشريف وأهم مرجع في قراءات القرآن.

● رابعة العدوية التي كانت أبة في النسك والزهد^(١).

● قطب الدين أيك مؤسس سلالة المماليك أولى سلالات سلطنة دهلي.

● الأديب المشهور «الجاحظ» عالم الأدب والبيان.

ذلك فضلاً عن المماليك البحرية الذين صدوا المغول في عين جالوت.

كان الرق يشكل عند العرب نظاماً اجتماعياً في الأساس، وكان سوق الرقيق في العالم العربي محدوداً وسهل التشيع إذا ما قورن بسوق الرقيق الغربي، كما أن التبادل التجاري بين العرب والإفريقيين في سواحل شرق إفريقيا، لم يكن يجلب العبيد والنخاسين وإنما كان يجلب أيضاً الرخاء الاقتصادي والازدهار الحضاري الذي ظهر في العديد من المدن والممالك والسلطنات العربية والإفريقية على طول سواحل شرق إفريقيا، كذلك نتج عن التجارة العربية عبر الصحراء نشوء العديد من الممالك والحواضر الإسلامية مثل تمبكتو ومالي وصنغاي وكانم وبرنو وغيرها. وبينما تحارة الرق العربية كانت تقوم على جهود فردية فإن تجارة الرقيق الأوروبية اعتمدت على تأسيس الشركات والمراكز التجارية وبناء القواعد العسكرية التي ضيققت الخنادق على القارة، وأصبحت تلك التجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاحت أوروبا في القرن

(١) المرجع السابق - المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» - الكتاب الثامن بحث د. محمد آدم كلبو ص ٣٥١-٣٥٢.

الرابع عشر فقضى على ما يقرب من ثلث سكانها بل كانت نتائجها الاجتماعية ورواسبها النفسية أقسى من ذلك الوباء الأسود الذى انقضى وانقضت معه آثاره^(١).

اتخذت تجارة الرقيق الأوروبية مساراً عرف بالثلث التجارى حيث تبحر السفن من أوروبا إلى إفريقيا عبر الممر الأوسط فى المحيط الأطلنطى وتزود بحمولتها من الرقيق من إفريقيا لتعرضه للبيع فى أمريكا وجزر الهند الغربية وتعود إلى أوروبا محملة بالسلع مثل السكر والقطن والتبغ. وقد شكل سكان غرب إفريقيا ثلثى ضحايا تجارة الرقيق، قدمت منطقة غرب إفريقيا ثلاثة أخماس الرقيق المصدرين سنة ١٧٠١ - ١٨١٠م إلى أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبى والمستعمرات البريطانية فى شمال أمريكا ووسطها. ومع بداية القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر أصبح خليج بيافرا بنيجيريا هو أهم مصدر للرقيق المنقول إلى أمريكا.

استخدم التجار الأوروبيون أساليب مختلفة للإيقاع بضحاياهم من بينها الخداع واستدراج الأفارقة للسفن ثم الإبحار بهم، وأحياناً كانوا يخطفون المارة من الشوارع والأطفال من المزارع حين يتركهم أهاليهم لحراسة المحاصيل. ثم اعتدى التجار إلى طريقة تؤمن لهم أعداد كبيرة من الرقيق وذلك عن طريق تشجيع الممالك الإفريقية فى الدخول فى حروب ضد بعضهم البعض وبيع الأسرى لهم. وأغروا الممالك التى خاضت حروباً وهزمت فيها أن تنتقم من قاهريها وزودوهم بالسلاح مقابل أن يبيعوا أسراهم لهم، والشحن المزد من السلاح ومن يرفض التعاون من الخكام كان يتعرض هو وقبيلته للاسترقاق من مملكة منافسه بإيعاز التجار. ويعتقد أن ثلاثة أرباع الرقيق الذين انتزعوا من أوطانهم هم نتاج حروب محلية أثارها أطماع الدول الأوروبية وتمت بناء على مخططاتها^(٢).

وكان من نتائج تجارة العبيد الأوروبية أن تعرضت مناطق شاسعة فى غرب إفريقيا ووسطها لعملية تهجير قسرية مما أدى إلى فراغ قرى كاملة من سكانها بسقوطها

(١) سيمار قسم التاريخ كلية الآداب - مرجع سابق ص ٢٣ / د. جمال زكريا قاسم.

(٢) المرجع السابق - المؤتمر الدولى «الإسلام فى إفريقيا» الكتاب الحادى عشر بحث د. ميمونة حمزة ص ١٦٢ - ١٦٥.

ضحايا لتلك التجارة، كما حدث اختلال كبير في الخريطة السكانية؛ إذ هربت القبائل الساحلية هجرات جماعية للداخل فراراً من حملات التجار فاكتظت المناطق الداخلية بالسكان بينما ضعفت البنية البشرية للسواحل فخسرت مقومات التصدي لأي خطر يمكن أن تتعرض له القارة. وقد اتضحت هذه الحالة عندما حدث تحول في إستراتيجيات الغرب الاقتصادية إلى إحلال نشاط استعماري جديد محل تجارة الرقيق فجاءت الأساطير لترسو في الموانئ دون مقاومة تذكر لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة بين إفريقيا والغرب.

إن تجارة الرقيق الأوروبية لم تسع فقط إلى استغلال اليد العاملة الإفريقية بدون مقابل إنما سعت إلى استرقاق العقل الإفريقي ووجدانه من أجل تهيئة سبل السيطرة والاستعمار وخلق حالة من التبعية الدائمة فكرياً وثقافياً واقتصادياً.

لقد استرقت تجارة الرقيق عقول الأفارقة، كانت بركاناً معنوياً هز وشق الوجدان الإفريقي وحطم المعنويات وسلب العقول وجرد الإفريقي من قدراته التفكيرية وثقته في عقله وذاته، ومهد الطريق للاستعمار العسكري فيما بعد، وخلق حالة من التبعية الدائمة للغرب فكرياً وثقافياً واقتصادياً، وحرص الاستعمار أن يخلق الإفريقي من ماضيه فكان لا يجمع في مكان واحد رقيقان يتكلمان لغة واحدة أو يرتبطان عقيدة واحدة؛ لأن عزل الإفريقي عن ماضيه كان أساس حياة الرق. وقد أدت هذه السياسة إلى استرقاق العقل الإفريقي وتسخيره وتمهيده للاستعمار الدائم والمستمر وخلق حالة من التبعية الفكرية جعلت القابلية للاستعمار أمر محتم.

وقد حرص الاستعمار الأوروبي والهيئات التبشيرية منذ أن وضع أقدامه في القارة الإفريقية على إزاحة العناصر العربية ومحاربتها لأنه اعتبرها عائقاً أو حائلاً دون الانفراد بإفريقيا خاصة بعد أن توطدت الصلات الاجتماعية عبر التجارة بين العرب والأفارقة، وعمل على إضعاف الصلات القوية بينهما عن طريق الإيحاء الدائم للأفارقة بأن العرب هم أرباب النحاس وهم تجار الرقيق الذين ساقوا أجدادهم بالسياط، واستعانوا بالمناهج المدرسية لترديد هذه التهم وترسيخها في ذاكرة الأفارقة

من أجل إبراز دور المسلمين في تجارة الرقيق، ولا يزال بعض الأفارقة يعتقد ذلك ويحمل العرب المسئولية تجارة الرق^(١).

ولعل ما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن الدول الاستعمارية وعلى الأخص بريطانيا استغلت تجارة العرب في الرقيق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكي تتغلغل استعماريًا في القارة بدعوى القضاء على تلك التجارة في مصادرها الداخلية، ومن ثم أخذ الرحالة الأوروبيون يحولون من تجارة العرب في الرقيق ويشنون على الجهود الأوروبية التي حولت الرق الفردي إلى رق جماعي متمثل في استغلال الإفريقيين في المزارع والمناجم والغابات تحت وطأة العمل الإجباري بالسخرة الذي هو الاشتقاق بعينه.

لا جدال أن الرق في الدول الإسلامية كان مختلفًا، كان ابن الجارية من رجل حر يصبح حرًا ومن ثم فإن الجوارى اللاتي كن يشكلن العنصر الرئيسي في تجارة الرق إلى الشرق الأدنى كان يتم امتصاصهن بسهولة في النسيج الاجتماعي. لذلك لم يصبح الرقيق مشكلة اجتماعية في الشرق الأدنى أو في شمال إفريقيا؛ لأنهم كانوا يستخدمون أساسًا إما خدماً في المنازل أو جنوداً في الجيش أو موظفين مدنيين. وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق الأبيض القادمين من البلقان والقوقاز، كذلك لم يظهر قط في أي من هذه البلدان شعور بأن الإسلام يستحل اشتقاق الزنوج بوصفهم العرقى^(٢).

ومن السمات المميزة الأخرى للرق في الشرق الأدنى هو أنه كان أساسًا أحد مظاهر البذخ، بيد أنه في الأمريكتين كان له أساس اقتصادي مختلف تمامًا؛ فالرقيق كانوا يجلبون أساسًا للعمل في المزارع التجارية، لذلك فالزنوج في الشرق امتصوا في السكان المحليين إذ لم يكونوا يشكلون مجموعة عرقية، كما أن اعتناقهم للإسلام كان يساعد على حل مشكلتهم الاجتماعية.

(١) المرجع السابق - المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» للكتاب الثامن بحث د. محمد آدم كبير ص ٣٦١-٣٦٧.

(٢) الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطوريات الزنجرية في غرب إفريقيا ب. مدهوبانيكار ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بليغ - المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٥ م - ص ٢٢.

شهد رونالد سيجال في كتابه «تاريخ الرق في إفريقيا» شهادة صدق في حق العرب والإسلام بالنسبة للرق، وعقد مقارنة بين الرق في المسيحية والرق في الإسلام قائلاً: «إن كلاً من المسيحية والإسلام يؤكد قيمة الإنسان الفرد كما خلقه الله سبحانه لحكمة يدركها، ومع ذلك فإن المجتمعات المسلمة والمسيحية ولأغراضهم الخاصة أقرروا بالأسر الإفريقي الأسود وبيعه وامتلاكه واستخدامه سواء كان هذا الإفريقي رجلاً أو نساء أو أطفالاً. إن الخسائر البشرية في هذا الفعل لا يمكن أن تقدر، ومن المؤكد أن ملايين الأرواح فقدت في الحروب والغزوات التي أسفرت عن اقتناص العبيد وأن ملايين ماتوا في عملية تجميعهم ونقلهم وغير ذلك.

لقد وجدت الإحصاءات الغربية الخاصة بتجارة الرقيق عبر الأطلنطي الذين شحنوا في القوارب والسفن ومن بقوا على قيد الحياة ووصلوا إلى شواطئ الأمريكتين. وبحث، والكثير من الحقائق عن نسبة القتلى منهم صارت معروفة سواء بسبب تحملهم جهداً فوق الطاقة أو من قلة الطعام أو من التقبيد بالسلاسل، فتجارة الأطلنطي واقتصادياتها سجلت وثبتت في السجلات بكل تفاصيلها.

وعلى خلاف تجارة الأطلنطي كانت التجارة الإسلامية تقوم في نطاق مختلف وفي سياق مختلف، بدأت قبل ذلك بنحو ثمانية قرون وجدت في نطاق ومعدل وحجم أقل، وكانت الأهلية الاجتماعية والثقافية للعبودية نفسها في الإطار الإسلامي أوضح من أهميتها الاقتصادية. ومن المؤكد أن التجار ورجال المال في الإسلام باعتبارهم مستثمرين أفراداً أو اعتبارهم شركاء في مشروعات استثمارية كانوا متصلين بهذه التجارة ولكن ما سجل عن ذلك كان متناثراً وقليلاً، وهناك أيضاً العديد من المتعاملين الصغار في هذا المجال مع مجموعات قليلة من العبيد ولكن ما بقي من معلومات عنهم قليل جداً.

ولكن يمكن إدراك الخلاف بين هذين النوعين من تجارة الرقيق الأوروبية والتجارة الإسلامية من خلال النظام الاقتصادي الذي جرت في سياقه. اختلف المؤرخون حول الدرجة التي أسهمت فيها تجارة الأطلنطي في تنمية الرأسمالية الغربية وثورتها الصناعية بدءاً من القرن الثامن عشر، ولكنهم لم يختلفوا حول أن الأرباح الطائلة التي ولدتها

تجارة الرق قد استثمرت في تطوير الصناعة، وأن عددًا كبيراً من الصناعات تطور ليمد هذه التجارة بالسلع المطلوبة، وأن العبيد كانوا يشكلون وحدات أساسية في العملية الإنتاجية بصرف النظر عن مدى الاعتراف أو الإنكار لإنسانيتهم.

إن النظام العبودي في المزارع الذي ظهر في الأمريكيات الثلاث الشمالية والوسطى والجنوبية كانت له نتائج الرهيبة؛ فالذي حدث أن الاستعمار الأوروبي لمستعمرات كثيرة هناك أدى إلى زيادة جماعية للأهالي، ونتيجة الأمراض الجديدة الواحدة وبسبب العمل الشاق الذي أجبروا عليه ظهر احتياج شديد لعمالة أخرى ترد من الخارج للقيام بالأعمال الزراعية.

أما نظام الرق في الإسلام فكان مختلفاً تماماً، استخدم الرقيق في قطاع الخدمات مثل المحظيات وأعمال المنازل والجنود. ذلك أنه في المجتمعات الإسلامية كانت الزراعة وشئون الإنتاج تجري في المجتمعات بواسطة ما بها من سكان تابعين في أوطانهم ومجالات إنتاجهم، فلم يكن الإنتاج وشئونه يحتاج إلى رقيق يشتركون للقيام بهذه الأعمال، لذلك كانت العبودية ذاتها وفي الأساس شكلاً من أشكال الاستهلاك أكثر من كونها شكلاً من أشكال الإنتاج أو هي تنتمي إلى قطاع الخدمات أكثر من دخولها قطاع الإنتاج. وإن أكثر ما يعبر عن ذلك هو نسبة الذكورة والأنوثة بالنسبة للعبيد، في تجارة الأطنطى كان الشحن فيها يمثل بشكل تقريبي رجلين مقابل كل امرأة واحدة، وفي التجارة الإسلامية عبر القرون كانت النسبة تقريباً امرأتين في مقابل كل رجل للاحتياج إلى النساء لخدمة المنازل.

إن الاختلاف بين نوعي التجارتين يتعلق بطبيعة الدولة في الإسلام كشيء متميز عن المسيحية الغربية، وفي الحقيقة فإن لفظ المسيحية (رغم أنه يبقى عقيداً في إدراك الفروق) صار في الواقع لفظاً لا يعكس الدلالة الحقيقية بالنسبة للدول التي يقال إنها مسيحية؛ لأنها صارت مع الوقت دولاً قومية وصارت صبغتها علمانية. أما في الإسلام فإن الدولة في جوهرها امتداد للعقيدة ولا توجد شرعية تتجاوز ذلك، وطبيعة المجتمع في الإسلام تشكل بوجود الإرادة الإلهية كما عبر القرآن. وقد عالج القرآن

بشيء من التفصيل موضوع العبيد وحث على مشاعر الرحمة تجاههم وإن العبيد يجب أن ينظر إليهم ويعاملوا بوصفهم أناساً وليسوا مجرد ممتلكات .

ليس المقصود رسم صورة وردية لظروف العبيد؛ فالعبد هو العبد في كل الأحوال، وللملاك سلطة على عبيدهم تجعل القليلين منهم فقط هم من لا يسيئون استخدامها حتى في المسائل البسيطة التي وإن قل ضررها فهي تفيد الأذراء بالنسبة لوسائل المعاملة، وحتى السادة الذين يتميزون بالشفقة وحسن المعاملة يستغلون المحظيات من الجوارى جنسياً بما يشكل انتهاكاً لأدبيتهن . وفي حالة الخصيان يقدر أن تكون العبودية في الإسلام أكثر رحمة منها في الغرب فالذين يشترون العبيد الخصيان يعتبرون مشاركين لمن يرتكبون هذه الفعل، ومع ذلك فإن معاملة العبيد في الإسلام في الجملة كانت أكثر رحمة ويرجع ذلك في شطر منه إلى أن القيم والتوجهات التي تركيها العقيدة تولد نموذجاً من شأنه أن يكبح التطورات التي يتركها الطراز الغربي الرأسمالي بما يتضمنه من إخضاع الناس إخضاعاً شديداً لقانون الربح وما يفرضه من أولويات . وقد كان الحاسم في المجتمع الإسلامي أن هؤلاء الذين يخدمون الإيمان سواء بالعلم أو بالسلاح يمتنعون بمركز اجتماعي يفوق من تنمو ثرواتهم من خلال الاستثمار الاقتصادي . وفي حين أن التجارة مقبولة بوصفها ضرورة اجتماعية ونافعة اجتماعياً فإن الحصول على الثروات بالمضاربة أو بغيرها ولو على حساب رفاهية الجماعة لا ينظر إليه بريئة فقط ولكن يمكن أن يواجه بعقاب صارم . إن الإسلام يحظر الفائدة والربا ورغم أنه ممنوع أيضاً في العهد القديم (التوراة) إلا أنه في الغرب استخدم اليهود الربا وزاد استخدام المسيحيين له في المشروعات الاقتصادية . إن أثر الإسلام الناجح في مواجهة العنصرية كشكل من أشكال التمييز المؤسسي بين الشعوب كان فعلاً وكان القرآن يدين العنصرية ويؤكد في الأساس المساواة بين البشر بصرف النظر عن الانتماء القبلي والقومي . وفي الغرب فإن المشروع الاقتصادي ونمو الدولة العلمانية دعم كل منهما الآخر وبلغ ذلك حد تنحية أي رسائل وتعاليم روحية تتعلق بالرحمة بين الناس . إن النظام العبودي كان غير ملائم قطعاً للعالم المسيحية وقد حل محله نظريات علمية تؤيد الموقف من السود .

إن المسيحية قامت بدور مهم في المعارضة التي قادت بها بريطانيا ضد تجارة الرقيق وضد العبودية ذاتها. وكثير من دعاة إلغاء تجارة الرقيق كانوا يأخذون التعاليم الدينية بجدية، ومع ذلك فإنه من المشكوك فيه أنهم كانوا ينجحون بغير تأييد الرأسماليين الصناعيين. إن العمالة تخطت الأوضاع التي كان العمل العبودي فيها يفيد زراعة الأرض إلى أوضاع صار الإنتاج الألى فيها أكثر جدوى. إن صرخة حرية التجارة كانت تقود صرخة حركة أخرى هي حرية العمل التي يمكن بريطانيا من أن تتبوأ مكانة القيادة الصناعية وأن توسع أمامها مجالات الأسواق الجديدة ومن بينها السوق الإفريقي الذي يمكن أن يجذب السلع البريطانية. ومع الوقت فإن هذا المزج بين الدعاوى الروحية والحملات الاقتصادية سيطر على الدولة، ومن ثم صارت الطاقة المالية البريطانية مع النشاط الديبلوماسي مع قوة الأسطول البحري مما جعل أيام العبودية أياماً محدودة. إن العنصرية بقيت بعد انتهاء العبودية وإذا كانت العادات القديمة تنقضي فإن ثمة أسباب تجعل هذا الوعي يستمر ويقوى بدلاً من أن يضعف. إن القوة الاستعمارية قد وسعت من نشاطها في جميع أنحاء العالم ووجدت مبرراً معنوياً لذلك في مفهوم يتعلق بمسئولية الرجل الأبيض مع ما يفترضه هذا المفهوم من اعتبار الأجناس والأعراق السوداء والملونة هي أجناس وأعراق بدائية^(١).

وهناك وجه آخر للمقارنة بين أوروبا وإفريقيا بالنسبة للعبيد والعبودية، يكمن في معاملة من يقتنص. ففي إفريقيا كان العبيد في الغالب يبدون صمودهم على سلم التحرير من أدنى وضع، ولم يكن هذا مختلفاً كثيراً بالنسبة لمن كان يقتنص ويجلب من إفريقيا إلى إسبانيا والبرتغال قبل القرن الخامس عشر قبل أن يزول الحكم الإسلامي عن الأندلس (كان الإفريقيون والعرب البربر «المركشيون» يسيطرون على شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) منذ سنة ٧١١ حتى عام ١٤٠٠م). فالكثير من العبيد الإفريقيين في الأندلس كانوا يتمتعون بمعاملة خاصة ممنوحة لهم من السلطات، وكان القاضي الرئيسي لهم واحداً منهم وممثلاً لهم وكان يعرف باسم قاضي الزنوج. ومع مرور السنين اندمجوا في جيرانهم الأحرار وقدوا ذاتيتهم العرقية.

(١) المرجع السابق ١٢: ٣، *Islam's Black Slaves*.

كان الحال في أوروبا كما هو في إفريقيا أن عبد العصور الوسطى في كلا الجانبين كان من اقتصر يخضع لنظام تبادل بالنسبة للحقوق والواجبات يربطه بالنيل . وأن ما جرى بالنسبة للسلوك الاجتماعي جرى بالنسبة لأخلاقيات التجار أيضاً سواء في أوروبا أو في إفريقيا . إن التجار الأوروبيين باعوا الأتباع من مواطنيهم لدول على الشاطئ الآخر من البحر في مصر وشمال إفريقيا ، وكذلك فإن أمراء إفريقيا المدفوعين بالحاجة إلى شراء البضائع الأوروبية باعوا رجالهم إلى البحارة الذين أتوا من أوروبا . إن من المهم التركيز على هذه النقطة ؛ لأنها الأساس الذي انطلقت منه وتأكدت كل الروابط بين أوروبا وإفريقيا .

يقول بازيل ديفيد سون : بعيداً عن القبول العام لنظام الرق في أزمنة ما بعد العصور الوسطى فقد كان ثمة قبول مشترك لتجارة الرقيق بين القارتين ، فإن إفريقيا وأوروبا ارتبطتا معاً في علاقات هذه التجارة . حقيقة إن أوروبا سادت هذه العلاقة وحولتها إلى ما ينفع الأوروبيين وما يضر بالإفريقيين ، ولكن الفكرة الإفريقية بأن أوروبا فرضت تجارة الرقيق على إفريقيا ليس لها أساس في التاريخ ، فقد كان الإفريقيون يبيعون العبيد وأيضاً كان الأوروبيون يبيعون أبناءهم لذلك من الخطأ القول إن الأوروبيين فرضوا هذا الأمر على الإفريقيين ، ومن الخطأ أيضاً القول إن الأفارقة وحدهم من كانوا يبيعون وليس الأوروبيين ، إنما الفارق أتى من أمر آخر وهو أن هذه التجارة المتبادلة بين الهياكل والمؤسسات للطرفين حدث فيها مثلما يحدث في أي تجارة أخرى من أنها صارت تحقق مصالح الأوروبيين وحدهم وتؤدي إلى خسائر لدى الإفريقيين وحدهم^(١) .

(١) المرجع السابق P. 41-44 The African Slave Trade.

رابعاً: التعويضات عن العبودية

هل من العدل أن يعرض قلة من البشر اضطهاداً عقاباً من الزمان ولا يعرض ملايين اضطهاداً عبر أربعة قرون ؟ وهل اليهود الذين عملوا في معسكرات الاعتقال أيام النازية فترة لا تتعدى عشر سنوات نالوا من التعذيب والإبادة ما لاقاه عبيد إفريقيا في أوروبا والأمريكتين على مدى أربعمائة سنة أو أكثر ؟ هذا هو السؤال الكبير الموجه إلى ضمير العالم ، وهو سؤال يبدأ بثور بشكل جدي لدى العديد من موجهي الرأي العام في البلاد الإفريقية ويجدون من يجادلهم فيه وينكر عليهم حقهم من الدارسين والباحثين الغربيين ، كما يجدون قلة تقف بجانبهم من أصحاب المواقف النبيلة .

إن الغربيين لا يرفضون فكرة تعويض الأفارقة عن حقبة العبودية فحسب بل يسخرون منها ، ويقولون حتى لو شاموا فأين هم أحفاد هؤلاء العبيد ، ولمن تؤدي التعويضات ؟ وكم تساوي حياة الإفريقي ؟ الإجابة ببساطة مثلما يدفع لليهودي يدفع للإفريقي . . . وبهذا القياس تقدر التعويضات بتريليون إسترليني ، أما من يأخذ التعويض فلتكن للمناطق التي سرق منها العبيد ، وتدفع لهذه الدول الفقيرة كحقوق يستردونها لا ديون يذلون من أجلها . إن هذا ما يجب أن يفعله الغرب المتحضر مع تلك الأم التي سرقوها لا أن يكون الرد مثلما قال «جون ميجور» رئيس الحكومة البريطانية الأسبق إنه مستبعد أن يدفع التعويضات بشرط أن يثبت أحفاد الرقيق الأفارقة أنهم لا يزالون يعانون من الرق !!

في يونيو عام ١٩٩٩م وجه المؤتمر اليهودي الدولي نداء ، لمن لا يزالون أحياء من اليهود وأقربائهم ممن نجوا من مذابح النازية ، ليقیموا دعاوى ضد الحكومة السويدية وبنوك سويسرا لمن كانت لديهم أرصدة نهبها النازي أو ممن أجبروا على أعمال السخرة في الشركات السويسرية أو لدى أي ممالك سويسري ، وقدرت هذه التعويضات بمبلغ ٢٥.١ مليار دولار .

وبناءً على هذا النداء إثر إدفاء تقدمت به عجوز يهودية تبلغ من العمر ٨٥ عاماً هي «ميرت» «ميرتا سليبربرج» تعيش في بريطانيا . وادعت هذه السيدة أن لوحة للرسام «فان جوخ»

وقيمتها ٣,٣ ملايين إسرائيلي كان يمتلكها حماها «ماكس سلبربرج» وهو من أثرياء رجال الصناعة اضطر لبيع اللوحة مع ١٤٣ قطعة فنية من مجموعة كان يكتنيها، باع ذلك ليدعم أسرته بعد أن طرده النازي من عمله (يلاحظ أنه باع اللوحة والمقتنيات بمحض إرادته ولم تغتصب منه ولا صودرت، كما أن الأمر هنا يتعلق بأشياء وليس بأرواح بشرية وتدمير حضارى).

وشنت صحيفة التايمز البريطانية حملة صحفية تؤيد الأرملة المعجوزة، فكتبت عدة افتتاحيات تقول: نعم لقضية سلبربرج، وإن القرار يجب أن يكون نعم وإن البحث عن تلك الثروات وتعويض الضحايا عن الجرائم التى ارتكبت فى حقهم يجب أن يشكل ضغطاً أدبياً على أوروبا والولايات المتحدة.

وكأثر مباشر لهذه الحملة الصحفية فبعد ثمانية عشر يوماً من توجيه النداء أعلنت ست عشرة من كبريات الشركات الألمانية (منها سيمنس وكرولاو والبنك الألماني) أنها غطت المطالبات الإسرائيلية، ووعدت هذه الشركات بتكوين رصيد آخر يقدر بـ ١,٧ مليار دولار لأداء التعويضات عن ألف شخص عملوا فى معسكرات الاعتقال ولدى مؤسسات لم يعد لها وجود الآن.

والسؤال: إذا كان ضمير العالم الغربى يعترف بحقوق بقايا يهود النازية ويعاملهم بهذه الإنسانية، فلماذا يتجاهل حقوق مئات الملايين من الأفارقة اختطفوا على مدى أربعة قرون وقذف بهم من بلدان أوروبا والأمريكتين ليعمروها؟ ولماذا تطالب إسرائيل بالتعويض ولا تستطيع إفريقيا أن تفعل ذلك؟

إن هذا السؤال يكتسب مغزى أكبر عندما يكشف حقيقة أن بعضاً من تجار الرقيق والممولين لتجارة الرقيق فى إفريقيا كانوا يهوداً. وهذا ما كشف عنه المؤرخ هيرتوماس فى مؤلفه الضخم «تاريخ تجارة الرقيق عبر الأطلنطى» ونشر فى نوفمبر عام ١٩٧٧م فى ٩٢٥ صفحة، وفيه أبرز ارتباط الصلة اليهودية بهذه التجارة قاتلاً: «إن الحقيقة المجهولة التى يراد لها أن تتجاهل هى أن كثيراً من تجار الرقيق فى القرنين السادس عشر والسابع

عشر في لشبونة (البرتغال) كان يمولهم يهود واليهود المتحولون عن يسمون «المسيحيين الجدد» الذين تحولوا بسبب ضغوط محاكم التفتيش^(١).

ولكن هذا الكلام الذي يلين ويشين الأوروبيين والصهيونية العالمية للسيطرة على زمام عالم اليوم لا يمكن بالطبع أن يتقبلوه بسهولة، وأفضل وسيلة لإبعاد هذه التهم هو قلب الأمور وإلقاء المسؤولية على الأفارقة أنفسهم فهيرتوماس عندما كشف عن دور اليهود واعترف بأن بعض العبيد سرقهم الأوروبيون وبعضهم كانوا ضحايا غارات عسكرية قام بها البرتغاليون لخطف العبيد كما حدث في أنجولا؛ فإنه يوقع المسؤولية على الإفريقيين فيقول إن أغلب العبيد الذين حملوا من إفريقيا بين عامي ١٤٤٠ و ١٨٧٠م إنما جلبوا بأيد إفريقية، وإن الإفريقيين هم من باعوا ذويهم وجيرانهم الأقارب أو الأباعد، وأنه لو لم يبع الإفريقيون أبناءهم لما استطاع الأوروبيون ممارسة هذه التجارة، إن البيع الذاتي كان موجوداً بين الأجناس الإفريقية والبيضاء أيضاً، وبقي ذلك على مدى التاريخ، متمثلاً في الممالك القديمة وجند جيوشها وفي المحظيات وغيرهم. وفي إفريقيا كانت صراعات القبائل والائتماء القبلي تدخل في حروب بعضها مع بعض حول المراعى أو منابع المياه ومن يؤسر يسرق ويباع، وكان إعلان فتح المدن للنهب والسلب بعد الغزو وانتصار الغزاة كان عقيدة عسكرية موجودة في أعراق الحرب والقتال في العالم القديم كله، واستمر قرونًا طويلة، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الفقر كان يدفع الناس أحياناً إلى بيع أولادهم لا للحصول على المال من ثمن هذا البيع، ولكن لأنهم متيقنون أن الأبناء المباعين سيجدون حياة أرغد وأمنًا من قسوة العيش التي سيجدونها في حياتهم مع أسرهم، وكان ذلك موجوداً بين شعوب الجراكسة والتركمان التي عرفناها في تاريخنا الوسيط في مرحلة تشكل الجيوش من الممالك وحكومتهم لبلاد في تلك الفترات.

والحقيقة أن الأفارقة لم يكونوا غافلين عما يحدثه الأوروبيون بشعوبهم، ولكنهم كانوا متحيزين وقصة ملك الكونغو «أفونسو الأول» خير شاهد، هذا الملك الإفريقي تحول إلى المسيحية وتعلم اللغة البرتغالية قراءة وكتابة، بعث إلى صديقه ملك البرتغال

(١) العبودية في إفريقيا - المرجع السابق ص ١٢٤.

«جوا الثالثة» يشكو إليه تجريد الكونغو من السكان بواسطة تجارة العبيد البرتغالية، كتب يقول له :

إن التجار يخطفون كل يوم شعباً من الأطفال وأبناء النبلاء وحتى أناساً من عائلتنا، إن الفساد والنزلة والخسة تنتشر، نحن نحتاج في هذه المملكة فقط إلى القساوسة ومدرسي المدارس ولا نحتاج لتجارة العبيد أو نقلهم، فرد عليه بذلك البرتغال الأوروبي المتحضر يقول له : «إنك تقول إنك لا تريد تجارة العبيد في مملكتك ؛ لأن هذه التجارة تجرد بلدك من سكانه ، على العكس من ذلك فإن البرتغاليين قالوا لي إلى أي مدى الكونغو واسعة ومكتظة بالسكان^(١) .

كان الغزاة البرتغاليون يتزلون إلى الساحل في الليل ويهاجمون قرى الصيادين، ومع الوقت قرر الإفريقيون أن يحاربوا دفاعاً عن أنفسهم وكانوا يكبدون البرتغاليين خسائر جمة، ومع زيادة خسائر البرتغاليين فإن «هنري الملاح» وهو الأول من ملوك أوروبا الذين استفادوا من العبودية أمر رجاله أن يغيروا من تكتيكاتهم وبدلاً من السيطرة على الإفريقيين بالقوة لجؤوا إلى أسلوب الشراء واستخدموا الغش والرشوة لكسب ثقة بعض الأهالي لإقناعهم بخيانة ذويهم وبيعهم .

وعلى كل تظل تجارة الرق عبر الأطلنطي إحدى أضخم الهجرات البشرية في التاريخ واقتناص العبيد يعد من كبرى المغامرات التجارية التي شنت خلال حقبة ما قبل الاستعمار ، وأن البرتغال كانت الدولة الأجنبية الرئيسية المنغمسة في هذه التجارة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم نافسها الوجود الهولندي في القرن السابع عشر، وفي القرن الثامن عشر أصبح لإنجلترا وفرنسا الهيمنة .

إن ٥٥٪ من مجموع الرقيق الذين شحنوا من إفريقيا عبر المحيط الأطلنطي جاءوا من إفريقيا الغربية من الأماكن الواقعة جنوب الكاميرون وعلى وجه الخصوص من الكونغو وأنجولا . وكانت المنطقة الواقعة بين السنغال وساحل العاج غير مهمة نسبياً في تجارة الرقيق، أما المنطقة الأساسية للتصدير فكانت شريطاً قصيراً من الساحل يمتد من

(١) العبودية في إفريقيا - المرجع السابق ص ١٢٥ .

ساحل الذهب (غانا) إلى الكاميرون، حيث صدر منها ٨٢٪ من مجموع الرقيق الذين تم شحنهم من إفريقيا الغربية



من المؤسف أنه قصة العبودية في إفريقيا لم تسجل إلا من جانب الغازي وحده ومن خلال عيون وكتابات الرجل الأبيض، أما الجانب الإفريقي فهي تداول شفاهة ولا يوجد بها سجل مكتوب. يقول «آدم هو تشيلد» في كتابه «شيخ الملك ليوبولد»: إن كل هذا النهر العريض من الكلمات كتبه أوروبيون وأمريكيون وهذا يوضح من أي جهة سجل التاريخ، أما الأصوات الإفريقية فهناك صمت مطبق، لقد تعاون الأمريكيون مع الأوروبيين على إخفاء الحقائق، ولكن سجل الغزاة الأوروبيين للعالم كله موجود بشكل كاف، فهناك إجماع بين المؤرخين أن البرتغاليين بدءوا تجارة الرق عبر الأطلنطي مستخدمين الخطف كوسيلة للحصول على العبيد الأوائل.

ويذكر هو تشيلد نقلاً عما كتبه «جومز دي زورارا» كاتب الحوليات البرتغالي الذي كان ملحقاً ببلاط ملك البرتغال هنري الملاح: إن البرتغاليين استخدموا أولاً الحرب على السود عام ١٤٤٤م لاقتناص العبيد الأول، كان البرتغاليون يصيحبون سان جيمس سان جورج ويهجمون على الأفارقة يقتلونهم ويخطفون ما يستطيعون منهم، وكنت تشاهد الأمهات يبغشن عن أطفالهن والأزواج عن زوجاتهم، والكل يفر بقدر ما يستطيع من جهد، وبعضهم كان يلقي بنفسه في الماء والبعض يهرب ويختفي في الأكواخ والبعض في الأدغال^(١).

وعلى كل الأحوال إذا كان قلة من الإفريقيين تعاونوا مع تجار الرقيق البيض، فتظل المسؤولية معلقة بالتجار المشترين الذين كانوا يجمعون الشباب الإفريقيين ويسوقونهم إلى أمريكا. ويسجل للمؤرخ الفرنسي «هنري والون» القول: إن عبودية الأوروبيين للأوروبيين التي استمرت حتى العصور الوسطى في أوروبا قد توقفت وأدمنت في القرن الثاني عشر، وبعد ذلك في سنة ١٤٤٤م ترى الأوروبيين أنفسهم يذهبون إلى

(١) العبودية في إفريقيا - المرجع السابق ص ١٢٧.

إفريقيا ليشتروا العبيد، ثم تمضي الأيام ويقولون نحن لسنا مسئولين شأنهم في ذلك شأن من يشتري بضاعة مسروقة ثم يقول للمحكمة أنا لست مذنباً لأنني دفعت الثمن، رغم أنه يعرف أنها مسروقة وأن البائع له لم يكن من حقه أن يمتلكها.

إن الحقيقة التي يجب ألا تغيب هي أن كل ما كان يطلبه الأوروبيون في أي مكان في العالم كانوا يحصلون عليه سواء بالسرقة أو الغش فإن لم ينجحوا بأي من هاتين الوسيلتين فبالقوة. فإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل فضلاً عن الكاريبي وأستراليا ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا وزيمبابوي فإن الأوروبيين سيطروا على الأرض وأزاحوا الأهالي، وأحياناً كانوا يسممون منابع المياه أو يعطونهم هدايا مسمومة كما فعلوا في أمريكا، وكان الأهالي المحظوظون الذين لم يقتلوا يجمعون في معسكرات معزولة.

لذلك يمكن القول إنه عندما لم يكن يجد الأوروبيون من يتعاون معهم في استجلاب العبيد كانوا يلجؤون إلى إبادة الأهالي والامتلاك الكامل لأراضيهم كما حدث في الأمريكتين وأستراليا ونيوزيلندا، وكما حاول الألمان أن يفعلوا في ناميبيا، حيث أزاحوا تقريباً 70٪ من الشعب بين أعوام 1887 و 1907م، أو كما فعل الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا في الكونغو حيث قتل وأباد واستعبد في إرهاب المطاط عدداً يتراوح بين ثلاثة وخمسة ملايين في الكونغو بين أعوام 1890 و 1910م.

واليوم لا الألمان ولا البلجيكي يفكرون أن يقدموا أية تعويضات عن قتلهم هؤلاء الأفارقة في ناميبيا أو الكونغو في حين تجد ألمانيا سعيدة جداً وفخورة بأنها تعوض اليهود.

الحق في التعويض

مما تقدم نجد أن حق الأفارقة للمطالبة بالتعويضات عن حقبة العبودية مطلب عادل ومشروع ومعترف به في القانون الدولي. وقد عرفته المحكمة الدائمة للعدالة الدولية (التكوين السابق لمحكمة العدل الدولية) «إن التعويض يجب أن يقدر بما يمكن أن يزيل تماماً جميع النتائج التي ترتبت على العمل غير المشروع، ويعيد إلى الوجود الحالة أو الوضع الذي كان موجوداً قبل أن يرتكب الفعل غير المشروع وذلك بقدر الإمكان».

وأن الوفاء أو الرد يجب أن يكون عينياً فإذا لم يكن جاز دفع مبالغ تتناسب مع قيمة الوفاء العيني ، وهو تعويض عن الهلاك الحاصل والخسائر التي تحققت والتي لا يمكن إعادتها من جديد عينياً فيؤدي التعويض بدلاً منها . وقد حدث في عام ١٩٥٢م أن توصلت ألمانيا لاتفاقية مع إسرائيل تدفع ألمانيا بموجبها ٢٢٢ مليون دولار ، وذلك نتيجة لدعوى رفعتها إسرائيل عن نفقات إعادة توطين ٥٠٠ ألف يهودي هربوا من البلاد التي سيطرت عليها النازية ، وهكذا نجحت إسرائيل في دعواها عن التعويضات من ألمانيا وعن نفقات توطين اللاجئين اليهود ، رغم أن إسرائيل لم تكن قد وجدت كدولة بعد في الوقت الذي ارتكب فيه النظام النازي جرائمه . وبعد ذلك في عام ١٩٩٠م . دفعت النمسا ٢٥ مليون دولار لمن بقوا أحياء من المحرقة اليهودية ، وأدت اليابان تعويضات نقدية لكوريا الجنوبية لما ارتكبته من أفعال خلال الغزو والاحتلال الياباني لكوريا . وفي سنة ١٩٨٨م أصدر الكونجرس في الولايات المتحدة قانوناً خاصاً بالحريات المدنية لأداء تعويض لليابانيين الأمريكيين بالنسبة لما فقدوه عندما اعتقلتهم الحكومة الأمريكية بأعداد كبيرة في فترة الحرب التي جرت بين أمريكا واليابان وكان المجموع هو ١,٢ مليار دولار بواقع ٢٠ ألف دولار لكل شخص . وأصدر مجلس الأمن قراراً طالب فيه العراق بأن تؤدي تعويضات لغزو الكويت . ودفعت مصر تعويضات عن الأملاك البريطانية التي صودرت أو استولى عليها أيام حكومة عبد الناصر .

وطبقاً لذلك فإن مطلب التعويضات الإفريقية يركز على ثلاثة افتراضات^(١) :

- ١ - إن الخطف الجماعي والاسترقاق الجماعي للإفريقيين هو أكبر الجرائم الجماعية في سجل التاريخ البشري .
- ٢ - لم يدفع تعويض قط من مرتكبي هذا الأمر إلى أي من قاصوامنه .
- ٣ - إن كل نتائج الجريمة بقيت شاملة سواء في ثروات الخلفاء والأحفاد الأوروبيين ، أو في شكل الإفقار لإفريقيا والخلفاء الإفريقيين وحفدتهم ، ومن ثم فإن قضية التعويض تتأكد بغير شك .

(١) بحث قدمه المحامي البريطاني اللورد هانتوني جيفورده عن الأساس القانوني لمطلب تعويض الأفرقة في المؤتمر الأول لبحث موضوع التعويضات الذي انعقد في أوجانبيجيريا في إبريل ١٩٩٢م .

إن ميثاق محكمة نورمبرج عرف الجرائم التي ارتكبت ضد السلم : بالتخطيط أو الإعداد أو التهديد أو خوض حروب عدوان ، وكذلك جرائم الحرب بانتهاك القوانين والأعراف الخاصة بالحرب بما في ذلك القتل وسوء المعاملة والترحيل لأعمال السخرة وذلك بالنسبة لأهالي الإقليم المحتل أو الشاغلين لهذا الإقليم . وكل هذه الجرائم مارسها الأوروبيون على الإفريقيين زهاء خمسة قرون منذ أن نزلوا إفريقيا في منتصف القرن الخامس عشر حتى الستينيات من القرن العشرين وقت تحرير إفريقيا .

إن غزو الأراضي الإفريقية والاصطياد الجماعي للإفريقيين والفظائع التي ارتكبت والشحن الحيواني للبشر الإفريقيين إلى الأراضي الأمريكية والتمييز ضد الإفريقيين المرحلين في اللغة والثقافة كل ذلك يشكل انتهاكاً لهذه القوانين الدولية .

وإن الوقت الذي مر منذ انتهاء العبودية لا يشكل عائقاً أمام دعاوى الشعوب الإفريقية باعتبار أنه يمكن إثبات النتائج والآثار التي ترتبت على جريمة العبودية التي لا تزال مستمرة ولا تزال تعلن عن نفسها وعن الأضرار التي لحقت بالإفريقيين سواء من يعيشون منهم في إفريقيا أو من يعيشون في الشتات . ففي القارة الإفريقية حضارات مزدهرة دمرت ، ونظم حكم وحكومات سحقته وملايين من المواطنين أجلوا بالقوة ، وترتب على ذلك مباشرة إفقار وتخلف يؤثر إلى الآن على إفريقيا وكل قاطن في إفريقيا السوداء .

ولا توجد حدود زمنية في القانون الدولي تسقط الدعاوى فإن التأخير لا يصلح سبباً لرفض الدعوى . إن الشعب الإفريقي إلى وقت قريب جداً لم يكن له صوت مستقل ولا كان له أي وضع مشخص له في الجماعة الدولية ، وكيف كان يمكن للشعوب أن تطالب بحقوقها في التعويضات عندما كانت دولهم تعتبر ممتلكات لما وراء البحار ومملوكة لهذا البلد نفسه الذي اختطف أسلافهم واستعبد لهم . وحتى بعد استقلال الأمم الإفريقية من الاستعمار فإن الارتباطات ونظام الاستعمار الجديد قد غتاً من قوة الحكومات الإفريقية في أن تتحدث بأي نبرة مستقلة ضد غزاتهم السابقين . لقد استغرق هذا الأمر نحو أربعين سنة أو يزيد منذ الحصول على الاستقلال الشكلي لكي يرتفع الصوت المطالب بالتعويضات .

مؤتمرات مناهضة العنصرية والتعويضات

والآن . . من المستول عن أداء التعويضات؟ هل المشتري المتمثل في حكومات الدول التي شجعت تجارة الرقيق وأيدتها وشرعت مؤسسة العبودية وتربحت نتيجة لهذا الأمر وحقت أرباحاً طائلة من العبودية، أم البائع المتمثل في التاجر العربي والقناص الإفريقي؟ بهذا الخصوص عقدت ثلاثة مؤتمرات عالمية لمناهضة العنصرية وبحث التعويضات: الأول عقد في أبوجا بنيجيريا عام ١٩٩٣م وفيه بحث المحامون ورجال التاريخ الوسائل العملية للحصول على تعويضات عن العبودية والاستعمار. وعقد المؤتمر الثاني عام ١٩٩٩م في أكرا بغانا، وقد أصدر إعلاناً طالب فيه بدفع مبلغ ضخم للتعويض عن استعباد الأفارقة واستعمار قارتهم، وكانت المطالبة موجهة لكل من الدول والتنظيمات في أوروبا وأمريكا التي شاركت واستفادت من تجار الرقيق ومن الاستعمار، وطالب إعلان أكرا بأن تؤخذ حصيلة التعويضات المطلوبة من قيمة الديون الخارجية لإفريقيا. وعقد المؤتمر الثالث في دربان بجنوب إفريقيا عام ٢٠٠١م حضرته ١٦٥ دولة [وكان قد سبقهم مؤثران لمناهضة العنصرية عقدتهما الأمم المتحدة عامي ١٩٧٨، ١٩٨٣م].

كانت القضية الأساسية في مؤتمر دربان قضية الرق والاستعباد ومسئولية الدول الغربية الاستعمارية عنها وحمية الاعتراف بآثارها، ومن ثم دفع تعويضات مادية وتقديم اعتذارات معنوية عما اقترفته. كان مطلب الدول الإفريقية من الدول الغربية الاعتذار عن تجارة الرق وحقبة العبودية التي استمرت قرونًا، وفيه شعر المستعمرون القدامى والجدد بالورطة التاريخية على أرض الجريمة وأمام الضحايا وأحفادهم وفوجئوا بهذه الهبة الإفريقي فاثروا إفشال المؤتمر عن طريق الانسحاب، فانسحب الوفد الأمريكي وهدد الاتحاد الأوروبي بالانسحاب أو الانصياع.

كان المؤتمر مواجهة بين المضطهد والمضطهد بين الجاني والضحية، لذلك لم ينجح في تقديم خطوة فيما يتعلق بقضيته الأساسية وهي الاعتذار والتعويض وسقط في ديلومانية التهديد والضغط والانسحاب، فتأججت مشاعر الحناء والرقص وتقسيم المؤتمر إلى شمال وجنوب، ورُفض تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية ورُفض حتى فكرة الاعتراف بالظلم أو الاعتذار عنها، فلم يتحمس لها سوى ألمانيا وإيطاليا

أقل دول أوروبا تورطاً في جريمة الرق. أما الدول ذات السجل المأساوي والانتهاكات الفادحة وعلى رأسها بريطانيا وأمريكا والبرتغال وإسبانيا وهولندا فقد أعلنت صراحة أنها لن تعتذر ولن تقدم تعويضات واقتاحت فقط الإعراب عن الأسف. وهكذا نجح الغرب في أن يحول جريمة العبودية التي تثيرها إفريقيا والمشتتون منها إلى اعتبارها مجرد حادث مأساوي كما لو كان زلزالاً أو إعصاراً طبيعياً، ولم يصدر المؤتمر إعلاناً أو وثيقة وإنما صدر بيان ختامي أقر أن العبودية جريمة ضد البشرية (دون الاعتراف بها) وبأن العبودية والاستعمار من المظالم التاريخية التي أسهمت بشكل لا يمكن إنكاره في انتشار الفقر والتخلف والتهميش والعزلة الاجتماعية والتفاوت الاقتصادي.

وعندما فشلت إفريقيا في إجبار الدول الغربية على تسديد فاتورة العبودية ووجدوا صموداً ورفضاً صريحاً في تقديم التعويضات لضحايا الرق والعبودية، بدأت تبحث عن الجانب الأضعف في المشاركة في هذه الجريمة الإنسانية، وهم العرب لممارستهم تجارة الرقيق في إفريقيا.

ساعد على ذلك أن حركة قومية نشأت في أوساط السود الأمريكيين وأفارقة المهجر تجددت وتعاونت مع الجماعات الصهيونية داخل المجتمع الأمريكي، وهذه الحركة برزت بشكل ملحوظ في السبعينيات من القرن العشرين كاتجاه لا يثنى بالعرب، وخضعت لتأسيس منذ أحداث سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وأبرز رؤى هذه الحركة أن العرب في الشمال الإفريقي ليسوا من شعوب إفريقيا بل شعب غريب ساهم في تدمير إفريقيا مثل الغرب وأنهم منبوذون.

وقد عبرت هذه الحركة المناهضة للعرب عن نفسها بالمطالبة بتعويضات من الجامعة العربية نظير ممارسة العرب للعبودية وتجارة الرق في القارة وهذه الاتجاه المتحامل على العرب تغذيه الكتابات والدعاية الغربية ووجد استجابة لدى بعض المفكرين الإفريقيين مثل الكاتب النيجيري الشهير «ول سوينكا» Wole Soyinka * الحائز على جائزة نوبل في الأدب، وهو يعد أكثر المؤمنين بفكرة مسئولية العرب والمسلمين

عن الرق ويرى أنهم مذبذبون فيما يتعلق بالعبودية وتجارة الرق الإفريقي، ويطالب بتعويضات من المسلمين العرب^(١).

وقد نجحت هذه الحركة في فبراير سنة ٢٠٠٣م في عقد مؤتمر في جوهانسبرج بجنوب إفريقيا بعنوان «مباشرة العرب لتجارة العبيد في إفريقيا»، وفيه ارتفعت أصوات عدد من المثقفين من جنوب القارة يهتمون الدول العربية جميعاً وخاصة دول الشمال والشرق الإفريقي بأنها استغلت الجنوب قديماً وباعتهم عبيداً لأسواق الغرب. وفي نهاية المؤتمر أصدروا البيان التالي:

ونحن إذ نؤكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعبها قد عملوا بوصفهم مستودعاً للعمل غير المأجور الذي حصل عليه الآخرون من خلال عمليات بالغة القسوة والبعد عن الإنسانية في مناطق الأطلنطي والبحر الأبيض والمحيط الهندي وطرق التجارة، ففي هذا الصدد:

■ نحن ندين بأقوى الكلمات الممكنة كل أشكال العبودية في الماضي والحاضر في كل أجزاء العالم.

■ نحن نعترف بأن تجارة العبيد التي باشرها العرب بالنسبة للشعب الإفريقي ومن التجارة العابرة للأطلنطي كانت تمثل القسم الأكبر والمدة الأطول في إزاحة الأهالي عبر تاريخ البشرية كلها.

■ نحن نعترف بالرغبة في محاربة وإنهاء فقدان الذاكرة الجماعية الخاصة بعبودية العرب للإفريقيين. وفي هذا الصدد نحتاج إلى بحث أطول للبحث عن موضوع تجارة الرقيق التي مارسها العرب والعثمانيون. نحتاج إلى مجموعات عمل تُسهم في إعادة الوعي الشعبي في إفريقيا وعلى نطاق العالم، وأن الأكاديميين والباحثين من أهل إفريقيا مدعوون ليقوموا بدور فعال في هذا الشأن.

(١) المرجع السابق - المؤتمر الدولي «الإسلام في إفريقيا» الكتاب السابع، بحث المحلل الإفريقي والمسئولة عن تجارة الرقيق والعبودية، د. محمد أبو العين ص ١٦٠.

* نحن نقر بالحاجة إلى تحريك الهياكل على النطاق العالمى لحو وإلغاء الممارسات العبودية فى العالم .

* نحن نطالب بأن يكون موضوع العبودية المعاصر للإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية ، وأن يوضع هذا الموضوع أمام الاتحاد الإفريقى .

* نحن نشجب أثر العبودية الإفريقية على الإفريقيين وما أنتجته فى تصفية الثقافة الوطنية لهم .

* نحن نعرف الحاجة إلى تأسيس علاقات بين الإفريقيين فى القارة والإفريقيين فى الشتات فى العالم العربى .

* نحن ندين عمليات شراء العبيد لتحريرهم ، وفى تقدير المؤتمر فإن شراء العبيد لتحريرهم الذى يسمى «فدية العبيد» هو نوع من إسباغ الشرعية على العبودية .

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة اتخاذ الجوارى والمحظيات بالقوة واستعباد النساء الإفريقيات واستخدام الجوارى الإفريقيات من أجل استيلاء الأولاد الذين يقون مملوكين للسلادة العرب .

* نحن ندين بأقوى العبارات الممكنة الدور التعاونى الذى يقوم به إفريقيون فى هذه التجارة .

* نحن نتهم المجتمعات العربية بالنسبة للجرائم التاريخية المستمرة التى مارسوها ضد النسبة الإفريقيين الذين خضعوا للخصى الإجبارى الذى لم يعش منه نسبة ١ : ١٠ ، وذلك لخلق طبقة من الأغوات (المخصيين) .

* نحن نتهم المجتمعات العربية على ما صنعت تاريخياً ولا تزال تصنعه بالنسبة للمصبايا البنات ، يعملن كمجوار من أجل الجنس لساتنهن وبغير حق أن يتزوجن إلا بمشيئة سادتنهن .

* نحن نتهم المجتمعات العربية فى بعض مناطق الحدود العربية الإفريقية بممارسة القتل الجماعى ضد الأفارقة وخاصة فى السودان .

• نحن نتهم المجتمعات العربية بالمستولية عن الإبادة العرقية للشعب الإفريقي من خلال عمليات التعريب الثقافي المفروضة بالقوة.

• وأخذاً في الاعتبار أن مباشرة العرب لتجارة العبيد في إفريقيا على مدى ألف سنة قد أحدث دماراً لا يمكن تقديره للإفريقيين وللمجتمعات الإفريقية، ويحتاج إلى الاعتذارات وإلى التعويضات للإفريقيين، فنحن ندعو إلى حوار حضارى بين العرب والشعوب الإفريقية.

وهكذا قلب المؤتمر الميزان والثوابت واعتبر أن العبودية ليست ما كانت عبر الأطلنطي وإنما هي ما قام بها قلة من التجار العرب. لقد بدأ البيان بداية سليمة عندما أكد حقيقة أن القارة الإفريقية وشعوبها اعتبروا مستودعاً للعمل غير المأجور مورست معهم القسوة البالغة في ذلك، وذلك في مناطق المحيط الأطلنطي والبحر الأبيض والمحيط الهندي. كل ذلك مدان طبعاً تاريخياً وواقعياً بكل أشكال الإدانة. إنما البيان بعد ذلك يركز على الممارسات العربية وحدها في هذا الشأن ويعتبرها أنها تشمل المدة الأطول في إزاحة الأهالي.

وبعد أن يقرر هذه المسألة باعتبارها الحقيقة التي يتعين التركيز عليها الآن، يعترف مباشرة بأن ثمة فقداناً للذاكرة الجماعية بخصوص عبودية العرب للإفريقيين، وأن الأمر يحتاج لبحث أطول ويدعو الباحثين والأكاديميين إلى التفتيش والعمل في موضوع تمهارة الرقيق التي مارسها العرب والعثمانيون.

فالبيان هنا وضع النتيجة قبل أن يبحث المقدمات والوقائع أى أنه يعترف بأن الأبحاث إلى اليوم والوقائع المتاحة معرفتها إلى اليوم لم تظهر بعد دعواه بالنسبة لعبودية العرب للإفريقيين وأنها تساوى أو تجاوز كثيراً ما مارسه الغربيون مع الإفريقيين. وهذه نظرة تفضح الشعوب الإفريقية بالتعامل في مواجهة العرب وتنسب إليهم الجرم قبل أن تثبت وتدعى أن فقدان الذاكرة الجماعية هو السبب، دون أن يذكر لنا البيان لماذا فقد الإفريقيون ذاكرتهم بالنسبة للعرب ولم يفقدوها بالنسبة للغرب. والقول إن الغربيين سجلوا وقائع استعبادهم للإفريقيين ولم يسجل العرب ذلك قول غير صحيح لأن المؤرخين العرب أثبتوا في تواريتهم كل ما وقع عليه بصرهم أو تناولته

الأقلام والألستة أو نزل إليهم من الأجيال السابقة لهم، أثبتوا كل ذلك حتى لو كان ضد معتقداتهم. ومن جهة أخرى فإن وقائع استرقاق العرب للأفارقة أثبتتها العرب أيضاً في نطاقها بمثل ما حدث بالنسبة لوقائعها، والأرشيقات العربية والمذكرات الشخصية والكتب العربية توضح ذلك ولعلها ركزت عليه بأكثر مما ركزت عليه استرقاق الغرب للإفريقيين.

وقد عرضنا بأمانة موضوع تجارة الرقيق كما مارسه العرب والمسلمون بوجه عام، وعرضناه مستندين إلى الكتب الغربية التي عكست وجهات نظر الغربيين والأغلب منها يستند إلى تقرير ومذكرات الرحالة والساسة الغربيين الذين لم يكن هدفهم ذكر الحقائق المجردة إنما كان هدفهم الاستعمار والسيطرة على هذه البلاد حسبما أسفرت الحقيقة التاريخية وكانوا في هذا الشأن يحورون الحقائق بما يتلاءم مع أهدافهم، ومن قال ببدائية الإفريقيين وأنكروا حضارتهم هم أنفسهم الذين نعتوا العرب والرؤساء الأفارقة أيضاً بأفبح النعوت وأمين إياهم بأنهم مسئولون عن تجارة العبيد وغير ذلك، واعتمدنا على هؤلاء أيضاً فيما ذكرناه من وقائع فلا يقال إننا دافعنا عن العرب والمسلمين والأفارقة من موقف منحاز إليهم على حساب غيرهم.

إنما يستحق النظر ثلاثة أمور مهمة جداً، أولاً: إن استرقاق العبيد لدى العرب والمسلمين كان يجرى في إطار استخدامهم في أعمال الخدمات في الأساس كما سبق البيان، بينما استرقاقهم لدى الغرب كان الغرض الأساسي منه استخدامهم بوصفهم عمالة في الأمريكيات فأضيف إلى سلطة السيد على عبده سلطة رب العمل على العامل. ثانياً: إن الموقف العرقي يعتبر الجنس الأسود في عيون الجنس الأبيض ليس من البشر. ثالثاً: بهذا الاضطهاد المثلث الدرجات (العبد والسيد ورب العامل والعمل والأبيض والأسود) استخدم الإفريقيون لا بوصفهم عمالة ولكن بوصفهم قوة محركة كما تستخدم الجمال والحيل وغيرها من وسائل النقل والحراث، وهذا أقسى وأبشع ما يستخدم فيه البشر لا من حيث الجهد العضلي فقط ولكن من حيث النظر إليه باعتباره خارج نطاق البشر، ودليل ذلك أن حركة تحرير العبيد في أمريكا لم تظهر إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر، لم تظهر فقط بسبب احتياج رأسمالية الشمال للعمالة

للمعمل المأجور إنما ظهرت عندما كانت الآلة كقوة محركة أصبحت هي السائدة مما أمكن بها الاستغناء عن الجهد العضلي للعبيد بوصفهم قوة محركة .

أما في الشرق فإن الشعوب الإسلامية والعربية استخدموا هؤلاء ليس في الإنتاج ولكن في الخدمات وفي الجيش وغير ذلك . لذلك فالمسألة ليست في التجارة فقط إنما هي في هذا الكائن الذي يتاجر به وكيف يعامل ، هذه النقطة لا يمكن أن تنفصل عن موضوع التجارة نفسه وليست كل عمليات البيع والشراء سواء ؛ فالعبيد هناك كان فيهم بيض ورجال ونساء أكثر من الرجال ، وفيهم احتمالات الاندماج في المجتمعات وإمكانية الزواج والإنجاب ، وفيهم من صعد في الجيوش وصار بعضهم من النخب الحاكمة .

إن ما يطالب به البيان عن تحقيق ما لا يزال جارياً من استعباد الإفريقيين عند الحدود العربية الإفريقية سواء في موريتانيا أو في السودان كما يقول فهو أمر لا بد من تحقيقه فعلاً وكشفه ودمغه .

وبالنسبة لما ذكره البيان من إدانته لتعاون الإفريقيين في تجارة العبيد فإن الثابت أيضاً أن العرب لم يشاركوا في تجارة العبيد بأكثر مما شارك فيه الإفريقيون أنفسهم . وإن استخدام الجوارى الإفريقيات من أجل استيلاء الأطفال وغير ذلك يدان طبعاً ولكن يتعين أن نذكر أن هذا الأسلوب من أسلوب استخدام العبيد هو استخدام منزلي وأسرى لا يمكن أن تقارن قسوته بما كان يحدث من استخدام الذكور والإناث في المزارع الأمريكية ، وهذا باعتراف المؤرخين المنصفين والشرقاء .

أما عن عملية التعريب الثقافي المفروضة على الإفريقيين من جانب العرب فإننا لا نجد أن سلطة عربية اشتد ساعدها في احتلال البلاد الإفريقية بالشكل الذي يجعلها تفرض ثقافتها عليها . والثابت تاريخياً أن انتشار الإسلام في إفريقيا كان يجرى عن طريق الدعاة من التجار والطرق الصوفية بغير غزو ولا سلاح ولا حكومات احتلال .

ومع ذلك وبعيداً عن كل ما سبق ، ولا خضوعاً لابتزاز الإفريقيين بإلقاء تهمة الاتجار في العبيد على العرب بأكثر مما فعله الأوروبيون ، فإن من واجب الدول العربية ذات

الفوائد من عائدات البترول أن تساعد الشعوب الإفريقية الفقيرة العاجزة بتقديم
معونات لا ترد أو قروض ميسرة لإنقاذ الشعب الإفريقي من الموت جوعاً وعوزاً،
وليس هذا من باب الكرم وإنما مسئولية إنسانية وتسديد الدين سابق، وحتى لا يتهرب
عالم الغرب الغنى من تسليده لفاتورة العبودية.

الحمد لله

هذا الكتاب

إن الوهن الإفريقي حيال تحديات التغيير والبناء والتطور التي تواجهه إفريقيا . . له جذوره الضاربة عبر التاريخ؛ قرون خضعت فيها القارة لتجربتين قاسيتين من تجارب العبودية والاعتراب وهما تجارة العبيد عبر الأطلنطي وغرابة الشباب الإفريقي وانسلاخه عن واقعه .

التجربة الأولى وهي مرحلة الرق البشري والأسر المادي، أفرغت القارة من أبنائها وقذفت بهم في أوروبا والأمريكيات بلا عودة . والتجربة الثانية لا تختلف في موارثها وآثارها المدمرة عن سابقتها وهي مرحلة الأسر الثقافي للشباب الإفريقي، أنصار الحدائث، الذين تعلموا في الخارج وأصبحوا عبيدا للثقافة والسكر الغربيين، وهؤلاء من وصل منهم إلى السلطة اعتبر التقاليد الإفريقية عقبة في سبيل تحرير إفريقيا وصاروا يقمعون ويضطهدون شعوبهم مثل مستعمرهم السابقين .

الوهن الإفريقي الذي نشاهده الآن هو نتاج هاتين التجربتين القاسيتين من تجارب العبودية وهي التي أعاقت التطور والإصلاح والتنمية .

إن تجارة العبيد واسترقاق ملايين الأفارقة عبر أربعة قرون كان ذا أهمية حاسمة في بناء إمبراطوريات الدول الاستعمارية الغربية والنتاج الثروات التي فجرت الثورة الصناعية فيما بعد .

وهذا الكتاب يتعلق بمأساة التجربة الأولى وهي جريمة تجارة الرقيق التي مرت بنظم ثلاث: العبودية بالقرصنة، والعبودية بالتحالفات، والعبودية بالمشاركة، وهي الجريمة التي ضربت القارة الإفريقية وأوقفت نموها الحضاري وعلقت وأفسدت تسبج المجتمعات فيها وحضرت في النفوس عقدة التذني .

إن جريمة تجارة الرق وبواعثها وأطرافها وما أحدثته في القارة من تدمير، لا يزال يحيط بها الغموض والصمت، وعلى الأفارقة أن يذيعوها دون حجل؛ لأنها تدين وتبرز ضعف القيم الإنسانية والصميم الإنساني في عهد المستعمرين وقناصي الرقيق، ومن حق الأفارقة الآن أن يطالبوا المجتمع الدولي بالتعويضات عن فترة العبودية .

